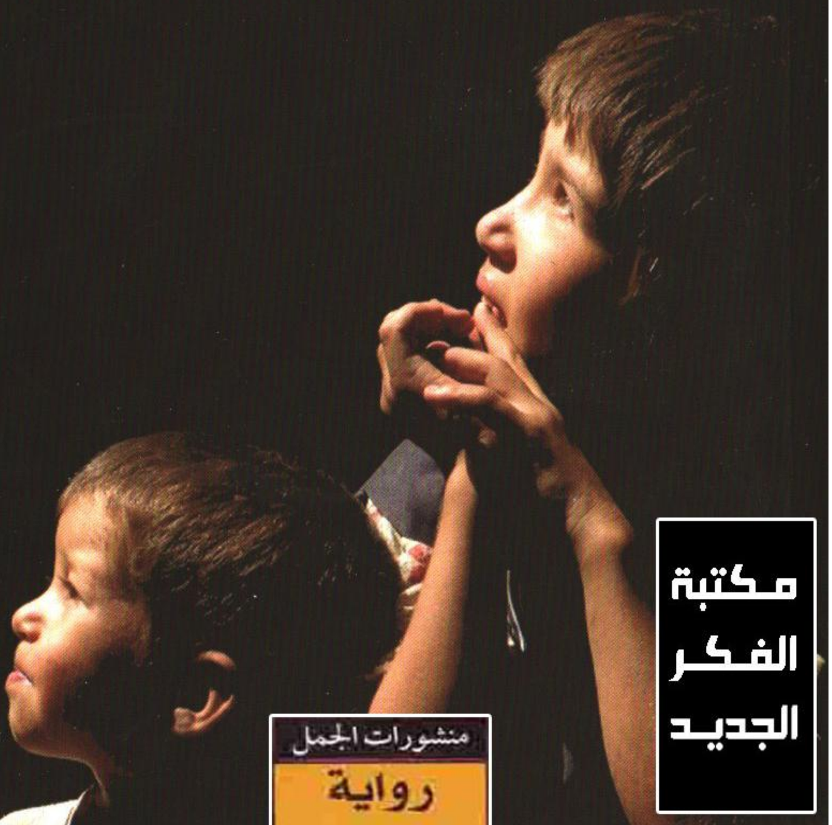
أحمد سعداوي

البَلَدُ الجَمِيل



منشورات الجمل

رواية

احمد سعداوي، البَلَدُ الجَمِيل، رواية

أحمد سعداوي

البَلَدُ الجَمِيل

رواية

منشورات الجمل

احمد سعداوي: روائي وشاعر عراقي. مواليد بغداد ١٩٧٣. صدر له: عيد الأغنيات السيئة، شعر، مدريد ٢٠٠١؛ البلد الجميل، رواية، بغداد ٢٠٠٤، حازت الجائزة الأولى للرواية العربية في دبي ٢٠٠٥؛ إنه يحلم او يلعب او يموت، رواية، دمشق ٢٠٠٨، حازت جائزة هاي فاستيفال ٢٠١٠، بيروت ٣٩. حازت روايته فرانكشتاين في بغداد جائزة البوكر للرواية العربية ٢٠١٤.

أحمد سعداوي: البَلَدُ الجَمِيل، رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

[أَنْتِ هِيَ الَّتِيْ خَرَجَتْ مِنْ عَقْلِي وفِكْرِي ! ومَعَ ذلكَ يا شَهْرَزَادُ، تَخْطِفِيْنَنِي اليُوْمَ وتَحْبِسِيْنَنِي بَيْنَ جُدْرَانِ هَذَا القَصْرِ الكَبِير؟!]

(القصرُ المسْحُورُ/ طه حسين، توفيق الحكيم) ص٣٩ .

- ٥ -

نـود، أغـنيتي التي رحلتْ. نصفُ تفاحتي، سمكةُ أيامي اللائبة في بحيرة صمتي، كلمتي التي أكرّرها مراراً. لماذا أناولُ نفسي من يدي، وأسْكرُ بلذّةِ فقدكِ؟ لماذا أتيهُ وأنا بجواركِ، وأتلمسُ في العتمةِ كلَّ شيءٍ إلّاكِ. لا أستطيعُ النظرَ الى العيون التي ترنو إليكِ، وينتِ تنزلين من الحافلة، بشفتين مضمومتين وظهر حَدَّبَهُ ارهاقُ يوم العمل الطويل. لا أستطيعُ منعهم أيضاً، من أن يفعلوا بعيونهم ما يشاؤون وأنت تدخلين الزقاق، متجاهلةً انتظاري. ومن أجل ذلك سأسددُ في المرَّة المقبلة إطلاقةً الى صدركِ الجميل، أمزّقُ لَغَطَ السابلةِ بصوتٍ حادٍّ. فبهذهِ الطريقة، ربّما سأتحرَّرُ منكِ. ومن تذكّري الدائم لكِ ولنا. ومن الصور التي تنهمرُ عليَّ طوالَ اليوم لما تقومينَ بهِ بعيداً عنّي، من وجوه الآخرين وهم ينظرون إليكِ، وانحشارُكِ بين الركاب والتصاقُ أكتافهم وأرجلهم بكِ. أنتِ لا تكترثين، وترمينني كلَّ مرَّةٍ بإجابة باردة، تجعل ألسنةَ النيران التي تُلْهِبُ شفتيَّ، تلتفُ داخلةً الى أعماقي. ولكنّك بعيدة الآن، وأنا أثرثرُ وحدي، مسوّراً بيقين مؤلم، إنّني كنتُ مكشوفاً أمامك مثل راحة اليد يا نـود، وذلك ما لم أقوَ على الاعتراف به أبداً.

- ١ -

زارتني صديقتي الفرنسيّة. دخلتْ الى شُقَّتي أخيراً يا نـود. كان الجرسُ يَخِنُّ كـأنّه صوتُ شخص مصاب بالزكام، بينما كنتُ نائماً على الكرسي الطويل. ظلَّ الصوتُ المزعجُ يداعبُ أُذُنِي حتى انتبهت في النهـاية أنَّ أحداً ما يضربُ عليه فعلاً، لن أقول إنَّ ذهني كان منشغلاً بأشياء كثيرة لحظة دخول هذه الصديقة، بجسدها المضموم الصغير. لقد انتبهتْ عيناي الناعستان فقط الى شيطان الحبِّ أو ملاكه، وهما يدخلان معها. لم تكن أجمل منك، لقد تعرّفت عليها مؤخراً اثناء تجوالي في المدينة، ولربّما كانتْ ميزتُها، هي أنتِ يا نـود ، إنّك تنبعثين من كلِّ جزء فيها، فتملأينني إثارةً، أتملَّى سُتْرَتَها الجلديّة الطويلة، وحذاءَها ذا العنق، ياقةَ قميصها المُكَرْكَشَة والمدلّاة بعبث حول رقبتها النحيفة البيضاء، ولا أملكُ تفسيراً آخر لانْجذابي نحوها.

بدأتْ تتفحّص شقّتي الصغيرة. تقتربُ من الأشياء المبعْثرة، تُنْعِمُ فيها النظر للحظات ثمَّ تلتفتُ إليَّ باسمةً. لقد قرأتُ أنَّ كلَّ امرأة غريبة تفعل ذلك حين تدخل شقّة صديقها لأوّل مرّة. لقد قرأتُ ذلك في الكثير من القصص الأجنبي. وليس هنالك ضَيْرٌ، في أنْ تفعلَ صديقتي ذلك أيضاً، إنَّها تعرفُ مثلاً، ومنذ لقائنا الأول، أنّنا غير قادرين على التواصل عبر اللغة بشكل أكيد. أتلعثمُ بكلماتي الانكليزية القليلة، وتتلعثمُ هي بكلماتها الانكليزية القليلة، محاولين مدَّ حوار عقيم، لكنّها على أيّة حال أكثر جراءةً منّي، تحركُ يديها أثناء الكلام، وتشيرُ الى اتجاهات كثيرة، بإصرار غريب على جَعْلِي أفهمُ ما تريدُ قوله.

جلستْ على الكرسي الطويل، ووضعتْ حقيبتها الصغيرة على

المنضدة المزدحمة بأغراض وكتب تتحدثُ عن بلدي الذي أتيتُ منه، بعثها لي عبر البريد أصدقاء طفولتي. بعد همهمات وجمل ناقصة وإشارات من يديها ويدي، تركتُها جالسةً تعقدُ ساقيها واقتربتُ من الثلاجة وفتحتُ بابها الصغير ثم فكَّرت، كيف سأسألها عن العشاء، ماذا يُسَمُّون العشاء، هل سنتعشّى مثلاً؟ أخذت علبتي بيرة مثلّجة وهممت بالجلوس الى جوارها، كان شيطاني الصغير وملاكي الأصغر يبتسمان في وجه بعضهما البعض، كأنّهما ينظران في مرآة، حين انحنيتُ إليها باسماً بعلبة البيرة الباردة.

لم تكنْ زيارتها لأجل البيرة أو العشاء، أنا أعرفُ ذلك، ولا حتى من أجل الحوار المستحيل، لذا أشعرُ في هذه اللحظة بالخيانة. رغم أنَّ ما يجذبني فيها هو أنتِ يا نود. انتِ تفهمين. دعيني أخطبُ في حشد حضورك الدائم: «إنَّني أهبط من عليائك الى هذه المرأة الغريبة. فاغفري لي إنْ كنتِ تفكرين بذلك الآن».

ـ ٢ ـ

تسكّعنا أنا وصديقتي الفرنسيّة على الأرصفة العريضة والمصقولة لهذه المدينة الغريبة. ورغم أنَّ الجوَّ يحملُ برودة خفيفة إلّا أنَّ الأرصفة العريضة والمصقولة ذات اللون الدموي الداكن امتلأتْ بحركة أشخاص ذوي هيئات وسُحَنٍ تحيل الى بقاع مختلفة من العالم يتقاطعون في سيرهم ويتحدّثون بلغط مبهم. يمتدُّ الرصيف العريض بمربعاته الحجريّة اللامتناهية ليؤطرَ كلَّ شوارع المدينة. وانتبهت أنَّ النهر الثقيل ذا لون القيح مؤطرٌ أيضاً برصيفين طويلين. قالت صديقتي الفرنسيّة، إنَّ هذا هو السبب في تسمية النهر باسم (الشارع الأقدم).

قضينا ساعات النهار الاولى ونحن نتسكّعُ، ونضحكُ، ونأكلُ البطاطا المقرْمشة. تركتها تتحدّث لي عن البطاطا المملّحة، وعن البطاطا بالفلفل، وعن البطاطا التي تُهْرسُ ثمَّ تُعْجَنُ ثمَّ يعاد صبُّها على شكل أقراص مشابهة لأقراص البطاطا. إلتفت إليَّ وقالتْ: «هذا هو معنى تقدم الطعام عبر التاريخ». وانتهت بشرحها الى البطاطا المشويَّة، وقالت إنّها تزيل العزلة، جرّب بإيمان شديد، أنْ تشوي حبّة بطاطا، ثمّ كُلْها قبل مغيب الشمس، سترى أنَّ عزلتك تزول بهدوء. قلت لها: ماذا لو أنَّ البطاطا نفدت من بين أيدينا الآن، عن ماذا ستتحدّث بعدها؟

ضحكتْ وهي ترفع شالها الصوفي الأحمر الطويل، وتدليه وراء رقبتها ثم قالت: «لماذا تفكّر بهذه الطريقة؟ حَرّرْ نفسك ولو للحظة واحدة من هذه العبوديّة».

قلت لها: «أنت من أوحيت لي بكلٌ هذه الأشياء».

ضحكت ثانيةً، وهي تقرصُ أنفي كأنّني طفلٌ صغيرٌ، ثمَّ رفعت يديها في الهواء وحَدَجَتْني بنظرة جانبية وقالت: «لم أفهم منك شيئاً، قُلْ ذلك ثانيةً بالإشارات». وفهمتُ أنّها تحتفل بلحظة مميّزة هبطتْ عليها فجأةً، لذا رفعت يديها في الهواء، خصوصاً وأنّ السَابِلَةَ في المكان الذي توقّفنا فيه كانوا من القلّة بحيث بدوتُ وصديقتي وكأنّنا نكتشفُ مكاناً جديداً لم يصل إليه أحدٌ في هذه المدينة الشاسعة.

قلتُ لها مبتهجاً وأنا أتعلّقُ بطرفي شالها الطويل وأسحبُها إليَّ مثل صيد ثمين: «أنا أحاول أنْ أتعلّم منك، أريد أنْ أحتفظ بك، من أجل نـود. أنتِ نـود مَهْرُوسةً ومَعْجُونةً ومُعَادٌ صبُّها على شكل نـود أيتها الفرنسيّة الجميلة».

استدارت حولي مُتَأَرْجِحَةً وقالت، إنّني أبدو وكأنّني أغنّي.

- ٣ -

ما حدث بعد ذلك، كان يتكرّرُ دائماً. بدأتْ صديقتي الفرنسية بالتلاشي. ليس اختفاءً مفاجئاً، وإنّما مثل دخول الظلام أو انبثاق ضياء الصباح. وهذا الأمر يقْلِقُنِي، ويؤكد أنّني أعاني من مشكلة أو مرض نَفْسِيٍّ غريب. أتقلب في فراشي صباحاً، وتَلْسَعُ البرودة قدمي. أمدُّ يدي الدافئة وأتلمس جسدها داخل الأغطية، ويَتَمَغَّطُ صوتي بتثاؤبٍ خَشِنٍ. وحين أدفع رأسي الغاطس في الوسادة الناعمة نحو شعرها، وأدُسُّ أنفي قرب أذنها، يأتيني صوتك أنتِ يا نـودا!

أفتح عيني فأراها تَدْعَكُ أنفَها مغْمَضةَ العينين. أحوّطها بذراعي تحت الأغطية، كنوعٍ من الإعلان عن بدْء النّهار الجديد، فتقول بهدوءٍ «هِشْشش» كـأنّها ترغب بالإنصات الى صوت يأتي من الحلم. لكنَّ ذلك كان صوتك أيضاً يا نـود.

قلت مع نفسي، حسناً.. إنَّه الأمر نفسه يحدث مرّةً أخرى.

تثرثرين معها على الإفطار، وأنتما تجلسان على المقعد ذاته. أسمعكما، وأنا أزْدَرِدُ صامتاً شرائح الخبز الإسفنجي المغْمُوس بالحليب. تضحكان منّي، وتقول هي أو أنتِ، إنّني آكلُ مثل طفل. أسمعك تقولين: «إنَّك تحبُّ تلويث فمك وأصابعك حين تأكل». لكنَّ صوتها كان ينطق بذلك أيضاً. أشرب من كوب الشاي بالحليب الساخن، وتقومان من على الكرسي البلاستيكي الواطئ، وتذهبان الى الكاونتر المزروع في الحائط، تفتحان باباً صقيلاً، وتخرجان علبة القهوة الجاهزة، أرى عَجِيْزَتَكِ وعَقْصَةَ شَعْرِكِ الأجعد الأحمر، وحين تلْتفتان بكوب القهوة، أرى أثداءَها الصغيرة المُحَزَّمَة والمأْسُورَة بثوب النوم القُطْنِي، سيستمرُّ الأمر كذلك طوال النهار، ونحن نتحدّث ثلاثتنا/ أو كلانا، عن أشياء كثيرة غير مهمّة. لأنَّ

الأمر المهمّ في النهـاية، كما تقول صديقتي الفرنسية/ أو أنتِ، هو الحديث عن أيِّ شيءٍ لا أكثر.

لقد حدث كلُّ هذا سابقاً يا نـود. حدث الشيءُ نفسه مع صديقتي الدانماركيّة، والسويديّة، والاسبانيّة، ومع صديقتي الصينيّة، ذات الشعر الداكن، التي تجيد ست لغات.

ـ ٤ ـ

الوقت مساءً، التلفاز في الصالة يقدّم فقرات استعراضيّة صاخبة. أنتِ بشورت قصير وقميص معقود على بطنك العاريّة، وشعرٍ مغْصُوبٍ بمنديل أحمر، منهمكةً بتنظيف السجاد بمكْنَسَةٍ كهربائية صغيرة. حاولت ثنيك عن فعل ذلك الآن، وتأجيله الى نهار الغد، لكنّك تقولين، إنّك تتشاءَمين من رؤية البيت مُبَهْذَلاً نهار عطلة الأسبوع، ولا تريدين أنْ تضيّعي يوم الإجازة بأعمال بيتيّة. لكنّي أفكر بليلةٍ من العربدة واللامبالاة. ليلة واحدة من البعثرة وقشور المكسّرات والعلب والأكياس الفارغة، يسوّغها أنّ نهار الغد هو يوم عطلة.

أنشغلُ بسبب مللي، وجو العمل الذي تثيرينه داخل الشقّة، بتفحّص الصّور ذات الإطارات الخشبيّة على الحائط. أعدّل المائل منها، أو أميّل بعضها. أقف أمام سيف الساموراي المعلّق بست مسامير خشبيّة على الحائط. أمسكه من المقبض وأسحبه ثم أدخله. أسحبه وأدخله، وصوت الاستعراض البهيج يأتي من التلفزيون مَهْرُوساً بصوت مكنستكِ الدؤوبة. أدخله ثم أسحبه لمساحة أكبر، ويلْتَمِعُ نَصْلُه على ضوء النيونات البيضويّة في السقف الثانوي لصالة الشقّة، ثمّ أعيده بحزمٍ، حين تخطرُ في ذهني صورة ساموراي متقاعد، متعاطفٍ مع حالتي.

بعد ساعةٍ من ذلك، لم تكنْ أعمالك قد انتهتْ. بينما انتهى الاستعراضُ منذُ وقتٍ طويلٍ، وبدأتْ نشرة الأخبار المفصّلة:

(قواتٌ معاديةٌ تنتصر على قواتٍ صديقة..

(أحلامٌ شعبيةٌ تتحوّل الى كارثةٍ شخصيةٍ..

(البابا يسافرُ.. والوزراء يجتمعون.. والناسُ يتظاهرون.. والجوعُ يقفُ في آخر الطابور..

أنظر الى التلفزيون بكسلٍ، ونعاسٌ يُداعبُ رأسي. فأرفع المنظّم وأخفض صوته لأنّني تخيّلت سماع شيءٍ. كأنّه ضحكٌ مُجَلْجِل أو صراخٌ يأتي من الشقّة المجاورة، بينما ما زلتِ تغسلين الملابس في الحمام.

بعد لحظات سمعتُ الصوت المعربد يأتي من الممرّ خلف باب شقتي، ثمّ سمعتُ ضرباتٍ لَحُوْحَةً على الجرس والباب، فقمت قلقاً وأسرعت الى الباب. صحت: «مَنْ؟» ، فغمْغم صوتٌ مألوفٌ لديَّ، ثم هدأتْ الأصوات الأخرى، وجاءني سؤالٌ وقورٌ يطلبُ فتح الباب لأمرٍ مهمٍّ.

وياليتني لم أفعل، دفعني أشخاصٌ ضخامٌ جانباً، وارتفعت صيحاتهم وهم يدخلون بتدافعٍ واحداً تلو الآخر مقلدين الهنود الحمر، داروا حول الأثاث، وحين رأوني واقفاً خلفهم، سحبوني ضاحكين وأنا أحاول تَهْدِئَتَهُمْ، كان السّكْرُ بادياً عليهم وجلّ ما كنت أخشاه هو أنْ تخرجي وتريهم، ولأنّك لم تخرجي خمّنت أنّك ظننت هذه الأصوات فقرات تمثيليّة واستعراضيّة يبثّها التلفزيون.

كان الأمر يبدو لي عبثاً ولهواً من جيران سُكَارى لا يَعُون ما يفعلون، لكنّه سرعان ما تجاوز هذه الحدود. انقلبتِ الْمناضد

الصّغيرة ثمّ تأرْجَحَ التلفزيون وهـو يُعلن عن كوارث طبيعيّة في إحدى البلدان النائية.

وقبل أنْ أهمَّ بفعل شيءٍ هوى التلفزيون على الأرض بصوت ارتطام حادٍ، ثمَّ صَمَتُ نهائياً. وحين التفتُ الى جهة باب المطبخ خشيةَ أنْ تكوني سمعتِ ذلك، تفاجأتُ بوجودك هناك، واقفةً بِرُدْنَيْن مرفوعين وكفّين ملطّختين بالصابون، ونظرة خوف عميقة تنقلينها ما بين وجهي ووجوه هذه الوحوش التي هبطت إلينا فجأةً.

اكتسى الأمر مع دخولك طابعاً آخر. ما الذي كان سيجري لو أنّني وحدي في الشقّة؟ فَلْيذهب التلفزيون الى الجحيم، لنْ يحدثَ شيءٌ خطير، تتكسّر بعض الأغراض، وفي النهـاية سيخرجون، ثمَّ يأتون صباحاً ليعتذروا.

قال صاحب الصوت الذي قلتُ إنّني أعرفُهُ، بأنّهم عصابة (Midnight) فانفجرَ الآخرون بضحكٍ صاخب، ثمَّ أكد صاحب الصوت المألوف بِلَكْنَةٍ وقورٍ، أنّ أي عمل أقوم به سيعرّض حياتي للخطر، لذا عليَّ أنْ أعطيهم جميع مدّخراتي الآن. قال هذه الكلمات مع إشارة حازمة من يده. صمتُ متأمّلاً وجوههم وعجزت عن معرفة هل كانوا يمزحون أم هم جادون فيما يقولون، وارتجفتْ شفتاي من دون إرادة منّي وقلت لهم إنّني غريب هنا، وأنا لا أكاد أصرف شيئاً، أنا لا أعرف حتى ما هي نقود بلدكم، إنّني أعتاش على الأحلام. قال صاحب الصوت المألوف بحزمٍ، بأنَّ ذلك لا يخصُّهم، وإنّهم يريدون النقود، قلت : خذوا أي شيءٍ تعتقدون أنَّه ثمين، واذا صادفتم اثناء ذلك أيّة نقودٍ، فخذوها، رغم أنّي لا أكذب عليكم.

حدّقوا بيَ طويلاً بعيون محمرّة، كانوا غلاظاً ذوي زنـود

اسطوانية، وشعرٍ مسْتَرْسِلٍ، ولم أنتبه الى ذلك تماماً حين لعبوا لعبةَ الهنود الحمر حولي قبل قليل. نظروا نحوك، كنتِ تتراجعين الى الحائط فلا تسعفُكِ قدماك، من المؤكد أنَّك لم تتعرضي لمشهدٍ مثل هذا سابقاً ، وإلّا ما بدوتِ بمثل هذا الرعب. رجعوا ببصرهم إليَّ وقال صاحب الصوت كأنَّه يحاكمني: «هذه زوجتُكَ؟». قلت: نعم.

ـ أينَ الأوراق التي تثبتُ ذلك؟

ـ حدث الأمر منذُ زمنٍ بعيد، ولا أذكر إنْ بدأ بورقةٍ أو غير ذلك.

رأيت ابتسامة سخريّة على شفتيه، وهو يسمع جوابي، وشعرْتُ بوخزة عميقة حين شاهدت الجوع في عيونهم الناظرة إليك. لقد أعطيتهم الإذْنَ قبل قليل بأخذ أي شيءٍ ثمين يرونه، ولم أكنْ أفكر بك. لمحت سيف الساموراي على الحائط خلفهم، وأحسستُ أنَّ عليَّ التصرف بسرعة، فالوقت يداهمني. «إنَّ هذه المسرحيّة الصّغيرة يجب أن تنتهي» قال شخصٌ ما في داخلي «يجب أنْ تستثمر أيَّة فرصة لذلك».

يجب أنْ أَصِلَ الى السيف، ليس لدي شيءٌ آخر. رفعت يدي دون أنْ أفكرَ كثيراً وقلت لهم محاولاً الابتسام: «اذا أردتم خذوها». وأشرت إليك. أيّة لعنةٍ دفعت هذه الكلمات الى فمي، وماذا كان أمامي من أفكار مشؤومة غير هذا الخاطر المفاجئ. لم أكنْ احتاج إلّا أن يبتعدوا عن الحائط قليلاً، أردتهم أن يبتعدوا عن الحائط فقط. كانوا غير مسلّحين إلّا بعضلاتهم، وبخطوتين سريعتين استطيع الوصول الى السيف، واسْتِلَالَهُ بلمحة عين، حينها، سأحدد أنا اتجاه مسرحيّة منتصف الليل.

شاهدت الاستياء والرعب على وجهك، وخُيّلَ إليَّ أنّك ترتجفين. كنت أعوّل على أمل ما بعيد جداً، هو كونك قد فهمت خطّتي الصّغيرة.

علا صوت الهنود الحمر من جديد، وبدؤوا يرقصون وهم يقتربون منكِ ويدورون حول الأثاث. كان باب الشقّة مفتوحاً، لذا حمل إلينا أصوات استغاثات مفاجئة، وصراخ، وعربدة موسيقى وغناء غير مفهوم. الأمر الذي جعل رفقاء ليلتي الغريبة، يلتفتون برؤوسهم جميعاً الى الخلف، ثمّ بنظرةٍ فاحصةٍ الى وجهي ووجهك وانت تقعدين متكئةً على الحائط، حدّدوا أمراً ما. صمتوا للحظات وكأنّهم استفاقوا، ثمَّ رَكَلَ صاحب الصوت المألوف الطاولة المقلوبة وراءَهُ، واتّجه الى الباب فتبعه الآخرون، وفي غضون لحظات غادروا الشقّة جميعاً.

أنظر من خارج باب شقّتي الى الممرِّ الفارغ والمُضاء بمصباح أحمر صغير، ولا أرى أو أسمع شيئاً. اغلقت الباب بإحكام ثمَّ قلت: هل كان عند الباب أحدٌ؟.. هل طرق على الباب أحدٌ، أم أنّني أتوهم ذلك.

دخلت، فتيقنْتُ من الأمر حين وجدت الصّالة التي انهمكت طوال المساء بتنظيفها، مبعثرةً ومربكةً، وزجاج شاشة التلفزيون متناثراً على السجاد، كذلك طين وتراب من أحذية المقتحمين، ورماد وأعقاب سجائر، وأشياء أخرى، لا أعرف كيف ومتى سقطت أو تحطّمت أو انسكبت. ووجدتكِ هناك عند الحائط تبكين، وصوت الماء في المغْسَلَةِ يأتي من عمق المطبخ. اقتربتُ منكِ، فسحبتِ ذراعك، وشتمتني ثمَّ نهضتِ لتدخلي المطبخ. وبقيت حتى وقتٍ متأخرٍ أحاول يائساً شرح خطّتي الصّغيرة المتعلّقة بسيف الساموراي

التي كنت بصددها. لكنّك تقولين إنّني لا أمْلِكُ إثباتاً لذلك: «لقد دعوتهم لاغتصابي بكلِّ برودٍ، أردتَ أنْ تنقذ نفسك لا أكثر».

قبل أنْ ننام في مكانين منفصلين، قلت لك صادقاً، إنَّ عليك أن تتأمّلي جيداً في داخلك. أنا حقّاً لا أمْلِكُ أي إثبات، ولكنّي كنتُ واثقا ـَ وبالَخَطَئِي ـ بأنّ إحساسك سيحسم الامر لصالحي، قلتِ ذلك بفمٍ مرتجفٍ، لكنّك لم تسمعي شيئاً، كنتِ أشبه بمن يهذي مع نفسه داخل الشقّة التي عبثت بها الفوضى.

ـ ٥ ـ

ها هي عزيزتي نـود بجواري، ولا أستطيع مخاطبتها. إنّني أتحدّث عنها الآن بصيغة الغائب، ولقد رويت الحِكَاية السابقة، لأنّها ترمز الى كلِّ ما يحدث في العادة بيْنَنا. إنّ لديها قراءةً مختلفةً للأشياء. وتعوزني دائماً الأدلة لإثبات أيّ شيءٍ أمامها. فينتابُنِي حزنٌ شديدٌ لمجرد التفكير بأنّها تعاني من العُزْلَة بجواري، أحاول صنع أيَّ شيءٍ لأجعلها تشعرُ بالسعادة، أحاول أنْ أكونَ سبباً لسعادتها. لكنّها لا تساعِدْني في ذلك.

نتجوّل على الأرصفة العريضة ذات اللون الداكن، ونثرثر ونحن نأكل البطاطا. وأرى في وجهها وعينيها تأنيباً دفيناً. رغم أنّها تضحك، وتتكلّم بحماس. لكنَّ لحظات الصمت الطويل التي تمرُّ بين أحاديثنا هي اللحظات التي تَجْلدُني فيها بشرودها.

وقفنا أمام نهر (الشارع الأقدم)، وشاهدنا عدداً كبيراً من القوارب الورقيّة وهي تتأرجح على سطح الماء الثقيل، ثم رأينا طيوراً تشبه النوارس، ولكنّها أكبر حجماً تحوم حول الجسر الحديدي الضخم القائم على النهر، ترتفع مع هَبّات الهواء ثمَّ تنْخفض.

وحانتْ منّا التفاتةٌ الى قارب صيد يستعمل من قبل السيّاح، وهو يتقدّم بصخب دافعاً الأمواج الطينيّة الى جانبيه. اقترب من الضفّة، وشطر كتيبة القوارب الورقيّة البيضاء التي كنّا نتأملها الى نصفين بحركته العجولة. شاهدنا معاً هذه القوارب الصغيرة التي تركها أصحابها، كيف تنقلب يائسةً أو يرميها الموج على الصخور، عائدةً الى كونها كتلاً ورقيّة مجعّدة ومبلّلة لا أكثر. كان منظراً محزناً. شعرنا بالخوف، وضممت نـود الي، فوجدتها ساكنةً وباردةً كالجثّة.

ـ ٦ ـ

في هذا البلد، هناك من يؤمن بالأساطير والخرافات أيضاً. لمستُ ذلك وأنا أتجوّلُ مع نـود. وإلّا ما هذا البخور في الشوارع والساحات العامة والنوادي والكافتريات ومراكز التسوّق واللهو، إنْ لم يكن لطرد الأرواح الشريرة ؟ ولماذا هذه الرسوم البشعة لشياطين وغِيلان وكائنات مشوّهة؟ هل هو فنٌّ حديثٌ؟ ولكن لماذا أراهم يقتربون منها كأنّهم يصلّون، وتتجمّد ملامحُهم بنظرةٍ مبْتهلةٍ. أهذا ما يريده الفنُّ إذنْ؟ أن يستحوذ على الروح التائهة، أم أنّها ثقافة القاع وقد طفحتْ على سطح المدينة الصقيل؟

أفكر بذلك وأنا أتذكر البطاطا المشويّة قبل مغيب الشمس التي تزيل العزلة والقنوط وريح البطن والكآبة وطوارق الشؤم، وأعجز عن تذكّر الذي أنبَأني بذلك. قلتُ سأجرّبُ مع نـود هذا السحر الغريب، مادام ذا فائدةٍ للناس هنا. ولكنْ، كيف سأقنعها؟

وجّهتُ وجهي الى القرص المدمَّى للشمس الغاربة، ورفعت الثمرة الكالحة اللون كـأنَّها حجر، نفضتُ الرماد عنها ثم قشّرتها بأظافري، وأكلت منها وحدي.

قالت: «أنا لا أملك ذاكرةً، أنا لا أتذكر من أنتَ حتى». قلت لها: «بسبب ذلك.. أنتِ تشعرين بالغُربة معي». قالتْ: «أنا كائنٌ بلا ذاكرة.. أتفهم؟.. أنا ابنة اللحظة». قلت لها: «ألّا يمكن مثلاً ايجاد حل وسط». قالت: «إذا أردت يمكن أنْ نُنْهي هذا الأمر تماماً، كما تنتهي الحكاية عادةً».

- ٧ -

قالت وهي تفتح الشُرفة وتتكِئُ على سياجها المعدني: «أنظر»، رفعت يدها النحيفة وأشارت الى سلسلة جبال واطئة خلف حدود المدينة، ثلاث أو أربع قمم باهتة اللون، ليست بارتفاع كبير، ولكنَّ الكلَّ هنا يسميها جبال المُخَلِّصِ. ربّما لأنّ الشمس تشرق عادةً من بينها، فتغمر بدفئها البرودة الدائمة لهذه المدينة. التفتتْ إليَّ ووجدتني أتنشَّقُ الهواء وأطبطبُ على صدري بارتياح. ابتسمت ثم قالت: «أنْظُرْ.. هناك.. الثاني، ذاك الجبل ذو اللون الوردي.. أتراه؟». قلت: «نعم». فأكملت: «هنا في هذه المدينة.. يسمّونه جبل العُزْلَة، أو جبل خالق الماء.. تقول الأسطورة إنَّ أول قطرة ماء خُلِقَتْ عند قمّة هذا الجبل، هناك طقسٌ قديمٌ لا يعرف أحد كيف ابتدأ.. لكنَّ الكثيرين يزاولونه سرَّاً، لأنَّه يخالف الإيمان بالعقل. عندما يشعر أحدٌ ما بعُزْلَة شديدة، فإنَّه يرتقي سفح هذا الجبل حتى يَصِلَ الى قمَّته، وهناك سيجد خلاصَهُ من سجنه لينزلَ بأملٍ جديد.

قلت لها: كيف يجد ذلك؟ قالت: إنها قضيّة تجربة، يجب أن تفعل ذلك حتى تعرف.

في الليل وقبل أن نأوي الى الفراش، كنَّا أنا ونود قد حسمنا

أمراً ما، غداً هو يوم إجازة. سنرتدي ملابس رياضيّة، وأحذية مطاطية، سنأخذ غداءَنا معنا ونقضي نهارَنا في تسلُّق الجبل. نستنشق هواءً نقيّاً.. ونبتعد عن الأرصفة الحجريّة الحمراء، ونهر القيح الثقيل وغرف العُزْلَة الخانقة بجدرانها مانعة الضوء.

ـ ٨ ـ

رمتنا الحافلة عند آخر نقطة لها، وما بعدها يمتدُّ الشارع الكبير الذي يربط المدينة بما وراءَها. رفعنا رؤوسنا الى السلسلة الصغيرة، وحسبنا أنَّها في متناول اليد، لكنّنا كلّما تقدّمنا بحقائبنا الرياضيّة ونظاراتنا الشمسيّة، نلمس بعدها، حتى أنّني فكّرتُ لو أنّنا كنّا قد جلبنا معنا دراجتين هوائيتين، لاختصرت المسافة. متناسياً أنَّ ما كنّا نرغب فيه، هو استكشاف الطريق والاستمتاع بما يصادفنا، من دون حرصٍ على الوصول بسرعةٍ الى هدفٍ ما.

وصلنا بعد جهد الى سفح الجبل الوردي، وكانت الشمس تندفع ببطءٍ لتحتجبَ وراءَ الغيوم. لم يكنِ الجبل ورديّاً تماماً، ولا أعرف لماذا يبدو من شُرْفَة شقّتي بهذا اللون، ألقتْ نـود حقيبتها وجلست بإعياءٍ على حجرٍ صخريّ وقالت: «لا أستطيع». جلست أنا أيضاً متكئاً على الصخرة ذاتها، فانحدرتْ نـود وتمدّدتْ بجواري. قالت إنّه بارتفاع تلّة «لا يرعبُكَ ارتفاعه». قلت لها إذا كنت تَعِبَةً فلْنَعُدْ. لكنَّها لم تجبْني، نظرتُ الى الخلف ورفعتُ رأسي متابعاً الطريق النيسمية الواضحة على منْعَرَجَات سفح الجبل، وخمَّنتُ أنَّ عشرات أو ألوفاً ربّما سلكوا هذا الطريق. كم هو مضنٍ هذا الأمل بالخلاص إذنْ.

مرّت أمامنا سيارة حمل مسرعةً على الشارع، بصوت منبهٍ حادٍ،

فنهضنا ونفضنا التراب عن ملابسنا، انتهت استراحتنا وحان وقت الصعود. كنت أمسك نـود من يدها مخافةَ أنْ أفقدها، أو لنشترك في لحظاتنا المميزة هذه، وأعيُنَنا لا تفارق الطريق الشاهق الذي يغيب ثمَّ يظهر مع التحدّبات والانحناءات الصخريّة للجبل. نرتقي بحذر، أو نسير من دون جهدٍ كبيرٍ على سطوح قليلة الانحناء، نمسك الصخورَ الناتئة ونسحب اجسادَنا إليها، نجلس وننظر للأسفل فنرى المدينة الترابيّة القريبة البعيدة، وهي تكشف عن أجزاء جديدة فيها. تشير نـود بإصبعها الى الأسفل حيثُ المدينة، وتضحك، ثم تقول: «كان علينا أنْ نَجْلِبَ منظاراً». فأقول هازئاً: «لماذا؟.. حتى نعود الى المدينة؟».

نرتقي ثمَّ ننظر الى الأسفل، وتغدو المدينة رسماً بألوان ترابيّة صفراء وخضراء على الأرض، مخطّطاً لمدينة، أو شيئاً لا واقعيّاً أكثر فأكثر. وبدا النهر الذي يخترقها أكثر تعرّجاً، وذا لونٍ قاتمٍ، لا يحيل الى لون الماء.

تتعلّق نـود بكتفي وتقول: «لا أستطيع». أقول: «فلْننزلْ إذاً، يكفي هنا، فلْنوفرْ جهدنا الباقي للنزول»، لكنَّها تقول: «لا.. فلْننْهِ الامر». تصمت ثم تنظر اليَّ بوجهٍ متعبٍ وتقول: «ألست الذي يفكّر دائماً بالأشياء المهمّة، لماذا تبدو متردّداً أمام القيام بها؟». فأبتسم وأضمُّها، وأهمس مشيراً الى الصورة الغريبة: «أنظري الى المدينة، ألّا تشبه رسماً مدرسيّاً، أتصدقين أنَّنا نعيش في هذه اللوحة البدائيّة؟». لكنّها لا تجيب.

أخذ الجوعُ مأخَذَهُ منّا، فجلسنا عند مساحة مستوية تطلُّ على منظر شاسع ومثير، المدينة المعينيّة الشكل ذات الألوان السجاديّة من جهة، ومن الجهة الأخرى، النهر الأسود والشارع الطويل الذي

ينحني عند خروجه من المدينة ليغيب داخل امتدادٍ بُنّيٍّ مرقّطٍ بالأخضر، وخلف كلِّ ذلك، فضاء مضبب حليبي اللون ، يمزج الاشياء المقتربة من الافق مع بعضها. قلت مع نفسي، ربما بهذه الطريقة يكتشف احدنا الحل، أنك صغير جداً وضئيل أمام اللامتناهي أيها الانسان الساكن هناك كنملة تحت السقوف الحجرية الواطئة.

بعد وجبة الغداء، وجدنا في أنفسنا القوّة والنشاط للمواصلة، استراحتْ أقدامنا بما يكفي لاستئناف الصعود، وخَفَّتْ حقائبُنا. كان إنعام النظر الى امتداد سفح الجبل أسفلنا يورِّثُنا قلقاً وخوفاً. لقد وصلنا الى مكان شاهق، كيف سننزل، إنَّ الجاذبيّة تبدو من هنا وكأنَّها متآمرةٌ مع إغراء الوصول الى القمَّة، ولربَّما سيقرّران ضدنا في لحظةٍ ما شيئاً ليس في الحسبان.

بعد مدَّةٍ، بدا لنا أنَّ شخصاً ما كان قد سبقنا في الصعود هذا النهار، إذْ شاهدنا في الأعلى جُرْمَاً صغيراً يظهر ثمَّ يختفي في التموّجات الصخريّة للجبل. وكلّما اقتربنا أكثر، توضّحت لنا هيأةُ هذا الجُرْم، إنَّه امرأة ببنطلون وشعر معقود على شكل ضفيرة صغيرة، نقترب، وتبدو هذه المرأة بطيئة الخطُوات، ثمَّ ها هي تلتفت للوراء وتقف، تسكن في نظرتها إلينا ثمَّ تجلس كـأنَّها تنتظر وصولنا. حييناها من بعيد كـأنَّنا نعرفها، أو كأنَّنا أصحابُ هدفٍ مخجلٍ واحدٍ. وحين وصلنا اليها، انطرحنا على ظهورنا بجوارها بطريقة استعراضيّة تدلُّ على الإنهاك، وبدأتْ هي تضحك.

كانت واحدةً من فتيات المدينة. قالت إنَّها خططتْ لهذه الرحلة الصغيرة منذ زمن، لكنَّ المشاغل الكثيرة تؤجلُها. بدا وجهها ضامراً وذراعاها نحيفتان مثل ذراعي نـود. . وشعرها الأسود، وروحها الرياضيّة اللطيفة. بدأت تسألنا من دون تحرّج أسئلةً عديدةً، يبيحُها

ربّما هذا الاختلاء الذي نحن فيه. إنّه شيءٌ أشبه بما يحدث بين نزلاء السجن. اختراقٌ لحُجُبٍ شخصيّة كثيرة لدى الآخر باتفاقٍ خفيٍّ، كتعويضٍ عن حرارة الوجود الاجتماعي. تكلّمنا عن المدينة، وعن التلوّث، وعن الرغبة بحياة أقل احتداماً وأكثر توافقاً وانسجاماً، وبدت نود صامتةً أثناء ذلك، ترمق بعينين حياديتين وجهَ هذه المرأة التي لا تبدو أنّها تعاني من أيّة مشكلة.

نهضنا وبدأنا نصعد ثلاثتنا، وكان لأحاديث رفيقتنا الجديدة أثرٌ طيبٌ، وممتعٌ، تتوقف ثم تنظر الى الاسفل وهي تثرثر، ثمَّ ترفع حجراً وتلقيه ضاحكة، يهوي الحجر قافزاً حتى يغيب، ثم تلعن المدينة، وألحظ أنها لا تحمل أيّة حقيبة. بعد مدّة توقفت نود، وهي تقول: «لا أستطيع». توقفت رفيقتنا أيضاً واقتربت منا، قلت لها بخفوت: «استريحي قليلاً ثمَّ نكمل» . قلت ذلك وأنا انظر إليها والى رفيقتنا مشجّعاً، قالت: «لا استطيع». قلت لها محاولاً حسم رحلتنا المرهقة: «يكفي إذنْ، سنجلس هنا حتى تستريحي ثم نعود أدارجنا». نظرت رفيقتنا نحو القمَّة وقالت بأسف: «لم تبقَ سوى مسافة بسيطة». قلت وأنا أمسِّد على ساقي نود: «لا نشعر برغبة شديدة لإكمال المسافة، أردنا أنْ نرتقي هذا الجبل فحسب، ليس مهمّاً أنْ نصلَ الى ارتفاع معيّن». لكنَّ نود اعترضت وهي تنظر إليَّ: «أنا سأبقى هنا، سأستريح ثمَّ ألحق بكما. عليك ان تصل الى القمّة، تذكّر». قالت ذلك بتصميم، وخجلتْ من الهدف الذي دفعني لكي أكلِّفها كلَّ هذا العناء، أيُّ شيءٍ تجريدي وغير واضح ذلك الذي جلبني الى هذا المكان. غير أنَّ عيني نود الصافيتين تصرّان على إكمال ما بدأته، أكسر بصري الى الأرض، متسائلاً، ألَمْ تكنْ تريد هي الأخرى أن تشفى بهذه الرحلة من شيءٍ ما؟

تركتها على مضضٍ، وبدأت أتقدّم صعوداً مع رفيقتنا الغريبة، وانظر كلَّ حين الى الوراء، فأرى نـود حيثُ جلست، تنظر الى السفح الممتدّ نحو الأسفل. قلت مع نفسي . . ستلحقنا بعد قليل. وقالـت الفتاة الغريبة من دون أنْ تنظر إليَّ . . إنَّ إغراء القمّة لا يقاوم، ثمَّ بدأت تَغِذُّ من خطواتها الرشيقة، وأنا أتبعُها بحماسٍ غير مؤكد، وأشجع نفسي قائلاً: «إنَّ كلَّ شيءٍ في النهـاية هو من أجل نـود».

بدأت أشعر أنَّنا بدأنا ندخل الغيوم، واذا لم يكن شعوري صادقاً، ففي كلِّ الأحوال، أنا هنا اقرب الى الغيوم من أيِّ شخص آخر يحبو على الاسفلت.

وجاءت اللحظة التي انتظرتها، ها أني أطأُ بقدمي قمَّة الجبل، لقد عرفت الآن مشاعر آرمسترونغ، باقة زهور على قبرك أيُّها الرجل الذي اخرجت دَوْسَةَ القدم من رتابتها، انتابتْني نشْوَةٌ مشابهة لتلك التي يشعر بها من ينفصل عن الأرض. وعن كلِّ شيءٍ. تَرَكّزٌ شديد للذات، تَرَكّزٌ إجباري تفرضه النقطة التي وطأتُهَا. كنت فرحاً من دون شكٍ، لكنَّ الفتاة التي كانت معي بدت فرحة أكثر منِّي. اندفعت صارخةً بهستيرية، وبدأتْ تقفز بانفعال، وخشيت أن تنزلِقَ في أيّة لحظة فتهوي الى الوادي، لكنَّها تعلَّقت برقبتي فجأةً، وسط دهشتي، وبدأت تدور بي وهي تطلق ما يشبه العواء، وبسرعة انتقلت عدوى فرحها المفْرط إليَّ، فغدوت أضحك أيضاً، وأنا أحاول فكَّ خناقها عنِّي.

نظرت الى الأسفل كأنَّني أحسب المسافة، او كأنَّني اتوقع أنْ تظهر نـود بين لحظة وأخرى، وتمالكت رفيقتي نفسها أخيراً، فذهبت بخطوات نَشِطَة لتجلس على مقعد صخري يطلُّ على المنظر وراء

الجبل، وحين اقتربت منها شاهدت معها وراء الجبل شيئاً يَسْلِبُ اللبَّ، بحر شاسع من اللون الاخضر الداكن يتصل بالأفق، ذُهِلْتُ، وأخذتني زوبعة انفعالات متضاربة، ساد الصمت بيننا للحظات، ولم يكنْ سوى صوت الريح وهـي تلتفُّ في آذاننا. قلت مستغرِباً: «لا يمكن أنْ تكون كلّ هذه غابة؟». قالت رفيقتي ناظرة إليَّ: «ماذا تعتقد، ما اسم هذه الغابة؟». قلت: «هل هي غابة ؟.. لا أعرف». مدَّتْ يدها الى ضفيرتها وبدأت تعالج الشريط المطّاطي الذي يربطها، ثمَّ شرعتْ كأنَّها تقرأ في كتاب: «هذه الغابة ليس لها اسم، كلُّ من يصل الى هذا المكان يطلق عليها اسماً جديداً، كلُّ من يقطع هذه الرحلة يمتلك الحقَّ في تسميتها اسماً شخصيّاً، لا يعني أحداً غيره». قلت لها مستغرِباً: «من أينَ لك هذه المعلومة؟». فضحكتْ وهي تحرر شريط المطّاط من ضفيرتها وتلقيه في الهواء. دَعَكَتْ بيديها على زنديها كـأنَّها تستشعر برداً خفيفاً ثمَّ قالـت: «هل صدقتَ؟.. لقد اخترعتُ ذلك لتوّي». ثمَّ ضحكتْ من جديد.

تأمَّلتُ القمم الخضراء المدبَّبة والبعيدة، إنَّها تختلط وتمتزج، حتى لتغدو سجادةً ذات لونٍ كَامِدٍ، يَبْهَتُ كلَّما اقتربت من الأفق أكثر. كنتُ مصغياً لكلمات رفيقتي ومستثاراً. قلت إنَّ ذلك يُلائمني، فلْيكنْ مخْتَلَقاً، أنا لا أعرف هذه الغابة الهائلة، ولم يخبرني أحد عنها سابقاً أيَّ شيءٍ، حتى نـود لا يبدو أنَّها تعرفها، وبإمكاني بعد كلِّ هذا الجهد في الوصول الى هذا المكان أن أصفها على الأقل. أطلق عليها اسماً يعني ليَ شيئاً حين أتذكَّر هذه التجربة الفريدة. التفتُ الى رفيقتي فوجدتُها ترخي من ضفيرتها بهدوءٍ أمام امتدادات الأخضر الكثيف، قلتُ لها: «ماذا ستسمين هذه الغابة لو أتيح لك ذلك؟». قالت دون تردد: «سأسميها .. الغابة الخضراء الكثيفة الممتدَّة

باتساعها حتى الأفق». فابتسمتُ واتكأتُ براحتي على الملْمس البارد لصخر الجبل وتذكّرت نـود، إنّها تشبه نوعاً ما هذه الغابة بشيءٍ، هناك ما لا يُرى أو يُقبض عليه مهما اقتربتُ منه. قلت وأنا أُلملم جسدي تحت وطأة هَبَةِ هواءٍ باردة: «أما أنا فسأسمي هذه الغابة.. نـود». التفتت إليَّ وهي تغالب المفاجأة، وخجلتُ من التعبير الذي بدا على وجهها، ربَّما اعتبرتني شخصاً ساذجاً يلْهَج باسم حبيبته في كلِّ مكان، أو إنَّها أصلاً لم تعرف ماذا تعني هذه الكلمة لدي (نـود). أشاحت ببصرها عنِّي، وبدأتْ تحرك بأصابعها خِصَلَ الشعر المتموجة، ثمَّ انكفأتْ على نفسها تنظر الى نقطة غير محدَّدة.

مرَّ وقتٌ لا أعرف أَمَدَهُ، قضيناه صامتين، ثمَّ التفتُ اليها وقلت كأنَّني استيقظ: «لقد تأخّرتْ نـود ، يجب أن أعود الآن». لكنَّها لم تجبْني، وحين اقتربتُ من وجهها شاهدتُها تبكي بصمت، تفاجأتُ من هذا التحوّل الذي اعتراها، سألتُها عن الشيء الذي يبكيها، فمسحت بإصبعها وجنتَها المبلَّلة ولم تجبْني أيضاً. كنت راغباً بالنهوض، لكنْ كيف سأترك هذه الفتاة في وضع كهذا، وضعت يدي على كتفها مواسياً وقلت: «لا بأس». أرخت وجنتها على كفي واغمضت عينيها، فسرتْ في جسدي للمرَّة الثانية خلال هذا النهار، عدوى هذه المرأة، شعرتُ بالحزن، لأجلها، ولأجل نفسي ونـود، ربّما سميَّ هذا الجبل باسم خالق الماء، لأنَّ من يزوره يشرع بالبكاء، وإلّا لماذا أرغب الآن وبشدّة في البكاء، ألِأنّي ضعيف هكذا أمام انفعالات الآخرين أم لأنّني أساساً في وضع مشابه لوضع هذه المرأة التي تنْحَدِرُ الدموع على وجنتيها بصمت. من المؤكد أنَّ رحلتها الى هنا كانت بمنتهى الجديَّة، ليس الأمر نزهةً، أشعر بذلك الآن، التفتُ الى الوراء، ورغبتُ لو أتركها، لكنْ آه.. كمْ أنا

حزينٌ، هل سأسألها ثانيةً عن مشكلتها؟ وهل أنا قادر حقًّاً على مساعدتها، يا للسخريةِ، إنَّ هذه وظيفة شخص آخر غيري، وإلّا ما كنت كلفت نفسي هذا العناء وجئت الى هنا. ولربَّما أنا في الحقيقة الأكثر حاجة الى هذا البكاء الحار.

جلست بجوارها، فانحنت ببكائها عليّ أكثر، هدهدتُ بيدي الاخرى على كتفها واغمضتُ عيني، ولم أعرف لماذا تذكّرت وأنا أحضن هذه الفتاة حكايةَ قرأتُها في كتاب، عن اثنين يشبهاننا، وصلا الى قمَّة جبل، وكانا في صدد أن يريا العالم من فوق. تلفْتا في جميع الاتجاهات، والتقطا صوراً لجزءٍ لا بأس به من العالم كما يبين من أعلى القمَّة، ثمَّ جلسا سعيدين، ولمْ يلْبثا طويلاً ليتكشّف لهما الهدف الحقيقي من رحلتهما، كانا يبحثان في أعماقهما عن مكان يخْتَلِيان فيه. تَعَرْيَا تماماً، وألقيا ملابسَهما في الوادي، وعلى الصّخور الملساء والناتئة، مارسا الحبَّ لأول مرَّة، أو ربَّما ثاني مرَّة، عاشر مرَّة.

- ٩ -

لبستْ رفيقتي قميصَها وزرَّرته، ثمَّ أدخلته في سروالها، وبدأت تمسد على شعرها وتحركه في الهواء، بينما وقفت أنا أتبول باتجاه الغابة الداكنة. قلت لها: هل سننزل الآن؟ .. لكنَّها لم تُجِبْنِي. اشتدَّتْ سرعةُ الهواء وارتجفَ خيطُ البول قبل أن ينقطع.

ارتقت الفتاة بعض الأحجار، ثمَّ نظرت باتجاهي وجلستْ. اقتربت منها وأنا أرفع سحاب بنطلوني، كانت تدعك وجهها بيديها وشعرها المحلول يتطايرُ في الهواء. قلت: ستغيب الشمس قريباً، علينا أن ننزل، رفعت رأسها باتجاهي، كان الكحلُ الذائبُ بسبب

بكائها قبل ساعات يرسمُ هالتين باهتتين حول عينيها، قالت مغمغمة: «لن أنزلَ». سألتها: «لماذا؟» قالت: «لأنَّ عزلتي لم تزلْ بعد». قالت ذلك وحدجتني بنظرةٍ أشعرتني بأنّي غريب عنها تماماً.

كرَّرت امامها مثل طفل: «يجب أن ننزل الآن». وتحركت عدَّة خطوات قلقة، ثمَّ نظرت إليها مليّاً علَّها تجيب، لكنَّها أشاحتْ بجسدها جهة الوادي الاخضر، ثمَّ كأنَّها تعطيني أمراً بالمغادرة قالت محرِّكة يدها بحزم: «أنزل . . هيا . . أريد أن أبقى وحدي».

لمْلَمْتُ الخذلان في داخلي، وبحثت بعيني عن حقيبتي، لكنِّي تذكَّرت أنّني تركتها مع نـود. يا إلهي . . ما الذي جرى لها الآن؟ نظرت طويلاً الى الفتاة الغريبة وخمَّنت أنَّها ستلتفت لتلقي عليَّ نظرة وداع، لكنَّ ذلك لم يحصل، كانت أشبه بمن يترقَّب شيئاً في البعيد، ربَّما هي من المؤمنين بالمُخَلِّص الذي يقال إنَّه يهبط على هذا الجبل استجابةً لمن يطلبه، كانت الجدية البالغة في هيئتها الساكنة تثير الكوامن فيَّ، لذا نزلت بخطواتي البطيئة على النتوءات الصخريّة. التفت كلَّ حينٍ وأراها كتمثالٍ جالسٍ يُحَدِّقُ مع اتجاه الريح، وكـأنَّها موجودة هنا منذ الأزل، وكأنَّ رحلتي المضنية كانت من أجلها، من أجل أن ألتقيها على هذه القمَّة، أو أمر بها في طريقي فحسب، نحو شيءٍ أجْهَلُهُ.

ـ ١٠ ـ

وقفتُ خائفاً، وحدَّقت في جميع أرجاء المكان، كانت حقيبتي وحقيبتها في موضعهما الذي تركتهما فيه، لكنَّها لم تكن موجودة، هل هجستْ بالذي جرى لي مع الفتاة الغريبة في الأعلى، هل غضبتْ؟ ربّما تأخّرت أكثر مما يجب فنزلت وحدها؟

حملت الحقيبتين، وبدأ يتنامى في داخلي وأنا اشرع بالنزول خوفٌ ثقيلٌ، يا إلهي . . ربّما سقطت، سأصل الى الأسفل وأجد في أحد الوديان المنبسطة جثتَها وقد تمزَّقت على الأحجار الصخريّة. بدأت أسْرِعُ من خطواتي، متمالكاً نفسي كي لا انزلق وأسقط أنا أيضاً، ولم يعد يعنيني أن انظر الى الأعلى أو الى أيِّ شيءٍ اخر، وتضخَّمت في ذهني مؤامرة الجاذبيّة والقمَّة التي تخيَّلتها، وبدأتْ وساوسُ مختلفة تُسْرِعُ من تكاثرها في داخلي.
الشمس تنحدر وراء حدود المدينة، والهواء يصبح أكثر برودةً، وأنا أؤرْجِحُ جسدي المتعب، وأقفز بأنفاسٍ متسارعةٍ على الأحجار، محاولاً تذكّر طريقَ الصعود، وها أنا أصل الى المكان الذي بدأنا منه، أنظر الى الشارع، ثمَّ التفت وأنظر الى القمَّة، ما زالت الشمس تُضِيْؤها. نـود، أين ذهبت ؟ أجلس مرهقاً، وأفرك وجهي وأحاول أنْ استضيءَ ببوصلتي الداخليّة ولكنْ عبثاً. هل ذهبتْ الى المدينة ولكنْ كيف استطاعت أن تعود وحدها. هل هي هنا بجواري في هذا المكان وأنا لا أدري، مُسَجَّاةً على الأرض من دون رمق؟ أم ما زالتْ في الأعلى مختبئةً خلف صخرةٍ لم أمرّ بجوارها أثناء نزولي. . ؟ . . يا إلهي.
أمضيت ساعةً وأنا جالس تتناوشُني أفكارٌ شتى تُشِلُّ رغبتي بفعل ايِّ شيء، لكنّي ما لبثت أنْ حسمتُ أمري ونهضت وقد قَوِيَّ ظنِّي أنَّها عادت الى شقتنا، سرت بمحاذاة الشارع ثمَّ أخذت سيارة أجرة. عُدْتُ الى وسط المدينة، ورمتني السيارة أمام العمارة التي أسكن فيها. كانت الحركة على الأرصفة العريضة على أشدها، ولم يشغلني شيءٌ سوى الصعود الى الشقَّة والتأكد من وجود نـود.
فتحتُ بيدين مرتجفتين الباب، وصحتُ بخوف وقلق حال

دخولي: «نـود.. نـود؟» لكنَّ أحداً لم يجبني، أضأتُ المصابيح، ودخلت غرفة نومنا، ثمَّ فتحت باب الحمام، وصحت بحنجرة يابسة على نـود، خرجت الى الشرفة ونظرت الى الشوارع المزدحمة في الأسفل، دعكت شعر رأسي، وغالبت حرقة تجمعت في حنجرتي، أردت أن أبكي، رجعت وفتشت من جديد، وقلت ستفتح باب الشقَّة بين لحظة وأخرى وتدخل. أين يمكن أن تكون قد ذهبت، إنَّها مثلي لا تعرف أحداً في هذه المدينة.

هبط الظلام كثيفاً، وكنت أبكي، وأنا أتشمَّم ملابسها، لم أنزل سابقاً الى المدينة ليلاً، أين سأفتِّشُ عنها؟ أبكي وأشتم في داخلي جبل المُخَلِّص أو خالق الماء، ثمَّ شعرت بأنِّي غير قادر على تحمُّل البقاء في الشقَّة أكثر. نزلت ووطأت أرصفة الشارع وبدأت أسير محدِّقاً في وجوه النِسْوة. خطرت نـود من أمامي .. صحت عليها: «نـود .. نـود». لكنَّها التفتت بعبوس. وكشفت لي بعينيها الناريتين أنَّها ليست نـود .. نـود .. نـود ..أعبر الشارع وتَمْرِقُ سيارةٌ مسرعةٌ من ورائي .. ثمَّ فجاةً شاهدت الفتاة الغريبة صاحبة الجبل .. ركضت إليها وأوقفتها وأنا أَلْهَثُ مثل المجنون، قلت لها، لقد اختفت نـود .. أَلَمْ تَرَيْهَا ؟ أرجوك .. أنا أريدها.. ساعديني . لكنَّها قالت ببرود إنَّها لاتعرف عن ماذا أتكلم .. قلت لها ساعديني أرجوك. نظرت إليَّ باشمِئزاز، وفتحت حقيبتها وأخرجت ورقة نقديّة ومدّت يدها إليَّ .. قلت لها أريد نـود.. لكنَّها قالت وهي تبتعد: «ليس عندي سوى هذه .. خُذْهَا» . ورمت الورقة منزعجةً.

لا أعرف كم تقضَّى من الوقت، وأيَّ الشوارع سلكتُ، وكيف تصرَّف معي من استوقفْتُهم لأسالهم عن نـود. هل كنت أبكي، أم أنِّي تجاوزت حدود ذلك ؟ لقد قالت إنَّها ستساعدني على الحلِّ،

هل هذا هو الحل إذاً. . أنْ تختفي . أهذا هو معنى أنَّها كائنٌ بلا ذاكرة، هل نسيتْني بمجرد ترْكي لها لساعات؟

ذابت الأرصفة واندمجتْ مع اسفلت الشارع. تقاطع السابلة بسيرهم مع السيارات المارقة بأضويتها الحادة من أمامي . . وبدأت الاجساد تغيب لتغدو كتلاً سوداء أمام بصري يقطعُها بين حينٍ وآخرَ مصباح سيارة مفاجئ، كنت أسير، أو أنَّني واقف ولا أعلم بذلك، غارقاً باستغاثتي الكبيرة: «نـود. . نـوووورود». وهاهما مصباحان يقتربان بسرعةٍ من كتلتي الداكنة . . فيضيئان حدقتيَّ بفضاءٍ من ضوءٍ باهرٍ، صوت صرير عجلات حاد.

ثمَّ صمت،

وهمود.

ـ ١١ ـ

حين فتح عينيه، كان الألم ما يزال ينبض في ركبته اليسرى، ووجد عند رأسه طبيباً ذا لحية حمراء، واثنين بملابس أنيقة ونظارات يقفان كتمثالين. أحسّوا بإفاقته فجلس أحدهم على كرسي وقربه الى سريره، ثمَّ قال بعربيَّة شاميَّة:

«على أي بلد بدك تروح. . . إلي وأنا حَ ملي الاستمارة» .

فكّرَ والألم يعتصره، أن نـود اختفتْ، ما الفائدة من الذهاب الى أي بلد في العالم وحده. لا يريد أيَّ شيءٍ، ما دامت نـود غير موجودة.

أعاد الرجل الشامي سؤاله مرَّة أخرى، فنظر إليه، كان مهذَّباً وصبوراً. أجابه بصوتٍ متجرِّح: «أريد أن أعود الى بلدي. . أريد بلدي. . لا أرغب بالذهاب الى أي مكانٍ آخر».

القسم الثاني

أنَا.. و حَلُّـوم

[.. لنْ أكونَ مُذْنِباً، ولكنِّي لنْ أكونَ بَرِيْئاً أيضاً. إن ما بيَّ لنْ يَعْرِفَهُ سواي، ولعلِّي الوحيدُ الذي يمكنُهُ أنْ يبحثَ. فإذا كنتُ أخشى الألمَ والحزنَ والحسرةَ وتأنيبَ الضّمير، وهي الأشباح التي لا تفارقني في منامي على الأقل، فإنّي سأُمَهِّدُ بشكلٍ أكيدٍ لِحُكْمٍ أشدَّ قسوةً لنْ يتأخَّرَ صدورُهُ عليَّ.]

* الرجع البعيد / فؤاد التكرلي ص٢٧.

- ١ -

عليَّ أناكتب، وإلّا فإنَّني سأذوب وسط لَغَطٍ من حولي، والاحساس بتقضّي الوقت. كلُّهم يشعرون بثقل الوقت، وأنا أشعر بخفّته، أيامهم الثقيلة ليست شيئاً أمام إدراكي بأنَّ حركة الليل والنهار بدتْ ومنذُ ان وطِئتْ قدماي هذا المكان أسرع من المعتاد. لا أريد أن أتذكّر في كلّ لحظة أنَّ يوم خروجي من هذا المكان يقترب ويقترب. ولأجل ذلك سأؤلِّفُ حكايةً، هكذا، أُشَخْبِطُ في أعلى الصفحة الأولى، وأتوقف، ثمَّ أُشرِعُ في وصف شارع في مدينة شبه ريفيّة، ناس كثر يتجولون، لأنَّ الوقت عصر، وهناك من يتجه مع عائلته الى موقف السيارات، تَمْرِقُ سيارة أجرة من أمام (جَنْبَر) معدني للسجائر على الرصيف، بجوار صبي يلبس قبعة رياضيّة، يخفّف السائق من سرعته بسبب مرور عَنْزَةٍ صغيرة، ويُخْرِج رأسه حانقاً من النافذة، ويشْتِمُ الراعي العجوز، الذي يَمْرِقُ مع عَنْزَاته الأخريات من أمام السيارة من دون اكتراث، ثمَّ تسْتأنف سيارة الأجرة حركتها على الاسفلت، بينما يجلس بطل قصّتي في المقعد الخلفي لها. يوقد سيجارة ويشرع في التدخين، مُطْلِقَاً زفيراً كثيفاً، ثمَّ يفتح النافذة ليحرّر خيوط الدخان الملتفة أمام وجهه.

الشمس انْكسرتْ خلف البنايات، أسراب من الطيور تحلّق في دورات قصيرة تتشابك ثمَّ تنحلُّ، وتهبط في دورانها، والهواء الفاتر لأخريات الربيع ينساب بهدوء حتى أنَّه لا يكاد يحرِّك سعفات النخيل المزروع في الجزرات الوسطيّة أو في باحات البيوت الضيقة والمكتظَّة على بعضها. ولأنَّ الوقت عصر، تبدو الشوارع مزدحمة بسيارات الركاب الكبيرة الملطَّخة بأوحال المياه الطافحة من المجاري، التي صدأ بدنُها القريب من الأرض وتقشَّرت صبغته، أشخاص يركبون الى الكاظمية والعلاوي والنهضة والباب الشرقي والساحة وباب المعظم، وعربات حلوى وعصير، بمصابيح كثيرة أوقدت مبكراً، ومسجلات تصدح بأغاني شعبية عند ركن الشارع، يمرُّ سرب من عربات نفط خضراء اللون تجرُّها خيل هزيلة، ويقودها صبية سمر البشرة يعتمرون قبعات شبيهة بقبعات الكاوبوي، ينعطفون مزهوين ليدخلوا الشارع الرئيس، وهم يقرعون أسطوانات حديدية صغيرة مربوطة على يمينهم بإيقاع منغَّم، يجذب انتباه السابلة.. (الشقراء الاصيلة).. (هنادي).. (محبوبة السهارى). وعبارات أخرى مكتوبة بخطٍّ بدائيٍّ على بدن العربات الأخضر الغامق. ويكون بجوار ذلك عادة عين جاحظة يخترقها سهم غليظ.

يفكِّر (حلمي) واضعاً كوعه على حافّة النافذة المفتوحة لسيارة الأجرة، وهي تهدْهِدُهُ بتوقفاتها الفجائيّة ثمَّ شروعها بالحركة، بأنَّه لم يكن يتوقّع أن يرى الحياة على احتدامها السابق، وكأنَّ شيئاً لم يحدث. لقد كان يسمع هناك أن بغداد مُجِيَتْ من على الخارطة، وأنّ أطنان المواد المتفجِّرة جعلتها هباءً منثوراً. يتابع السابلة بدشاديشهم البيضاء وبناطيلهم وهم يدخلون محال الصاغة أو

يخرجون من محال المأكولات السريعة، إنَّه الوقت المميز خلال اليوم، إذْ يتسكَّع الجميع ليرفهوا عن أنفسهم بعد نَوْمَة الظهيرة، أو بعد الاغتسال لإزاحة يوم العمل الطويل، وانتهاز ساعتين للتحرُّر من الحياة المرهقة، أو ربَّما لأجل التبضُّع لا أكثر. إنَّه وقت مميّز حقّاً، حتى غروب الشمس، أو ما بعده بقليل، يفكِّر حلمي بذلك، ويخمِّن أنْ الوقت سيكون كافياً لأهله كي يعبِّروا عن فرحتهم بوصوله قبل أنْ يداهمهم الظلام.

سيرميه السائق العجوز النكِدُ الذي لا يتوقف عن الثرثرة وشتم كلِّ من يمرَّ من أمامه، عند الرصيف أمام زقاق السادة، هناك في منتصف الزقاق تماماً، بيت أبي حلمي وبيت عمه. ملابسه الجديدة والغريبة ستجعل التعرّف عليه صعباً في البدايـة. ولكنَّ الأطفال الذين يملؤون الشارع سيتوقفون عن لعب الدَّعَابُل أو الشّحَّيْتَان، وسيركض اثنان أو ثلاثة منهم بسرعة البرق داخلين الى الزقاق، ويهدوا بقبضاتهم الكالحة الصغيرة ببيان بعض البيوت لِيُنْبِئُوا الجميع انّ حلمي قد رجع.

فرقة رزّاق الأمير، التي تنافس فرقة عزيز الحزين، ستراه بقامته الممشوقة وتورّد خديه يتجه الى بدايـة الزقاق فيقطع اعضاؤها تمارينهم الارتجالية، ويخرجوا بآلاتهم الهوائيّة والايقاعيّة ليباغتوه من الخلف بزفّة مفاجئةٍ أمام مرأى الخارجين والداخلين الى الزقاق أو اولئك الشباب المراهق المُتَبَطِّل الواقف في أركان الشارع أو عند جنْبَر الحَبِّ الشمسي والسجائر، ويستعر جنون رزّاق ببوقه النحاسي المخسَّف، منغِّماً لحن أغنية اشتهرت منذ يومين فقط، ينظر إليه حلمي ويضحك شاعراً بالخجل.

تصل السيارة بحلمي الى بدايـة سوق الحراميّة المترامي

الأطراف، فيستيقظ من هواجسه ويطلب من السائق أنْ يتوقّف، ثمَّ ينزل ويسحب حقيبته الملوَّنة الكبيرة الخفيفة، وينظر الى بداية الزقاق فيضرب قلبه بشدَّة.

يخطو على الرصيف العريض المتشقِّق كأنَّما بفعل زلزال قديم، ويتحاشى بقعة ماء زرقاء اللون تغيب فوَّهة منهول طافح، يرفع رأسه الى ستارات الأسطح العالية المخرَّمة والمزخرفة بألوان البيج والكاكاو، ويرى سجاجيد مبلَّلة وأخرى ناشفة، وأثواباً نسائيّة منشورةً عليها، أطفال ونساء عجائز ومراهقات، ينظرون إليه بأعْيُنٍ ساكنة، يتقدَّم داخلاً الزقاق والأسطح ملأى بالأطفال والنساء، والنظرة المُنْشَدِهَة نفسها على كلِّ الوجوه، ثمَّ ترتفع من الأبواب المفتوحة والمعْتِمَة زغاريد منخفِضَة، تتصاعد شيئاً فشيئاً وتتزايد بنغم واحد متصل، ينظر الى الأبواب الواطئة المعتمة فيرى بالكاد أعْيُنَ نساء سود البشرة وقد غطين وجوههن بفوطٍ داكنة، يدخلن أيديهن تحت الفوط الى مستوى الفم ويزغردن، وفي أثناء ذلك كان سرب من السعفات المنتصبة يحملها أولاد بدشاديش مقلَّمة وبيجامات بازة ثخينة، يتقدَّم إليه من الطرف البعيد للزقاق.

وقبل أن يصل الى باب بيته شاهد أُمَّه وهي تخرج مع ثلَّة من نساء أعمامه وأخواله وبناتهن وَهُنَّ يزغردنَ ويرمينَ الملبَّس والجكْليت في كلِّ الاتجاهات. أراد أنْ يبكي لما رأى أُمَّه، لكنَّه قرَّر أنْ يبتسم، أَفْرَدَ وجهه بابتسامة هادئة وواسعة، وما أن شرع بذلك حتى أحسَّ بأنَّ وجهه قد تشنج، ولم يستطع بعدها أنْ يرخي عضلات فكّيه، وهو يقابل أهله، واستمرَّ وجهه بهذه الابتسامة الى ما بعد منتصف الليل. استخدم أبوه وأولاد عمّه المراهم والتدليك من أجل ايقافها، لكنَّه نام ليلتها واللعاب يسيل ولا يتوقف من فمه المبتسم.

يستيقظ حلمي مرَّة أخرى، حين تحتضنه أمَّه وسط الزقاق، ويشعر بدفء رائحتها، تُقَبِّلُه في كلِّ جزء من وجهه، وينوي أنْ يبتسم، لكنَّه يجد البكاء أقرب إليه من ذلك.

تسلمه أمَّه الى خالته ، وتتلاقفه نساء البيت تباعاً، ثمَّ ينحني الى جدته قصيرة القامة، ويغفو على شِيْلَتِهَا الرماديّة ذات الروائح القويّة للحظات، ولم يكن وهو في كلِّ هذا منتبهاً الى ابنة عمه وخطيبته نادية التي لم تتمالك نفسها فذبُلت أقدامها وهي تحاول لمسه وجذب انتباهه إليها، أمسكته من قميصه ثمَّ انحدرت لتتشبث بقدميه المسمَّرتين على أرض الزقاق وقد حوطه الناس من كلِّ اتجاه، بلَّلت سرواله بدموعها، واعتصرت وجهها عليه حتى آخر شَهْقَةِ حنين.

ـ ٣ ـ

كان اليوم الذي تلا وصوله يوماً مميَّزاً، كُنِسَ البيتُ عند الفجر ورُشَّت أرجاؤه بالماء، وفُرِشَتْ غرفةُ الضيوف بسجاجيد حمراء داكنة الزخارف من نسج سوق الشيوخ. ذبح الأبُ المتكرِّش ذو الصلعة المملُوحَة خروفاً، في بادرة لا تشهد العائلة مثلها كثيراً، وجاء أحد الأخوال بخروف أشهب مكحول العينين، وحلف بالأئمة أن يذبحه إكراماً لـ(حلوم) وعودته سالماً. أخذ أولاد العمَّة هذا الخروف وذبحوه عند الحائط غير المكسوِّ قرب تنور الطين في بيت العم غانم.

ظلّت الجدة وسط هرج البيت ومرجه تصيح بصوت جرحته السجائر من داخل غرفتها، وكلُّ من تدخل اليها من النساء لأجل غرض ما في الغرفة تتعارك معها وتقول حين تخرج: «تريد تسوينه فضيحة للعالم؟». وعرف حلمي فيما بعد أنَّ الجدَّة تريد تنفيذ نذرها الذي قطعته على نفسها عصر يوم شتائي وهي تتوجَّه من على سطح

البيت الى مرقد أبي الفضل العباس، فيما لو عاد حلمي سالماً بأن ترتدي ثوباً ملوَّناً مما ترتديه الشابات الصغيرات وتسير في الزقاق (إِمْفَرْعَة) أي بدون عباءة حتى تصل الى دكان أبي ناجي ثمَّ تعود الى البيت.

اكتشف حلمي أيضاً أنَّ (حِـيوان) الجرو الذي جلبه أبوه منذ زمن بعيد، قد غدا كلباً ضخم العضدين ذا شعر متموّج نحاسيٌ اللون. اقترب منه، لكنَّه عاجله بنباح مستعر، وكـأنَّه ينكره. رمى أولاد العم مصارين الخروفين المذبوحين لـ (حِـيوان) ليسكتوه، فاندفع يلتهمها بحماس، وحين علمت العمّة سليمة بذلك، صاحت على ولديها ودعت بالويل والثبور عليهما، لأنَّهما يتدخّلان في شغل النسوان ولا يعرفان شيئاً، وإلّا ما رميا المصارين للكلب، قالوا لها (إنَّها قذارة)، فَرَمَتْهُمَا بطاسة نحاسيَّة وهي تقول منْفَعِلَة (أنتما القذارة)، فابتعدا ضاحكين.

بقع ماء غسل اللحم ملأت الحفر والتشقّقات على أرضيَّة البيت، قشور الرز والفضلات الأخرى توحي بأعباء تنظيف لا نهـاية لها. يستند حلمي الى ستارة البيت بدشداشة بيضاء فضفاضة تبدو أكبر من مقاسه، أهداها له محمد ابن عمه وزوج أخته سناء ليلة البارحة، يحدِّق الى الزقاق ويرى سلام وهدى ولدي عمّته كريمة يبتعدان، ثمَّ يقفان عند دكان أبي ناجي، فيرجع ببصره الى السطح الترابي ويرى (حِـيوان) وقد غفا في الظلِّ بعد وجبته الدسمة، فيتذكّر ذلك اليوم البعيد الذي جلب فيه الأب هذا الكلب من أخواله في الجنوب، لم يكن هناك من يؤيد إحضار كلب الى البيت، لكنَّ الأب ذكَّرهم بالملابس التي سُرِقَتْ من بيت ياسين، وقنينة الغاز التي سُرِقَتْ من الجيران وراء بيتهم، : «نبحتان أو ثلاثة كافية من هذا الكلب لتغيير

رأي اللصوص». قال الأب ذلك وهـو يشير الى الجرو الصغير أحمر اللون الذي ينظر الى الأب المتكلّم وكـأنَّه ينصت إليه ويفهم ما يقول.

ولأنَّه يستجيب للأوامر التي يصدرها الأب: «روح.. تعال.. اصعد.. انزل». فقد أطلق الأب عليه في الأيام الأولى وسط استغراب العائلة، اسم (انسان). وكان يبرِّر ذلك بأنَّ هذا الجرو ليس حيواناً بالتأكيد، وأنَّ فيه روح جِنّيٍّ أو إنسان، إنَّه يشبه الإنسان فعلاً، يفهم ويعرف ما يقال له، إنَّه يفهم ما نتحدّث به مع بعضنا مثلا. وكان الكلُّ يسخرون من هذا الكلام، ولم ينْصِتُوا الى حجج الأب، وبدؤوا يكرِّرون أمامه بإلحاح: إنَّه حِـيوان ، حِـيوان ، حِـيوان، حِـيوان. فَتَلَقَّفَ الأطفال التسمية الجديدة وبدؤوا يطلقونها على الكلب: (تعال حِـيوان .. روح حِـيوان). وبهذه الطريقة عاد (إنسان) حيواناً مرَّةً أخرى، مُتَمَلِّصَاً من إرادة الأب.

إنَّ حِـيوان لا يبدو الآن بذلك الذكاء والفهم المشاعين عنه، يفكِّر حلمي وهـو يُمَسِّدُ على فروة رأس الكلب، بعد أنْ هادنه واقترب منه، إنَّه بليد وثقيل الحركة، ولا يكاد ينبح إلّا إذا شاهد شيئاً غريباً في السماء، ويقضي الليل وأكثر ساعات النهار غَاطّاً في نوم عميق.. هكذا أخبرته العائلة.

انتهى الغداء، وتفرَّق المَعَازِيْم، ووزَّعت أمُّه وعماته أرباع اللحم والعظام الملفوفة بالورق على الجيران، الذين تسلَّموا هذه الأُعْطِيَات وهم يَتَشَكَّرُون ويباركون، وتكأكأ الأقرباء والجيران على حلمي ليلاً يستمعون لقصَّته، تجحظ العيون حين يورد حادثاً مؤلِماً، وتَبْتَشِرُ الوجوه حين يروي مفارقةً ما، أو يبتسم البعض، ثمَّ يضحكون حين يُمَثِّلُ بيديه موقفاً كوميديّاً.

بعدها، حين خلا الى نفسه، وجد أنَّ أغراضه ما زالت كما

تركها، كتبه المدرسيَّة، وملابسه، أوراقه التي يُخَرْبِشُ فيها مذكراته، أو خواطره الشعريَّة، ثمَّ وكأنَّه يحاول استرجاع صلته بذاكرته يشرع في القراءة:

. . . . تتحرَّك (ع) أخيراً، فألمح وجهها الملتفت جهة الشمس/ اليوم ابتسمت لـ (ع) لكنَّها أشاحت بوجهها/ وقفت مع عيدان حسن قرب حديقة المستشفى، كان يتحدَّث عن الرسوب لكنِّي طلبت منه (راسبوتين)، قال إنَّ أخاه الطبيب أقفل زجاج مكتبته، قلت له لا تخف لن أرْسِبَ/ عند عصر هذا اليوم ترك عيدان كتاب راسبوتين لدى والدتي، كنت ذاهباً مع أبي الى عرس عدنان ابن حجي زهر، بعد الغروب تسلَّمت الكتاب من أمي وأخبرتني بمجيء عيدان، فتحت الكتاب ووجدت رسالة منه على ورقة صغيرة «هذا هو الكتاب الذي طلبته . . وأنا واثق من أنَّك سترسب هذه السنة أيضاً» / كنت جالساً مع عيدان على مصطبة اسمنتية واطئة في الحديقة المقابلة لمستشفى الجوادر، وخلْفَنَا سياج الـ BRC الذي يفصل الحديقة عن الشارع العام، مرَّتْ (ع) بعباءتها وقذْلَتِهَا الحمراء المدلَّاة بتموِّج على جبينها وعلاقة الخوص البرتقاليَّة على رأسها، التفت من دون أن أعرف السبب وقطعت حديث عيدان فوجدت عباءتها ترفرف قرب السياج، نظرت إليَّ وابتسمت أخيراً، وقبل أن أفيق من سحر وجهها قالت (انكليزي)، بنبرة استهزاء وغنج، تابعتها معقود اللسان حتى اختفت وراء الأشجار، وضحك عيدان ملء قلبه من منظري وأنا متسمِّر بوجه أبْلَه/ قلت لعيدان ربَّما سَأُكْمِلُ بدرسين . . لكنَّه قال: لا . . سترسب هذه السنة أيضاً/ لم يدخل عيدان الى كليّة الطب مثل أخيه الكبير ودخل إلى علم الاجتماع، وأنا ذهبت الى معسكر النهروان.

يُرْجِعُ حلمي أوراقه ودفاتره الى عمق الْكَنْتُور، وأذناه تستقبلان

من دون اكتراث هَمْهَمَة التلفزيون البعيدة، ولغط العائلة الفرحين بعودته، يتذكَّر عيدان وأصدقاء مدرسته الآخرين، كرة القدم، والتسكُع في الأسواق، إنَّه لا يعرف حتى أين هو منزل عيدان، كانا يخرجان من المدرسة ويركب عيدان في سيارة تذهب به الى بداية المدينة، من المؤكد أنَّه الآن في السنة الثالثة من علم الاجتماع، أو أنَّه تَخَرَّج. يتكئ حلمي على الحائط ويطوي أطراف دشداشته الكبيرة في حجره ويشعر بنعاس، وخمود في أعماق روحه.

ـ ٤ ـ

لقد عاد، ما الذي أمامه في الأفق؟ كان الشيء الذي يفعله سابقاً هو القراءة، والاستغراق في قراءة أيِّ شيءٍ، لم يكن يملك حسَّ التوازن الذي تحدَّث عنه أستاذ درس الانكليزي في معرض نصيحته للطلاب وهم على أبواب الامتحانات. يتكلَّم الاستاذ عن حسِّ التوازن ويضرب نفسه مثلاً على كلامه، كان في الإعدادية يلعب كرة القدم، ويجلس في المقهى يلعب الدومينو والطاولي ويشرب الشاي، ويقرأ المجلات ، ويتابع برامج التلفزيون، ويذهب للسينما ، ويزور أقرباءه وأصدقاءه، وينام جيداً، وفوق كلِّ هذا وذاك، يقرأ دروسه وينجح بتفوق. يعرض الاستاذ كلَّ هذه الأشياء بارتياح وابتسامة إعجاب على شفتيه، ثمَّ يرفع أصبعه ويكرر: «إنَّه حسُّ التوازن».

من المؤكد أنَّ حلمي لا يملك هذا الشيء السحريّ، حسَّ التوازن، وإلّا كان قد نجح، ودخل الجامعة مثل زملائه الكثيرين. يتذكَّر ملامح الثقة في وجه (الأستاذ الأسطورة) ويشعر بأسى وضعف شديد.

في السنة الأولى صمَّم على أن يجري امتحاناً خارجياً،

واصطحب كتبه معه الى المعسكر، وظلَّ يقرأ في واجبات الحِرَاسَة وفي كلِّ فراغ يسنح له. فعلى الأقل سيحذف نجاحه ونيله شهادة الإعدادية سنة كاملة من خدمته العسكريَّة، لكنَّ حماسه غادره بعد مدَّة، وفترت همَّته، ليجد نفسه وقد تروَّض شيئاً فشيئاً لحياة جديدة وزملاء جدد.

لكنَّ هذه الأشياء كلُّها غدت من الماضي، لماذا يفكِّر بها الآن؟ يتذكَّر (مسافر) صديقه الجريح الذي كان ينام في سرير مجاور له في المستشفى العسكري الأميركي في السعودية، كان مصاباً في ساقه مثله، لكنَّ إصابة حلمي أخطر، كان من الممكن أنْ تودي بساقه، لولا العناية الطبيّة الشديدة. كان مسافر يثرثر كثيراً ولا يترك صديقه لهواجسه وخيالاته، ويبدو مزهواً بجملة أشياء يكررها كلَّ يوم على مسامع زميل غرفته. «إنَّ أبي كثير السفر لأنَّه يعمل خبيراً في النفط، وفي إحدى أسفاره ولدت، فسمّتني أمّي مسافر». ذكر ذلك أمام حلمي كلَّ يوم تقريباً.

حين افترقا فيما بعد، كان كلاهما يشعر ودون أيَّة عاطفة مفرّطة، أنَّهما لن يلتقيا بعد الآن، ولم يكن الأمر محزناً بالنسبة لمسافر، لأنَّ أمامه أشياء كثيرة ليفعلها، كما يقول لحلمي دائماً، (الحياة قصيرة، يجب أنْ أقوم بكلِّ ما يقوم به البشر قبل فوات الأوان) يقول مسافر ذلك ثمَّ يضحك، ويفهم حلمي الإشارات الحسيّة في كلام مسافر دون جهد كبير. افترقا، ولم يكن حلمي على أيَّة حال يرى أن أمامه شيئاً ما. كان لديه شيء واحد على الأقل، وأجْهَزَ عليه مسافر هذا!

لكن العائلة ترى أمراً آخر، أن أمام حلمي أشياء كثيرة جداً، سيتركونه لشأنه مدَّة من الزمن، ريثما يستردُّ أنفاسه، ينظرون إليه

ببشرته الموردة وشعره الذهبي، فيطمئنون الى كونه أكثر صحةً وعافيةً مما كان عليه سابقاً، ينطرح على الأرض متكئاً على وسادة ليّنة، بنظر الى التلفزيون، يكرز الحَبَّ الشمسي، ويلعب حتى ساعةٍ متأخرة الطاولي مع ابن عمّه محمد، يخرج الى رأس الزقاق ويثرثر ويتمشّى مع أبناء المنطقة، ويستمتع أثناء ذلك باستجواباتهم له، وفضولهم الذي يصبُّونه لمعرفة كلِّ شيء. تنظر أمَّه إليه حين يخرج من الحمام يدعك رأسه بالمنشفة وتتخيَّله عريساً على ابنة عمّه نادية، كما كانت تحلم بذلك دائماً، وها هو الآن بينهم، ليس عليه سوى أن يعمل ويجمع المال ليتزوَّج. ستقول له ذلك، ولكنْ ، ليس الآن. فليعمل مع عمّه غانم أسطى البناء، أو فلْيجد له والده عملاً في مصلحة نقل الركاب. هناك أكثر من فرصة لعمل مجدٍ لو طلب ذلك، يفكِّر أبوه وهو يشاهد ولده يمشِّط شعره الجميل أمام المرآة، وتمرُّ في خاطره كما مرَّت مراراً صورة أبيه كشاش، الذي يعرف الجميع ان حلمي يشبهه تماماً.

- ٥ -

لم تَرِثِ العائلة من ملامح وصفات كشاش البدنيَّة أيَّ شيء، ولدا كشاش، غانم وسالم، وبناته الثلاث، سليمة وكريمة وتماضر، كلُّهم خرجوا سُمْرَ البشرة بشعور سود، مشابهين في ذلك أخوالهم وأعمامهم. وبقيَ هذان الفريدان، كشاش وزوجته قسمة، يتلمسان أنفاً هنا، وأذناً هناك، ولكن ما من أحد من أبنائهما أخذ عنهما كلَّ شيء. ولأجل ذلك كانت قسمة ذات البشرة الباهتة كالرخام، تنادي أيّاً من بناتها في لحظات انزعاج بـ (الدبسة)، وتَشْتِمُ عمّاتها وخالاتها.

تزوَّج غانم، الابن الأول لكشاش وقسمة، وبعد حين حملت زوجته، ثمَّ ولدت. وفي ذلك اليوم اقتربت قسمة وكشفت بلهفة القماشة البيضاء التي تغطي صينيَّة الوليد، وحدَّقت بوجهه الصَّغير مليَّاً، ثمَّ أشاحت عنه عابسةً، وقالت لِابْنِهَا المزهوِّ: «إنَّه يشبهك.. حَبَّة ومقسومة». وظلَّ خاطر ما ينبثق ثمَّ يغيب لديها، كلّما رمقت بعينين كَلِيْلَتِين صورة زوجها الغائب. كانت تأمل أنْ تراه ثانيةً، مرسوماً على وجه أحد أحفادها، ولم يطل الوقت بها لكي يتوَّج أملها البسيط في لحظةٍ كانت تنتظرها بشدَّة، فقد أنجب سالم (ابنها الثاني)، ولده البكْر واسماه باسم غريبٍ على مسامع العائلة (حلمي)، وكأنَّه ينطق بلسان حال الجَدَّة حين أسماه بذلك. فهاهي تجلس قرب الأم النفساء، تهدهد صينيَّة الوليد، ونشوة غامرة تتراقص في وجهها، ترمي بنظرها الساهي الى وجه الطفل الصغير، وتلمس بيقين ثابت إنَّه يشبهه، يشبه كشاش، إنَّه هو، رغم أنَّها لم تَرَ كشاش في عُمْرٍ كهذا، لكنَّه مزروع في أعماقها، كأنَّها تتشمَّم للآن أنفاسه، وتلمس وجهه ويديه، ومنابت الشعر على وجنته، ورموشه الشقراء الكثيفة. وبعيداً عن كلِّ هذا وذاك، فقد علَّمتها الأيام، وهدهدتها للمواليد، كيف تعرف أصل الشبه في المولود الجديد، حتى قبل أنْ يصرخ صرخته الأولى.

«بس حلوم»، تقول ذلك وهي تقبّله حين يأتي اليها راكضاً، ويجلس في حجرها، وتظلُّ تناغيه وتشبعه قُبلاً. لكن (حلوم) لم يستحوذ على كلِّ اهتمامها حتى النهاية، فسرعان ما ولدت زوجة غانم طفلها الثاني، وكان بنتاً أسموها نادية. وكما جرى الأمر مع (حلوم) عرفت الجدَّة من دون جهد كبير أنَّ البنت لا تنتمي لوجوه وسُحَن العائلة، وأنَّها هذه المرَّة، تشبهها هي، إنَّ المولودة الصغيرة

تشبه الجدَّة قسمة، وكأنَّهما حَبَّة مقسومة على نصفين.

«نـودة لحلوم، وحلوم لنـودة»، قرَّرت الجدَّة، وهي تناغي شبيهتها ذات الفم المبلول، وتقبَّلت العائلة راضية، قسمة الجدَّة، فهذا ما سينتهي إليه الأبناء عموماً. كبر حلوم، وكبرت نـودة، كما كانوا يسمُّونها تحبّباً، ويرى الجميع في أفق حياتهم، قدراً غريباً يبعث فيه الجدُّ والجدَّة ثانيةً، صغاراً يقترِّبون من يوم عرسهم، والذي كان قد حدث في أزمان ماضية.

ولكن هل سيجري هذا الزواج لمرَّة ثانية، أم أنَّ كشاش وقسمة، كانا قد التقيا، وعبر أزمان سحيقة، لآلاف المرَّات؟

- ٦ -

كانت العرب تسمِّي عبيدها بأسماء مملُوحة، وأبناءها بأسماء مستقْبحة، معلِّلة ذلك بأنَّ عبيدهم لهم وأبناءهم لأعدائهم، لكنَّ ذلك لا يفسِّر كلَّ الأسماء الغريبة التي يحملها الكثير من الرجال في مدينتنا شبه الريفيّة. يقال إنَّ الهنـود الحمر حين يولد لهم مولود ينظرون حولهم، ويتسلَّمون أيَّة إشارة طبيعيَّة أو حادثة مصاحبة، ليشتقوا منها اسم المولود الجديد. وهم بذلك ينساقون مع نظرتهم للحياة، ومعنى الوجود وطبيعة ارتباطهم به. هذه الرؤية ذات المكوِّنات الأسطوريَّة والغيبيَّة، تفعل فعلها في ثقافات مختلفة، وليست التسميَّة سوى أثر من آثارها. إنَّ المجاعات والأمراض المجهولة، والخوف من الحسد والعين وفقدان الأبناء سند المستقبل، يدفع العائلة التي تهبط عليها النعمة الإلهية بمولود ذكر الى ان تتلفت حولها وتلتقط أيَّ شيء لتسمِّي به ابنها. إنَّها الآلية نفسها كما لدى الهنـود الحمر أو أقوام عريقة أخرى، ولكنَّ الهدف

يختلف. (چليب .. جريدي.. زبالة .. جحش). أما إذا زاد الأمر وكان المولود جميلاً يشبه فِلْقَةَ القمر، فإنَّها الطامَّة الكبرى. يغطى الرضيع ولا يعرض على أيّة عين قريبة أو بعيدة، وتجيب أمّه أو جدّته أو خالته حين تسأل النساء عن جنس المولود (إنَّه أنثى) اتِّقاءً لشرِّ الإخبار الأول عنه، فالشرُّ مرافق دائماً للسؤال الأول. وبعد حين يطلق الأب عليه اسماً منفّراً، وهذا ما حصل لـ (كشاش) جدّ حلمي.

إنَّ ما يجمع بعد كنس الغرف وباحات البيت من تراب وفضلات وقشور ثمَّ يرمى، يسمّى في لهجة الجنوبيين (كشاش).

كبر كشاش، وتجاوز الحصبة والتهابات الجهاز التنفّسي والأورام الخبيثة والرمد والثألول والعرج والزحار والملاريا، حتى وصل الى سنِّ الرابعة بسلام، خرجت أمّه به بعد أن لم تستطع إخفاءه عن العين مدَّة أطول، ولأنَّها أيضاً لا تريد أن تتركه في البيت وحده. حصَّنته بشذرات زرق ملصقة على أطراف شعره الذهبي بالْعِلْكَة، وبأحراز مثلَّثة مغلَّفة بالقماش مُخَاطَة على جانبي صدره، وحوطته بعباءتها مخافة أن تراه جارتها الحسودة، لكن الجارة وهي تسجر تنورها عند طرف بيتها، شاهدت ومن خلف السياج الطيني الواطئ الذي يستند اليه التنور، هذه الأم وهي تسير خارجة باتجاه مقبرة (الوداعة) بقدميها الحافيتين ويجوارها أسفل العباءة قدمان بيضاوان صغيرتان تسيران على عجل.

جمعت الام نبات الگوگلّه الشائخ والمتيبِّس وصرَّته الى بعضه ثمَّ لفَّته بخرقة طويلة ورفعته على رأسها وسحبت طفلها خلفها، وأمام تلال ترابيّة صغيرة متجاورة توقفت. وأحسَّت بأنَّها تريد قول شيء. التفتت بعينيها الى وليدها وقالت: «هذه قبور اخوتك..

محمد وعلي وفاطمة وحسن وحسين» . نظر الصبي الى أمّه ولم يفهم شيئاً، كانت حزينة وخائفة، لأنَّ من أخذ هؤلاء قادر وبسهولة على أخذ كشاش أيضاً.

- ٧ -

كشاش الهزيل والنحيل والوامض مثل بيضة مقشَّرة يسمع النواح والصراخ. لقد قُتِلَ أبوه. ضاع معيل العائلة. أخذوه وغسَّلوه وكفَّنوه، وكشاش يلفُّ رأسه ووجهه بفوطة مرقَّطة، ويشدُّ المعزون على يده، مات الأب وبقيَ الشيخ حيَّاً. كان الأب يخرج مع ثلَّة من الجائعين ليغيروا في غزوات ليليَّة على بيوت الشيوخ، فيسوقون الغنم والحَلَالَ أمامهم، يسرقون السجاجيد والوسائد والأواني، ويضربون العبيد على أنوفهم أو يقيِّدونهم، وكانت يد الأب معروفة في كلِّ القرى، لأنَّ صفعتها تُنِيْمُ العبد شهراً. لكن أحد العبيد كان ممتزجاً بالليل في الغزوة الأخيرة، سدد إطلاقته المفاجئة مثل شهاب انْبَثَقَ من عمق السواد ليردي الأب المجالد في الوحل قبل أن يغادر بغنيمته حدود السَّلَف. يبَّس الرعب الدم في عروق أصحابه وهم يحملونه ويتلفتون في كلِّ اتجاه، تاركين الغنم والحلال. لقد قرَّ في يقينهم، في اللحظة التي سقط فيها أشجعهم، أن الليل قد غدا، ومنذ الليلة، عبداً آخر يحرس أموال الشيوخ.

يرفع كشاش يديه المعروقتين كجريدتي نخل، ويقرأ الفاتحة مترحِّماً على روح أبيه، وروح جدّه مسروط وأرواح اخوته الخمسة الذين لم يرهم أبداً. يستغرق مع الرحمن الرحيم ولا الضَّالين، ويغمض عينيه لأنَّ هذه هي الخاتمة، فينبهه أحد المهاجرين ليكمل المسير، فيقترب من أمّه وأختيه ويمضي معهم بمتاعهم القليل،

ولفّات من البواري والحصران على حمار أسود يتقدّم أمامهم. يلتفت الى مقبرة الوداعة للمرَّة الأخيرة. كان من الممكن ان يكون ومنذ زمن بعيد قبراً آخر بجوار قبور اخوته الرضع. لكنَّ اسمه أنقذه. الاسم القبيح الذي أطلقه الأب. والآن، ليس له من مكان ها هنا، سيأكله الجوع مع عائلته بعد موت الأب، ولن يكون للأسماء القبيحة من فائدة في صدِّ ذلك بعد الآن.

ـ ٨ ـ

[ها أنذا أخرج. لم يعد من المجدي البقاء في الأسفل أكثر مما بقيت. سأتعفن إنْ بقيت. إنْ بقيت. . لن أخرج ابداً.

هل ترى لون بشرتي وشعري؟ لون عينيَّ؟ إنَّ ما تراه بسبب العتمة. أبدو كملاك ببشرة شفافة صافية، أبدو نقيَّاً وبريئاً من أدران العالم، لكن ذلك لا يعني أنَّني على الحقيقة بريءٌ ونقيٌّ، إنَّه يعني فقط، أنَّني لم أتعرض للفرن الشمسي بما يكفي لأكون مثلكم، لم أتعرض للشمس أبداً. أنتم ولدتم من المجرور فقط. أما أنا فقد تأخَّرت ولادتي، كان عليَّ أن أكون مثل جدي مسروط، الذي تروي الشائعات أنَّ أمّه ولدته في الشهر الثالث من حملها، ولأنَّها محرومة من الأولاد، سارعت الى الكتلة اللحمية الهشَّة لجنينها المُجْهَض وسَرَطَتْهُ، اي ابتلعته، لتعيده الى بطنها ثانيةً، وصلَّت لله أنْ يبقيه حيَّاً هناك، وبعد أن أتمَّت من الحمل سبعة أشهر، ولدته من جديد، فنزل كابن تسعة أشهر، وعاش ونما، فسمَّته مسَرْوَط.

لقد سَرَطَنِي رحمٌ ما في غفلةٍ منّي، لأنِّي لم أكن مهيَّئاً بعد للخروج، وها أنِّي أقرر مواجهة الشمس، ليس في الامر أيَّة بطولة أو تحدٍ، إنَّني أواجهها مثل أيِّ موظف يخرج في صباح شتائي من

،منه المليء بالمشاكل والكآبات، متجهاً الى كرنفال الضوء والموظفات].

- ٩ -

من قال إنَّ حلمي نقيٌّ وبريء؟! ، لقد فعل كلَّ الموبقات، إبّان مراهقته الأولى [لقد مرَّ كشاش مثلاً بمراهقة ثانيةٍ في أخريات حياته، أسقطته من سِقَالة البناء، وفرطت فقراته القطنيّة]. كان جميلاً وذا مَسْحَةٍ أنثوية، لذا لم يسلم من تحرُّشات أصدقائه الجنسيَّة، وإنْ كانت بدافع العبث والمزاح، لكنَّ هذه التحرُّشات جرحته جرحاً عميقاً. صادق (محبوبة السهارى) في الليل، و(ع) في النهار، ثمَّ شطب (ع) وفتح (ع) أخرى. مزَّق كعبي قدميه وأدماهما بـ(البايسكلات). لعب كرة القدم في الساحة الترابيَّة بين السدَّة وسوق الحراميَّة، كان حارس مرمى جيداً، لأنَّ الفريقين يركضان دائماً بجميع اللاعبين وراء الكرة، ومن ضمنهم حارس المرمى الآخر، يخرجون خلفها من حدود الملعب الترابي نحو الشارع العام أو حتى الى داخل السوق. بينما يبقى هو جالساً لوقت طويل، يتابع بعينيه الكرة المتقافزة في دوَّامات التراب.

كانت قبضة أمّه لينةً، لكنَّها خانقة، سؤالها وحنوها ومحبّتها، وثرثرات الجدّة قسمة عن كشاش ومسروط والحراميّة والفلس والعانة، احتضانها له وبكاؤها السريع والصامت لسبب أو بدونه، وكأنَّها تضغط زرّاً خفيّاً في مكان ما لتندفع الدموع ميازيب على وجهها الرخامي المتغضّن.

كلُّ هذا خانق، رحم من رائحة أموميَّة ودعوة للنوم ونسيان الحياة برمتها، إغفاءة على شِيْلَة سوداء والتدثُّر بعباءة سوداء، ولو

كان هناك ثديٌ في الفم، فسيكون السواد أبدياً يشبه العماء الأول الذي انبثقت منه الأشياء.

كان عليه أنْ يغدو رجلاً فحسب، أنْ يخرج من الرحم الثاني الذي سَرَطَهُ. وهذا وحده عملٌ يمكن أنْ ينفق الإنسان حياته كلَّها من أجله، كان عليه فقط، أنْ يهتك النقاء والبراءة والبشرة الصافية. ومن أجل ذلك، قفز مع رفقاء الزقاق والمدرسة في (قناة الجيش). الظهيرة الحامية شَوَتْ كلَّ الأجساد إلّا جسده، وهو يغطُّ في الماء ثمَّ يرتفع، ويخبط بذراعيه، ثمَّ يخرج ليجلس على الحافة الطينيَّة للقناة موليَّاً ظهره للشمس كي تشويه جيداً، لكنَّ نتائج ذلك لم تكن مرضية بما فيه الكفاية.

كانت هناك طبرة عميقة في وجه رزّاق الأمير، تجعل سحنته مخيفة و(رجوليَّة!). قال له إنَّ شقاوات من باب الشيخ تعاركوا معه بأمواس العمليات في إحدى الليالي، وإنَّه مزَّقهم جميعاً وحولهم الى أرباع وأنصاف! لكنَّهم تركوا له تذكاراً على وجهه. كذلك كان ابن عمّه محمد الذي يكبره بأربع سنوات أسمر البشرة بوجه مدهون كثير الشعر. كان رجلاً حقيقيَّاً آخر. في صغرهما، كلما رأى محمد حلمي مارَّاً من أمام شباك بيتهم يصيح عليه «ها.. المايع؟». ثمَّ يُخْفِي نفسه. لقد كان مايعاً حقَّاً، بينما محمد يابس مثل ليل الصيف. إنَّه قدر بائس. تمنَّى مثلاً لو أن له على الأقل اسماً قبيحاً مثل اسم جدّه كشاش، فلربَّما شغلته عقدة الاسم القبيح عن أيِّ شيء آخر، أو أضافت له خشونةً يرغبها، ولو كانت على ألْسِنَةِ الآخرين فقط.

قبل أنْ يسلِّمه (المعلم الأسطورة!) شهادة رسوبه، كان حلمي قد اكتشف بألم ثقيل وبعد فوات الأوان أنَّ عضلاته لم تنمُ بما

،لفي، وأنَّ شيلة جدَّته قسمة انتصرت بليلها على رجولته المجهضة، ،مت مخيلته بسبب ذلك وتضخَّمت أكثر مما كان يخشى.

ـ ١٠ ـ

كانت يد مسروط معروفة في كلِّ القرى، فما أنْ يرفعها حتى نفضَّ أعتى المنازعات، وحين يدخل الى أيِّ مضيف بسُحنته الملائكيَّة وشحوب وجهه ولحيته التي كأنَّها وبرٌ متفرّق على فكيه، يقطع الجميع أحاديثهم وينهضون للترحيب به كبيراً وصغيراً. قيل إنَّ الملائكة تحفظه وتسنده، كان كامل النقاء والبراءة، وجرت على يديه كرامات كثيرة، ولو قال أحد إنَّه شاهده يرتقي درجات خفيَّة في الهواء ليغيب في العتمة، لما كذَّبه أحد. كان الذي يرفض حكمه يستعد للعقوبة الإلهية العاجلة في نفسه أو ولده أو ماله وحلاله، ولم يكن مسروط مع كلِّ ذلك متسلِّطاً أو متجبِّراً. كان يرسل الكلمات من شفتيه وكأنَّها نزلت توّاً من مكان آخر غير بشريٍّ، ولربَّما ادَّعى بعضهم أنَّه كان يرى النور يرافقه أو ينبعث منه أينما سلك، ومن كان سينكر أو يكذِّب هذا الشيء حتى ولو مع نفسه؟!

تُمَسِّد قسمة على رأس حلوم، وتكمل: إنَّ مسروط كان كذلك منذ البداية. مرَّة عاد أبوه عند الغروب من الكرب في أراضي الشيخ، ووجد مسروط نائماً، فقال لزوجته إنَّه جائع، فأجابته بأسى أن ليس في البيت لقمة واحدة، صمتت قليلاً، ثمَّ أشارت مرغمةً الى ماعون مغطّى بخرقة وأكملت «ليس لدي سوى تِمَّنَات مسروط». والتي كانت قد اقتطعتها من عشاء اليوم السابق، لأنَّها لا تقوى على بكاء صغيرها حين يستيقظ جائعاً. أشار الأب المهدود الى ماعون الرز وقال بيأس «يلله .. جيبي.. آني هلكان». فقدَّمت الأمُّ

الماعون اليه على مضض ثمَّ لمعت عيناها مخاطبة زوجها بألم: «ولكنَّه عشاء مسروط». لم يرضخ الأب لرجائها، وكشف الغطاء عن صحن الرز، ونظر مليّاً، ثمَّ تيبَّس وجهه بصمت قاتم، لأنَّ الرز لم يكن موجوداً، فقد أبدله الله بكبشة كبيرة من مسامير حديديَّة ناعمة.

ـ ١١ ـ

الذي لا يريد أنْ يكشفه كشاش، هو أنّه يخاف الكلاب، أو أنَّه يكرهها الى درجة الخوف. الليلة التي طرحوا بها أباه فرج الحرامي في وسط الغرفة الطينيَّة ذات النور الكابي، والدماء تغطي ملابسه، كانت ليلة كلبيَّة الى حدِّ الجنون، أمّه وجمع من نساء الأقارب تنوح وتخمش الخدود حول جثَّة الفقيد، وعواء متفجِّع من عشرات بل مئات الكلاب القريبة والبعيدة يرتفع وبنغمات مختلفة، وكأنَّ القرية تعرضت لغزوة جيش من اللصوص. فيغلبه القنوط متذكِّراً ذلك الحادث البعيد الذي اقتضم فيه جرو أسود ربلة ساقه حينما كان في السادسة، وتعثر في الليل بسبب الوحل والعتمة. كان يرى لمعة الأضواء البعيدة على عيني الجرو المسعور وهو يندفع من أحراش قريبة باتجاهه، صرخ على أبيه الذي كان يتقدّمه بخطوات، فاندفع الأب ليخلص ابنه من فكَّي هذا الشيطان الصغير، وبضربة واحدة من عصاته الغليظة أسكت هذا الجرو نهائيّاً، فلطالما صادف الأب مثل هذا الكلب أو ما هو أفظع اثناء غزواته الليليَّة.

هل كان الجرو أسودَ أم أنَّ الليل غطَّى على لونه؟ لم يعرف كشاش ذلك حينها، لكنَّ العرج الذي رافقه عدَّة شهور بعد هذا الحادث جعله ـ كما هو الآن ـ يكره الليل والكلاب الى الأبد.

تضع قسمة يدها على فم سالم ثمَّ ترفعها وتحاول إسكاته من دون فائدة. تفسح له مجالاً ليسحب نَفَساً ثمَّ تعاود كتم صياحه المزعج. تفعل ذلك مرَّتين أو ثلاثاً لكنَّه يستمرُّ بالصراخ والبكاء. ويصيح عليها كشاش لتسكته، لكنَّها لا تعرف ماذا تفعل، فالصغير يريد أنْ يُربّي كلباً والأب يرفض، لأنَّ دخول الكلب الى البيت يجلب الشياطين كما يقول الحديث النبوي الشريف، وسالم لا يفهم ذلك، إنَّه لا يطيق السعادة التي يراها على وجه جاسم ابن الجيران حين يخرج الى الزقاق مع كلبه الأبلق، ليلعب معه. يجلس أمام الباب بدشداشته الصغيرة ويتابع أخيه الكبير غانم وهو يلعب الدعابل مع رفاقه، وعينه على باب البيت المقابل منتظراً خروج جاسم وكلبه.

«روح.. تعال.. اصعد.. انزل». يصيح جاسم على كلبه، والكلب ينفذ أوامر سيده ببراعة متناهية، ويتعمَّد جاسم ذو الوجه الكالح والشعر الأجعد الفاحم أنْ يفعل ذلك أمام سالم كي يغيظه، والصغير ينظر الى ما يفعله هذا الصّبيُّ باندهاش وحسد.

ومرَّة، ذات صباح قال جاسم لكلبه أمام عينيّ سالم المدهوشتين «مُتْ»، فاستلقى الكلب على الارض وتماوت، ولما اقترب سالم من الكلب وجسَّه بيده، ذعر لإدراكه أنَّ الكلب قد مات فعلاً. نهض راكضاً ودخل الى البيت الطينيِّ ذي السقف الواطئ، واندفع ليمسك بثياب أمّه التي تفاجأت من دَخْلَتِهِ الغريبة، حاولت أنْ تهدئ من روعه، وتفهم ما به، لكنَّه ظلَّ يردد جملة واحدة.. كلب جاسم مات.. الكلب مات.. كلب جاسم مات.

- ١٣ -

يدخل حلمي الى غرفة الجدّة قسمة المليئة بالأغراض وصُرَرِ الملابس المكدَّسة، ويرفع بصره الى بيت العنكبوت في الزاوية العليا فوق أكياس الرز والشاي والسكر المصفوفة على خزانة واطئة. كان بيت العنكبوت ما زال على حاله، لأنَّ الجدَّة ترفض أنْ تنظف أيٌّ من نساء البيت غرفتها، وتقوم هي عادة وبجهد بالغ في كنس المساحة الصغيرة الباقية وسط الأثاث والأغراض، وترفض أنْ يمسح أحد ما بمكنسة أو سعفة بيت العنكبوت ذي الخيوط الدقيقة السوداء بسبب دخان الفوانيس والمدافئ النفطيّة، لأنّها تقول، إنَّ العنكبوت في البيت بركة، إنَّه الستار الأول، لأنَّه حمى النبيَّ في الغار، وأينما يوجد يستر على أهل المكان.

يقترب حلمي من جدّته النائمة والملفوفة بعباءتها، ويتأمل خَرْخَشَةَ أنفاسها الهادئة، كان قد اتفق معها ليلة البارحة على شيء ما، لقد شكت له أن أباه يرفض أنْ تفي بنذرها، وما الذي بقيَ لها بعد هذا العمر، سوى أن تصفّي أمورها مع الله، لا تريد أنْ تموت وفي رقبتها شيء له، ولأنَّه (حلوم) كان عليه أنْ يساعدها. أتفق معها أن يجلب ثوباً من أثواب أخته سناء لترتديه، وتخرج معه الى الشارع بعد منتصف الليل، بإمكانها في هذا الوقت أنْ تسير في الزقاق حتى دكان أبي ناجي ثمَّ تعود، سيرافقها، ولا أحد سينتبه الى ما فعلته. لكنَّه وجدها نائمة. وبدا وجهها المحجوب حتى الأنف بفوطتها الرماديّة هادئاً ومشعّاً بنور طمأنينة غريب، فشعر أنَّ من الدنس إيقاظها. إنَّها لا تدرك أنَّ ما من أحدٍ معني بنذرها الغريب، وأقصى ما يمكن أنْ يفعلوه هو الالتفاف عليه بوسائل سيقولون إنَّها مشروعة، ولكنَّ الجدَّة واضحة مثل نهار الصيف ومنبسطة مثل فيافي الجنوب،

إذا أرادت أنْ تسير باتجاه شيء ما فإنَّها لن تضطر الى الالتفاف والانحناء والدوران، إنَّها تصل إليه دائماً بخطٍ مستقيم، وهذا ما لا يهمه أحد في البيت.

ينظر حلمي الى وجه جدَّته ملياً، ويرى كيف تهدل على عينيها حاجباها الموشومان بخطين أزرقين ثخينين، يتوقف للحظات ثمَّ يلقي بنظرة أخيرة الى العنكبوت الحارس والساتر في عمق شبكته السوداء، ويتساءل، إنَّه البيت الخيطي الدقيق نفسه، ولكنْ هل هو نفس العنكبوت؟

ـ ١٤ ـ

نادية التي لا تقوى على الوقوف طويلاً، تنظر الى حلمي وهو يلعب الطاولي مع أخيها محمد. وتشعر أن غيبته قد أبعدته عنها، لم يكلِّمها منذ عودته بأيِّ كلمة مما كانت تنتظر، كان يكلِّمها، ولكن ذلك يشبه كلامه كلَّه، ولا يشبه الكلمات في رأسها، لا يشبه كلمات التلفزيون، أو كلمات ما بعد النوم، أو كلمات صديقتها التي تثرثر معها عصراً عبر الأسطح، حول فُلان وعِلَّان، بشعر رأسهم المصفَّف وقمصانهم المزرْكَشَة. يُغني كاظم الساهر «اريد انهض وما بلحيل كَوَّة» ويصدح صوته من المسجلة الموضوعة في مكان ما من حُوْش الجيران، بينما صديقتها تتحدَّث عن فلان وعِلَّان، أحدهم ضربها بكتفه في السوق، تقول الصديقة، لكنَّها لم تلتفت، إنَّها تعرفه، وقد حَلَقَ شعر رأسه مثل سعدون الحلَّاق، سعدون الذي حفر جهتي رأسه مثل كاظم الساهر، الذي يظهر مساءً في التلفزيون وقت العشاء وهو يخوض في الماء مع رفاقه ويقول «على اجتافي أشيله الثوب گوة»، تضحك الصديقة، وينبح (حِيوان) من السطح

المجاور، فترفع نادية رأسها الى السماء الشاحبة لبداية المغيب، فترى في العمق، شاهيناً يُفْرِدُ جناحيه بسكون.

ـ ١٥ ـ

اعتاد أهل القرية في ملمّاتهم أنْ يتجهوا الى مسروط، كانت كلمة منه مهما كانت عاديّة كافية لإشاعة الطمأنينة وجلب أطياف الراحة والفأل، يخرج بغنمه الى الفيافي المليئة بالعاقول والكرسوب ونبات الگوگلّه، وحين يرجع قبل الغروب يجد التبنَ أمام بقرتهم الوحيدة، ولا يسأل عادةً عمَّن جلبه، لأنَّه يعرف، يجلس الى مريديه وطلّاب بركته الذين يدخلون إليه دون استئذان وفي كلِّ الأوقات. يمسّد على رأس الصغير الباكي ويقرأ الفاتحة، فيخدر الصغير تحت دفء اليد الحمراء، ثمَّ يغفو، وتُقَبِّلُ الأمُّ ظهر هذه اليد المتقشّف قبل أن تغادر بصغيرها النائم، لقد قرأ مسروط الفاتحة عدداً لا يحصيه إلا من احصى ذرّات الرمال، وقطرات الغيث الهامي على زروع الشيوخ، وسقوف البواري والطين لفلاحين ورعاة أغنام منهكين، قرأها على ميتين يتقاطرون تباعاً الى مقبرة الوداعة، قبل أنْ يحين موعد رحلتهم الطويلة والشاقّة الى مقبرة وادي السلام في النجف حيث يدفنون نهائيّاً، قرأها لعقد قِران المعرسين، ولشفاء المعوزين، قرأها في صلاته وقبل النوم وفي اليقظة الأولى مع صوت ديكة يحتشد من كلِّ الأسيجة والحيطان في القرية مرتفعاً بآذان واحد.

كانت بصقته شفاءً، وصفعته شفاءً، ضغطة قدمه الخشنة المفطرة شفاءً، وزجره شفاءً، عصاه.. أقدم صيدلية في العالم!

تمسّد قسمة على رأس حلوم ذي الخصل الذهبيَّة الملتفَّة وتُكْمِلُ: كانت رؤيته تذهب الغمَّ والكمد، وجهه يغسل الأرواح من

...اهما، لذلك كان جدُّك كشاش حين تمرُّ به أوقات عصيبة، ولا
... من ناصر أو معين حوله يقترب من بركة أو أيِّ صفحة ماء وينظر
... وجهه مليّاً ويقضي ساعات على هذا الحال ثمَّ ينهض وقد سكنت
...حه وهدأت لواعجه، لأنَّه كان كما يقول يشبهه تماما، كان كشاش
...به جدّه مسروط كأنَّهما حبَّة مقسومة على نصفين.

- ١٦ -

في أوثق الأخبار، أنَّهم استقلُّوا القطار الصاعد من الجنوب باتجاه بغداد بمتاعهم القليل، مصحوبين بفكرة غائمة عمّا سينتظرهم هناك. انحشرُوا مع بعض كالحيوانات، مخلوطين مع صرر ملابسهم وأشيائهم، وحين صَفَّرَ القطار معلناً بداية انطلاقه، تنفَّس الجميع الصعداء وحمدوا الله وشكروه، فكأنَّما هذا الصوت الذي أصدره الوحش الحديدي الهادر، قد حجبهم نهائيّاً عن الرعب الذي يلاحقهم من خدم الشيخ وعبيده.

يزرع كشاش عينيه في شقِّ نافذة ترسم حقولاً هاربة، نخل يتدافع وراء بعضه مبتعداً نحو الجنوب، بيوت طين هاربة ومساحي وأراضٍ متشقِّقة تتلاشى خلف صوت الحيوان الحديدي الذي يعلك من دون هَوادة كلَّ شيء في ذهن كشاش. تنوح الأمُّ في بكائها الخفيض وترتل أشعارها في الأب الذي أودع في مقبرة الوداعة، وتركوه هاربين قبل أن ينقلوه الى وادي السلام. تستمرُّ في نواحها وهي تحضن ابنتيها الصامتتين، حتى يسكتها النعاس أخيراً، فتغفو أمام عيني ابنها اليابستين، وتشحب الأراضي خلف فُرْجَة النافذة حتى يغرقها السواد، وتغدو سواداً يدفع بعضه.

في الأعوام التي تلتْ هذا الهروب، سيتذكَّر الناس الذين بَقُوا

في القرية هناك ولوقت طويل، كرامات المُلّا مسروط، ثمَّ تتوالى الأخبار عن روحه المتجوّلة بين الحقول والبساتين والكرامات التي يصنعها أمام الناس البسطاء. ينهض شبحه في إحدى الليالي ليغرس عصاة ابنه فرج الغليظة في حلق أحد الشيوخ المتجبِّرين ويحطم فكّيه، لقد عرف الناس ذلك حين أخبرهم أحد الوجهاء الموثوق بهم أنَّه رأى في تلك الليلة المُلّا مسروط وهو يسير بعصاته المباركة وقد تضرج أعلاها بالدم، ويحثُّ الخُطَى بين النخيل مجلّلاً بهالة من ضوء. وفي لحظة انتبه الملّا مسروط الى السيد الوجيه الموثوق بكلامه، فاقترب منه ناظراً اليه بحزم، ثمَّ ضرب بعصا ابنه الأرض، وقال كأنَّه يبلغه برسالة: «هنا.. المغيسل مالي». ثمَّ لم يلبث أنْ انشقَّت العتمة وابتلعته.

- ١٧ -

يرفع حلمي دشداشته قليلاً لِيُرِيَ نادية رُكْبَته التي أُجريت لها عملية، تشعر نادية ببعض الحرج حين ترى ساقي ابن عمِّها البيضاوين بوبرهما الخفيف، لكنَّه يستمرُّ يشرح ببراءة كيف كان على شفا أنْ يفقد ساقه اليسرى لولا العملية المعقَّدة التي أُجريت له في المستشفى العسكري الاميركي، إنَّه الآن لا يشعر بأيِّ ألم إلّا عندما يقفز أو يحاول الركض، ألم بسيط قيل له إنَّه سيختفي مع مرور الوقت، لكنَّها تفكِّر مع نفسها وهي تنظر اليه إنْ ألمها لا يتوقف، إنَّه ألم خفيف وبسيط، ولا ينبثق في كلِّ الأوقات، ولكنَّه يأتي بالحرقة نفسها، خصوصاً حين تراه، تنهصر معدتها وترتجف يداها. لم ترتكب هي أيَّ ذنب لتَجْنِي ذلك، إنَّهم هم من وضعوه أمامها منذ انْ فتحت عينيها على الحياة، لذا لا تستطيع الآن أو في أيِّ وقت آخر

انْ تحوِّل عينيها الى جهة أخرى، إنَّها ببساطة تهيم به. كانت فيما مضى تجلس مع أمّه تبكي لبكائها، وتجلس مع الجدَّة لتبكي شوطاً اخر حزناً على فراق حلمي، كانت تريد أنْ تبكي ما استطاعت الى ذلك سبيلا. وخجلت حين عاد من أنْ يدرك ضعفها لو وقفت أزاءه.

لكنَّه يتكلَّم معها مثلما يتكلَّم مع سناء أخته، مثلما يتكلَّم مع أمّه وجدَّته، كانت عيناه على الدوام تختلجان بصور وأطياف بعيدة، إنَّها تشعر بذلك، على الأقل منذ الليلة التي سمعت بها كلامه مع أبناء عمّه في غرفة الاستقبال عن تلك الممرّضة السمراء التي كانت تعتني به طوال أشهر رقاده في المستشفى العسكري الاميركي، كانت كلماته عن الممرِّضة هي نفسها التي رغبت بسماعها منه، من دون جدوى.

وماذا يعني هذا الأمر في النهاية؟ لن يستطيع رؤية تلك الممرِّضة ثانيةً حتى الموت. وقد أصبحت من الماضي، ثمَّ أنَّه لم يقل شيئاً، قال إنَّها كانت خارقة الجمال! وتلمس بدنه بعذوبة، وإنَّه أدرك بأنَّها تحبُّه، وقالت له ذات يوم إنَّه انكليزي، وليس من شيء آخر!

«وهل هذا قليل يا نادية فكُري؟» تقول صديقتها السمراء عبر الحائط وقد زجَّجت حاجبيها وطلت وجهها بكريمات لتبييض البشرة. تزمُّ نادية شفتيها ويغيم وجهها مستغرقة مع كلمات صديقتها. «أنت گيمر مال الله» تحول الصديقة الضاحكة الموضوع قارصة وجه نادية الطري والخالي من المساحيق.

«القريب يضيِّع البعيد» تقول الصديقة ثمَّ تغمز بعينيها المكحولتين. «إللي ما يجينه.. أنروحله» تكمل الصديقة قارصةً نادية من ثديها الناهد، فيتدفق الدم في وجهها خجلاً. وتشرع الصديقة بإخبارها عن فلان بن عِلّان الذي (تَشَعْوَطَ) حين رآها [أي الصديقة]

وفقد رشده، بسبب علبة مكياج رخيصة وضحكة صغيرة. ترفع الصديقة قذلتها الحمراء المدلّاة على جبينها بحركة غرور طفولي، ثمَّ تقرر أمام نادية بتسليم ودراية: «شنسوي عيني.. أحمر واصفر واخضر.. يالله تجي القسمة».

ـ ١٨ ـ

يتحرَّك الشاهين صاعداً امام دفعات الهواء الدافئة، من دون أنْ يثني جناحيه العريضين، وعيناه تتصيدان الفَخَاتِي والعصافير في الأسفل. يسكن في حركته، ويلبثُّ في ذلك للحظات وكأنَّه مسمَّر في مكانه الشاهق. ويتناهى الى سمعه الرهيف نباح ضعيف لكلب على احد الأسطح. بيوت واطئة ونخلات في باحات البيوت تَنْفَرِشُ مثل مروحة دائريّة بسعفات ذات لون داكن، وطيور تدور في الأسفل دورات واطئة مخذولة قبل أن تحط منهكة على الستارات الحجريّة، أو بجوار أبراجها المصنوعة من الطين والچينكو، دجاج وحمير وعربات امخضر، وبقع مائيّة عريضة تعكس لون السماء، نساء يغسلن الملابس في طسوت معدنيّة قرب الحنفيات وأخر واقفات أمام الدكاكين، أطفال يركضون ويملؤون الأزقة، وفتيات على الأسطح بأثواب زاهية، فتاتان تتكئان على حائط يفصل بين سطحين، وإحداهما تحرِّك يديها أثناء الكلام، وبين لحظة وأخرى تقرص صاحبتها. وفي الزقاق شاب أشقر يطوي كتاباً في يده ويسير باتجاه الشارع، يدعك راحة يده لأنَّ احداً ذكره في مكان ما. تغادر الفتاة الخجلة الحائط وترفع الملابس من حبل الغسيل، ثمَّ تنزل درجات السُّلَّم الحجريّة الى ساحة الحوش المبلَّطة بالخرسانة، تكلِّم أمّها ثمَّ تدخل بالملابس الى إحدى الغرف، بينما يصل الشاب

الأشقر الى محل رزاق الأمير عند ركن الزقاق المواجه للشارع. يحيي رزاق قبل أنْ ينحرف بسيره متجهاً الى سوق الحراميَّة.

تفتح الفتاة التلفزيون، وتجلس مرهقة، وترى كاظم الساهر يخوض في الماء.

- ١٩ -

لا يضيع القريب البعيد، ولا نستطيع الذهاب للذي لا يأتي إلينا. يفكِّر حلمي بذلك حين يراها تنبثق في أحلامه، فتوقظ رغبته النائمة، تمسِّد جسده العليل وتُقَبِّلُه فيشبُّ اللهب في أعماقه، يستيقظ ليجد أحمر شفاهها على ذراعيه، على بطنه ورقبته، فيسارع الى مسحه خوفاً من أن يكون الأمر حقيقيّاً. لقد كانت راقدة في مخيلته كشبح امرأة حنونة، ثمَّ لملمت أشلاءها شيئاً فشيئاً، وانبثقت من رقادها الطويل والغائم في روحه نهار ذلك اليوم، حين دفعت باب غرفته البيضاء مع ثلَّة من الممرضات، توزعن بين أسِرَّة المرضى، واقتربت هي كما اراد ذلك، بخطوات موقعة على البلاط الصقيل، وابتسامة تضيء وجهها، وقفت أمام سريره وقبل أنْ يشهق كانت قد قبضت على يده وحرَّكتها ثمَّ تأكدت من أنبوبة المغذِّي، ومسَّت جبهته، ضغطت براحتها على رقبته ووجهه، فأحَّس بأنوثة الأرض كلِّها تتسرَّب اليه من يدها الدافئة.

يعبر الشارع باتجاه بسطات الخردة وسط سوق الحراميّة، ويتحسَّس رقبته قبل أنْ يسعل، كيف له أن ينسى تلك اليد؟ مازالت مساماته تتعرَّق برائحتها، يتذكَّرها وهي تساعده على النهوض من السرير والذهاب لقضاء الحاجة. يااللهول.. كان يضع ذراعه حول عنقها، كان أقرب الى كونه يحتضنها في عدَّة أوقات خلال النهار.

- ٢٠ -

ازدادت سمعة الضريح الذي أقيم على (امغيسل) مسروط بريقاً، بعدما تزايدت كراماته وهـو ميت، وتصدَّى احد الميسورين لتجديد جدرانه الطينيّة التي بناها قبل سنين بعيدة ذلك الوجيه الموثوق بكلامه. واستمرَّت النساء يتوافدن اليه من مختلف القرى، يلطّخن حيطانه بالحناء، ويشعلن البخور قبل أن يغادرن مجبورات الخاطر، بوجوه غسلها الدمع على أمنيات لم تتحقَّق ورجاء كاد انْ ينقطع. ولم يعد أحد معنيٌّ بذكر عصا فرج الحرامي التي قتلت الشيخ. لأنَّ أباه مسروط هو من كان يحملها، بل شكّك الكثيرون في أن يكون لمسروط ابن حرامي.

في هذه الأثناء كان حفيده كشاش قد عمَّر بيتاً جديداً، ولكنَّ هناك في منطقة العباسيَّات في وسط العاصمة على مبعدة من البلاط الملكي، قرب بيوت مشابهة لمهاجرين قدماء يرتبط معهم بنسب قرابة بعيد.

اشتغل كشاش في بدايـة مقامه حمَّالاً، ثمَّ في أعمال تنظيف وحفر، ورغم رهافة عوده ورقَّة بدنه، تحمَّل راضياً هذه القسمة، ففي النهـاية أمّا أنْ يزداد صلابة، أو يتحطَّم، وما من حلٍّ آخر. ثمَّ انتهى به الأمر ليثبت كعامل بناء، يستيقظ مع الأذان ليصلي، ثمَّ يذهب الى عَلَاوِي الحِلَّة حيث يتجمع امام سينما قَدْرِي العمال والخَلْفَات بعُددهم وأدواتهم، ويذهب مع أيِّ خَلْفَة يناديه. استمرَّ أعواماً على هذه الحال، حتى ترقَّى الى (مساعد خَلْفَة) ينشر الاسمنت ويتلقَّف الطابوق. وحين وضع المهندسون الأساسات لقصر صالح جبر، دخل الى موقع العمل بمالجه وخيطه وشاقوله وقبَّانه مثل أيِّ خَلْفَة محترف. كانوا يسمُّونه (كركوز) أي الانكليزي، وكان هذا يبعث

السرور فيه، خصوصاً آخر ساعة من النهار حين يسمع ذلك وهم يسلّمونه أجره كاملاً.

في تلك الأيام كانت أمّه تذهب كعادتها مع نساء الحي الطيني لجلب الحطب، أو الى ضفّة دجلة لجلب الماء. وعادةً ما يكون ذلك في وقت معلوم خلال النهار. يقتربنّ من ضفّة النهر المتدفّق ذي الأمواج الشفّافة، ويملأنّ أوانيهن، ويستغرقنّ أثناء ذلك بالأحاديث المتشعّبة. وفي يوم أخبرته أمّه إنّها شاهدت ذات صباح فتاةً كأنّها فِلْقَة القمر، تملأ عند شريعة النهر، وحين سألت عنها قيل لها إنّها بنت مهاوي، الرجل الضرير الذي بيته في وسط زقاقهم. كانت صلبة العود، ممشوقة القوام، وهذا ما يستفزُّ الناظر، وتذكّرت أمّ كشاش حين شاهدت هذه الفتاة ذلك اليوم البعيد الذي آذن بارتباطها مع فرج بحبل متين، حين كانت خارجةً من أحد البيوت ورفعت وحدها، وهي البنت الصغيرة، شِوَالاً كبيراً عند الباب مليئاً بالحبوب. لمح الملّا مسروط من المضيف المجاور هذه الفتاة القويّة، وهي تسير بجسد مستقيم لا انحناء فيه رغم حملها الثقيل، ثمّ سأل أحد الجالسين بجواره عنها، ولم ينته ذلك النهار، إلّا وهي مخطوبة لفرج ابن الملّا مسروط.

في إحدى العَصَاري، وإذ كان كشاش يتمشّى قرب النهر مسترخياً وهو يطقطق بمسبحته، شاهد الحاج مهاوي يسير بتؤدة وتعينه فتاة ناحلة بيضاء البشرة، فشعر في الحال أنّها من كانت أمّه تتكلّم عنها وتلحُّ في ذكرها أمامه. ارتجفت المسبحة في يده، وتدفق قلبه بفيض من الشفقة للرجل العجوز المتهالِك. فكّر طويلاً بحاله لو وصل الى هذا السنّ. وبعد ليالٍ انتبه الى أنّ الصورة لم تغادر ذهنه، وأنّ سيول الشفقة والحنين لم تتوقف لديه، وأنّها على

الحقيقة لم تكن موجهة للرجل الضرير بالذات، وإنَّما الى ابنته الناحلة.

ـ ٢١ ـ

الشفقة، هي من حرَّكت كشاش نحو قسمة، وهي ما تحتاجه نادية الآن. ترى ابن عمّها شارد الذهن يقرأ في كتبه القديمة، أو يخرج صباحاً، ولا يعود إلّا وقت العشاء، يلعب الطاولي مع محمد في بيتهم وتقدّم له الشاي، تهصرها الفطريّات في المعدة، فتلتقم حبَّة دواء خضراء وتشرب الماء. ترتجف أمام التنور الطيني حين تلفحها ألسنة النار المتصاعدة، ثمَّ تجلس بجوار إنْجَانة العجين للحظات.

قال إنَّه وجد عملاً في معمل لصب الزجاج المعاد، لكنَّ أجرته غير مجزية، ربَّتَ الأب ذو الصلعة المملوحة على كتفه وقال، إنَّ المهمَّ هو أنْ تعمل في أيِّ وظيفة، ليس مهمّاً مقدار الأجر الآن.

أقنعته حجة أبيه، وباشر في عمله، لكنَّه بعد مدَّة اكْتشف أنَّ (الآن) استمرت معه لوقت طويل. فكلُّ لحظة مرَّت عليه بدت وكأنَّها (الآن) الذي تحدّث عنه أبوه. لكنْ، ما جدوى (الآن)، إنَّه ليس شفّافاً بما يكفي لرؤية شيء أبعد منه، إنَّه مثل جدار معتم وصلد، يتوزع بين الجهات كلِّها.

اشتغلَ في العَمَّالة ليوم واحد، فتصلَّب جسده أسبوعاً. جلس في المقهى وعقد صداقات (رجوليّة) مع شباب المنطقة، وهي كذلك لأنَّ الحديث الدائم بين هؤلاء الأصدقاء هو عن النساء. يستمع لمغامرات أصدقائه الرجال. ويخسر في الدومينو دائماً، (ولماذا لا يخسر مع هذه اللعبة أيضاً).. يقول ذلك ـ بالنيابة عنه ـ أحد الأصدقاء الرجال بيأس قاتم مغلَّف بابتسامة ضائعة. يتأخَّر في

العودة الى البيت حتى ينام الأب، وتتعب الأمّ، فتُقَدِّم له طعام العشاء صامتةً، إنَّ عمل البيت أرهقها، ولا تريد الاستعانة بابنتها سناء كلّما ألمَّ بها تعب. تريده أنْ يتزوّج ويُخَلِّصها. هل في الأمر معجزة ؟ يلوك طعامه والتلفاز يعرض فيلماً أجنبيّاً عن شخص يقتل زوجته ليلة زفافهما، وتسترخي ملامح وجهه حين يحمل الزوج عروسه باكياً. لكنّها كانت بداية الفيلم، أو أن الخطيب يحلم قبل ليلة زفافه، والأمّ صامتة، في الفيلم، وبجوار حلمي أيضاً، كأنّهما ننتظران قدراً يتكشَّف ببطء ثقيل، يقرأ في كتابه الممزَّق حكايةً أخرى قبل أنْ يداهمه النوم، فيسكت عن الفكر المستباح بشؤون كثيرة. دوامة كبيرة تبدأ من الآن وتنتهي اليه، يتنقَّل بين الأشغال والأعمال والتسكُّع والدومنة والاصدقاء العابرين، ويمرُّ بشيوخ منتفخي الوجوه خلف زجاج مبرَّد، يذرع الشوارع ليلاً أو نهاراً، وحين تلدغُه ساقه اليسرى بألم مفاجئ يتوقف، ليجعل الناس تمرُّ من أمامه، بسُحَن وطبائع متباينة، ولكنَّهم متحدون في مغادرتهم (الآن)، هكذا يفكِّر حلمي وهو يقبض على النقود التي لا تلبث في يده طويلاً. ليبدأ مع كلّ صباح من نقطة الانطلاق نفسها، من (الآن).

ذات ليلة فتح كتاباً شعريّاً ، فوجد في الصفحة الأولى جملة مقتبسة من (الاوبانشياد) الهنديّة، فعَدَّها خلاصةً مناسبةً لحياته:

«أنْ تبدأ .. هذا كلُّ ما لديكَ»

ـ ٢٢ ـ

[سأبدأ إذنْ من جديد، فهذا كلُّ ما لدي أنا أيضاً، أضع رقماً جديداً، وأشرع بالحياة نفسها، أُعَرِّفُ الصباح والظهيرة، وأمحو

أسماء الليل كلّها، لكنّي أدخل فيهم تباعاً، مثلما هو عهدي دائماً. أنظر الى الشُّبَاك بجواري، وأرى من خلاله الصباح بشمسه الغائبة وراء غيوم شفيفة، وترد الريح الباردة حافّة الرقعة الورقيّة التي سددت بها ثقباً في زجاج النافذة، حاملةً البرد الى عظامي، قبل أن أنتبه إلى أنَّ هذا يتكرَّر منذ أمدٍ يصعب تذكُّره، فلْتتغير أيُّها الجسد إذنْ، تثقَّف بأمدوحة البرد، تنعَّم بالارتجاف، ولكنْ عبثاً أُملي عليك ما لا يثبت أو يمحو. إنِّي ارتجف فقط، مرَّة أولى تكرِّر نفسها الى ما لا نهـاية، وأنا المخنوق بهذا الإدراك لا أنتَ أيُّها الجسد.]

ـ ٢٣ ـ

أرتجف من البرد، بينما حلمي يتقلَّب في فراشه الدافئ. يدعك وجهه ثمَّ يرخي يده على الجانب الخالي من الوسادة، فينتبه، يفتح عينيه، ويستوحش للحظة من العتمة الشفيفة لساعات الفجر الأولى، ينهض من رقْدَته، ورأسه مشحون بصور أشياءٍ كـأنَّها غادرته قبل قليل، يقترب من المرآة البيضوية المعلّقة بإطارٍ مزخرف من السيراميك، ويشعل الضوء، وحين يرى وجهه، ترتفع في بلعومه غصَّة ثقيلة، ولا يعرف ما الذي يفعله. كانت أجزاءً من وجهه ورقبته، ملطَّخة بأحمر شفاه. دعكها بردّة فعل لا شعوري تحت وطأة خوف أو قلق مفاجئ، وتنبَّه الى امتلاء مثانته، نظر الى جانبي وجهه، وتأكد من مسح آثار الأحمر الدامي، ثمَّ سارع الى الحمام. حين خرج سمع صوت جدَّته قسمة وهي تصلي في غرفتها. لقد تعوَّد على صوتها المتجرِّح، حين تنتهي من الصلاة في أيِّ ساعة من الليل أو النهار، فترفع يديها وتَلْهَجُ كـأنَّها تستغيث: «ياالله.. يا الله.. يا الله..». تكرِّر ذلك آلاف المرَّات بإلحاح يفْطر القلب ويبعث الرعب

في الوقت نفسه، حتى ليكاد من يسمعها يتحسَّس نُذُرَ القيامة، وهي نوشك بالسطوع.

يعود لفراشه، ويتلفلف بأغطيته الدافئة من جديد، يغمض عينيه متناسياً هواجسه، ويسحب ذلك الشهيق اللذيذ، الذي لا يكون إلّا عندما تدبُّ سيول الدفء في أرجاء الجسد المبْتَرِد، ويفكِّر قبل أن يخمده النوم. أنَّ صورة امرأته أقرب من أنْ تكون متخيَّلة، لقد كانت هنا قبل قليل، وتمرَّغت بجسده الملفوف بالعتمة، جعلته يلمس لمس اليد أنَّه أكثر من شخص، وأنَّها واحد على الدوام. ثلاثة أو أربعة، كلٌّ بقلقه وهواجسه يتمازجون مثل كتل هلاميّة لا لون لها، وهي تتلوَّى بينهم، وتأيض بأنفاس لاهبة، ثمَّ تشهق فيفتح عينيه، مثل مَنْ أيقظه ضمٌّ شديدٌ لأجزائه التي بعثرها الحلم.

ولكي يتذكَّر ما ألمَّ به، ينظر/ أنظر الى الأجزاء الماضيّة من حصته الزمنية في الحياة، أو فصول حكايته في سجلات ذاكرة تتخيَّل نفسها، ذاكرتي، أو مخيلته، أو بالعكس، أعني كليهما، إنْ لم يكن للأمر كلّه من ضرورة في إثبات شيء، أنظر/ ينظر، فيرى أنَّه الأمر نفسه يحدث مرَّة أخرى، يتأخَّر قليلاً أو كثيراً ، لكنَّه سرعان ما يحدث، إنَّه أنتِ يا نود، المرض الذي لن يُشْفَى منه، أسميك فتنبثقين من جديد، وكأنَّ شيئاً لم يحدث قبل بدايتك الدائمة.

ـ ٢٤ ـ

يجلس في غرفة الاستقبال. في الحقيقة، هو مستلقٍ الآن وتحت رأسه وسادة مطويّة، ويقرأ في كتاب سميك ذي ورق أحمر. لقد ترك العمل في محْلَج القطن قبل يومين، لأنَّ المكابس الضخمة كادت تسبِّبُ له صمماً أكيداً كما يقول، فضلا عن نُتَف القطن

الصغيرة وتلك التي لا تُرى إلّا بصعوبة وهي تملأ الهواء حول العاملين، والتي ستُسَبّب قبل نهاية الشتاء بإصابتهم بالربو جميعاً. بالطبع ما عدا مدير المعمل والخُلّص من مساعديه الذين يحتجبون خلف مكعب من الزجاج والالمنيوم في الركن القريب من باب القاعة الواسعة. لا يدري لماذا تذكّر وهو يخرج آخر النهار، بعد أنْ تسلَّم أسبوعيته، تلك النشْوة المشْكوك فيها التي يقال إنَّ جدَّه كركوز كان يمرُّ بها حين يسْتَلِم يوميته من شغله في (العَمَّالة). ولم يعرف أيضاً لماذا انبثقت في ذهنه حين سلَّم على صاحب المَخْلَج قبل خروجه، صورة وحشيّة يظهر فيها صاحب المَخْلَج السمين وقد حطَّمت فكّيه عصا غليظة.

كانت أسبوعيته الأخيرة، ولم يعلم أحد غيره بذلك، طوى كيس ملابسه، ومن دون مؤثرات دراميّة أو وداع للمقرَّبين من شركائه في الحلج، قصد الباب بخطوات بطيئة. لم يلتفت بنظرة أخيرة، لم يرد - والصداع يأكله - أن يحتفظ بأية صورة عن هذا المكان. كان يريد أنْ يبدأ من جديد، وكأنَّه لم يطأ هذه الأرض سابقاً.

يُقلِّب صفحات كتابه السميك المهترئ ويتناهى اليه لغط الوالد. الذي يرتفع صوته بنبرة حادّة مختنقة ثمَّ ينخفض، وكأنَّه ينزع الكلمات من أحشائه، أو كأنَّها ملتصقة بمادة لزجة في سقف حلقه، ولا يميّز حلمي ما يقوله الأب، لكنَّه يشعر أنَّ (الآن) قد انتهى! فقد نبَّهه أبوه قبل يومين الى ضرورة أن يقتصد في مصاريفه، ثمَّ سأله عن عمله في المَخْلَج، وكرَّرت أمّه على مسامعه رغبتها في أنْ (يَلِمَّ) نفسه، ثمَّ صرحت له بنواياهم اتجاه (نادية)، «أنت بس گول يا الله ومالك شغل.. قابل هُمَ اللي أتزوجو أحسن منك لو اغنى منك؟».

كان في العادة يستمع لكلمات أمّه بصبر ريثما تُكْمِل، ويواسيها

ويطمئنها على مضضٍ، ثمَّ يسلخ كلَّ شيء من رأسه مثل ضماد لجرحٍ غير موجود.

يقلِّب صفحات كتابه الأحمر بعناية، ويحوِّل ساقه مثل دفَّةٍ باتجاه فُرْجَة الباب المشعَّة بالنور المنعكس للشمس على أرضية الحوش الخرسانيّة ذات اللون الرمادي الباهت. تدخل سناء ونادية، عائدتين من السوق وتخْطُران من أمام باب الغرفة، وتلتفت نادية وكأنَّها تعرف أنَّها ستجده مستلقياً يقرأ، ثمَّ تعود الى حديث سناء معها، متشاغلة بذلك عن هاجس غير مفهوم يتحرَّك مثل جنين في أعماقها.

مازال مستغرقاً في القراءة. لقد حصل على هذا الكتاب الذي بين يديه هديةً من ناجية المخَبَّلَة، مرَّ على بسطيتها قبل يومين، وشعرها الخارج من فوطتها يَبِيْنُ من آخر الزقاق مثل سنابل نبات غرائبي. اشترى منها حبَّ عين الشمس ملفوفاً بقرطاس مخروطي، وحين دَلَقَ البذور السوداء في جيبه، سارع الى فتح القرطاس، وهو يُكَرِّزُ، ليجد أنَّه الليلة الثالثة والعشرون بعد المئتين من ألف ليلة وليلة. طوى الورقة في جيبه، ثمَّ قرأها بإمعان في وقت لاحق.. قمر الزمان يستيقظ ويفكِّر بنود، لقد كانا معاً في الحلم، قال لها إنَّه سيستيقظ ويفقدها، فأجابته إنَّهما لا يحلمان، ولأجل أنْ تثبتْ له ذلك نزعت خاتمها وألبسته أيَّاه، ثمَّ أخذت خاتمه ولبسته. وحين استيقظت من النوم سارعت الى يدها ورفعتها أمام عينيها، فوجدت أنْ خاتمها غير موجود.

فيما بعد أخرج قمر الزمان لفافات من أوراق وصحفاً قديمة، وذهب الى ناجية، وساومها على استبدال الكتاب الذي بين يديها بهذه الأعطية الثمينة. اشترى منها أربع قراطيس حَبّ، ومنحها

الورق لتلفَّ به بدلا من صفحات الكتاب، وأعطته بوجه عابس متردّد الكتاب، وشيعته بعينين ملؤهما الاتهام.

ـ ٢٥ ـ

قال له جميل گيطان إنه يعمل في شركة لصناعة الحلويات، في منطقة جميلة عند بداية المدينة ، إنَّ دوامه يبدأ من السابعة مساءً وحتى السابعة صباحاً. دعك جميل وجهه متثائباً، ونظر الى ساعته اليدويّة وقال إنَّه استيقظ منذ ساعتين فقط، وسيذهب الى الدوام بعد قليل، إنَّه عمل مرهق. انحنى على الطاولة الخشبيّة وتحرَّكت أحجار الدومينو المبعثرة فوقها، وانصت الى شكوى حلمي، ثمَّ قال جميل باهتمام: «هناك شَفْتَان صباحي ومسائي، بإمكانك أنْ تعمل في الشّفْتِ الصباحي، أنا أيضاً سأنقل دوامي على الشّفْتِ الصباحي، لقد تعبت من السهر، إنَّ أجورهم جيدة، لكنَّ عملهم مرهق . . لا تقل إنَّني لم أنبّهك منذ البدايـة؟». غير أنَّ حلمي لا يكترث لهذه التفاصيل كثيراً، لأنَّ القضيّة الأسهل في الموضوع كلّه، هو تركه للعمل متى ما شعر بالصداع، أو تذكّر صورة مخيفة تتأرجح في ذهنه: جدّه كشاش على سرير الموت. والمالج والخيط والشاقول والقُبَّان تتآكل كلُّها في خَرَاج الجدّ القماشي الحائل، بإيقاع مع أنفاس احتضاره. من أجل ذلك وافق حلمي على العمل من دون تفكير كثير.

يكاد حلمي أنْ يتداعى ـ من دون أنْ يعرف ذلك ـ تحت مطرقة الأمّ وسندان الأب. طرقات حنان خفيفة، ورجوليّة أب أخّاذة ، يتسربل بها رويداً رويداً، ليذعن لهما، وهـو يظنُّ أنَّ ما يريدانه انبثق في رأسه أولاً، يوهم نفسه أنَّ خاتم نـود الذي تلقّفه في الحلم، كان قد أخذه من جدّته قسمة، كآخر إرث غير معلوم من العائلة، لجدّه

الذي تخلّى، بسبب الجصّ والاسمنت، عن لبس الخواتم منذ أمد ،مبد. سوف لن يراها ثانيةً حتى الموت، كما تقول نادية لصديقتها السمراء، وأقول . . إنَّها مثل سمكة لا تستطيع مغادرة الماء، لا ينبغي لها أن تغادر مخيّلته/ ذاكرته، لِتَلْبُطَ بزعنفتها الذهبيّة العريضة على الرصيف أمامه. لأنَّه في آخر الأمر لا يقوى على الدخول وراءها، الى مسكن الحوريّات في أعماق الحكايا، كما يقول الكتاب المتهرئ بين يديه.

يخبر أمّه أنّه سيعمل في معمل للحلويات، فتجيب الجدّة من مكانها قرب موقد الشاي، إنَّها ستترك غرفتها قريباً، ستذهب الى بيت ابنها الكبير المجاور لهذا البيت. ولا يفهم حلمي شيئاً. والعائلة كما هو حاله، تتوهّم هذه الأيام أشياء كثيرة، منها . . أنَّ الجدّة ثقيلة السمع، أو أن المقترحات التي يتداولها سالم مع زوجته أشياء نهائيّة، وبالذات قضيّة الغرف الثلاث في البيت، والأثاث المخلَّع والمتكدِّس، وغرفة الجدّة التي هي أيضاً شيء يشبه مخزنَ المؤن. لقد توهّمت الجدّة أنّهم يستحون من إخبارها برغبتهم بأنْ تُخْلِي الغرفة من أجل زواج حلمي، وتوهّم حلمي أنَّ صمت أمه هو نسيان لموضوع نادية وغير نادية، لكنَّنا حين نطمئن أنَّ خطة اللعب سارية بانتظام، نعود الى مقعد المدرِّب، ونصمت أو نطلب لِبَاناً لِنَعْلِكَ. لقد توهّمت الأم أيضاً أنَّ ابنها يسير حسب الخطَّة التي اختطَّها قدر ما، يوم ولادة نادية.

أما أنا فقد توهّمت أشياء كثيرة يصعب حصرها، منها أنَّ الكتابة ستساعدني، ستبطّئ الزمن الذي يلاحق نفسه، ستؤخِّر خروجي من هذا المكان، وتفصلني عن لغط المحيطين بي، الذي لا يشبه سوى خُوار الحيوانات المحبوسة.

ـ ٢٦ ـ

[لقد كنتُ جرذاً
أسودَ،
لذا لم أشأ أنْ تراني الأميرة.
أتحرَّك في المَجْرُور
وأنام على أهجية طويلة للشمس.
أنَّ الأميرةَ تساوي الجرذ
والنور يساوي الظلام بالضرورة..
حين يكون لونك أسود.
أما بالنسبة لي..
فأنا لا أحبُّ هذه الرياضيات
في مسألةٍ تتعلَّق بمصيري الشخصي.]
(كوان شين طاو / ١٤٣٥م ـ وثائق البلاط الملكي (عائلة سونغ).

ـ ٢٧ ـ

كان صديقه عيدان، أيام دراستهما الإعدادية، يحمل معه على الدوام دفتر رسم مليئاً بوجوه فتيات مرسومة بقلم رصاص. أنوف مخروطيّة، وعيون شديدة الاتّساع، وجه كامل الاستدارة، وهناك شَامَة في أحد جانبي الوجه. حين يسأله حلمي كان عيدان يقول: هذه فُلَانة، وهذه عِلّانة. لكنَّ حلمي يرى أنَّهنَّ متشابهات الى حدٍّ بعيد، هناك بعض الاختلافات البسيطة، وكأنَّ عيدان يعاود في كلِّ مرَّة رسم الوجه ذاته. وحين يفصح حلمي عن شكوكه هذه يؤكد عيدان أنَّه يرسم نساءً موجودات على الحقيقة، هذه فُلانة الطالبة في

ثانوية البنات، وهذه عِلّانة جارتهم، وهكذا. لكنَّ حلمي لا يتذكَّر أنّه رأى أيّاً منهنَّ في يوم من الأيام على الحقيقة.

تستمرُّ صور الفتاة الغريبة تتوالى مع توالي فصول الدراسة، ومع كلِّ رسم تغيَّر من جلستها أو ابتسامتها، يكبر الأنف قليلاً أو يزداد فمها صغراً، تغيِّر من تسريحة شعرها، أو لونه، أو تجدله ضفائر شقراء طويلة. وعيدان يؤكد أنّهنَّ نساء كثيرات. وفي مرَّة قال حلمي إنّه قرأ عن رسام قوله (أرسم وجه امرأة .. ثمَّ أنزل للشارع أبحث عنها). فهتف عيدان متحمِّساً: هذا أنا. نظر اليه حلمي وسأله متشكِّكاً: كيف؟ فأجاب عيدان وهو يفتح دفتر رسومه .. أنظر.. في بعض الأحيان تهبط عليَّ نشْوَة غريبة فأشْرَع في الرسم، أرسم امرأة، وحين أتجوَّل في السوق عصراً، أكتشف أنَّ الصورة التي رسمتها تمشي باتّجاهي.

وفي مناسبة أخرى، كانا يقرآن في الحديقة المجاورة لمستشفى الجوادر، استعداداً لامتحانات نصف السنة، أخرج عيدان صورة كهربائيّة لفتاة محجَّبة وعرضها أمام حلمي مزهوّاً وهو يقول: ما رأيك؟ أليست جميلة؟ ثمَّ شرع يشرح له كيف أنَّه كان في دائرة الجنسية والأحوال المدنيَّة، من أجل إخراج شهادات الجنسيّة لأخواته، ووجد على الأرض هذه الصورة. ضحك حلمي وقال له: «ماذا؟.. هل ستنزل الى الشارع تبحث عنها؟». قال له: «لا .. وإنَّما خطرت لي فكرة أفضل .. اسقطت صورتي على الأرض أنا أيضاً».

ـ ٢٨ ـ

يجلس حلمي منهكاً بجوار الكَنْتُور في غرفة أغراض الوالدة،

ويقلّب كتبه ودفاتره المرصوفة في الخانة السفليّة من الكَنْتُور. يخرج دفتر الرياضيّات للخامس العلمي، ويبدأ بتصفحه، كان يملأ الصفحات البيضاء المتبقّية بكتابات مختلفة، ويجد صديقه عيدان الذي يرمز له بحرف (ع) في كلّ دفتر تقريباً أو بين صفحة وأخرى، يقرأ سُخْريته من صديقه والصورة الكهربائيّة للفتاة المحجّبة، ويتخيّل الفتاة تقف مع أمّها بانتظار أن تنجز معاملتها في دائرة الأحوال المدنيّة. تهبط الفتاة بعينيها الى الأرض من دون اهتمام، فترى صورة بحجم الطابع على بعد خطوتين، فيدفعها الفضول لتلتقطها، وتجد أنّها صورة عيدان. إنّها لا تعرف بالطبع أنّه عيدان، لكنّ عاطفة غريبة تتحرّك في أعماقها ما أنْ تحدّق في وجه صاحب الصورة. ويمكن إضافة شيء صغير ليصبح الأمر مسلياً. الفتاة تبحث بعينيها عن وجه صاحب الصورة بين المراجعين، لأنّ أمّها عنّفتها قبل قليل، ووصمتها بأشنع الأوصاف، وتوترت الأجواء بسبب تأخّر المعاملة لأنّ البنت الشاردة أضاعت إحدى الصور، وقد توسّلت الأمّ بالموظفين من أجل تلافي النقص في المعاملة. الفتاة تشعر بالتعاطف مع صاحب الصورة وتهجس أنّه مثلها الآن، يعيش وضعاً محرّجاً بسبب فقدانه لهذه الصورة، تبحث بعينيها وسط عشرات الوجوه، ولكنْ عبثاً.

يقلّب حلمي دفاتره وكتبه، في محاولة للاسترخاء، وإبعاد الإجهاد الذي يعتريه، ويشعر برغبة شديدة لرؤية صديقه القديم، ماذا لو أنّه صادفه في السوق أو في وسط الشارع، في محل لبيع الفلافل، أو عند إحدى الكراجات. سيخبره بشيء يشبه هواجسهما الساذجة المشتركة. سيخبره بما حصل معه هذا اليوم، لقد باشر العمل في معمل الحلويّات، أوقفوه لمراقبة آلة تغليف الشوكولاته،

اسحب بين حين وآخر تلك القطع التي لا تدخل الآلة. فأمضى النهار كلّه واقفاً أمام هذه الآلة الجهنّميّة. إنّها لا تخطئ أبداً، لقد غلّفت كلّ شيء [عليها اللعنة]، وشعر أنّها ستغلّفه أيضاً، وتغلّف العاملين والمعمل، يحتاج لصديقه عيدان الآن ليغلّفه بذلك، أقصد، ليخبره بذلك. سيقول له: «أنت صادق يا عزيزي.. ليس هناك شخص واقعيٌّ على ظهر الحياة، الشخص الواقعيُّ هو الذي يموت ويستسلم للدَفَّان، نساؤك الكثيرات، حقيقيَّات. لقد أسرْتَهن في دفترك مثل جواري، تأخذهنَّ حيثما تشاء، وبهذه المناسبة أريد أن أخبرك شيئاً، لقد رأيت نود في المعمل اليوم، لم تكلّمْني ولم أذهب وراءها لأكلّمها خشيةَ أنْ تُفْلِتَ قطعة شكولاته من التغليف. لكنّني عرفت أنّها تعمل معنا هنا في المعمل نفسه».

رفع حلمي قلمه وتأمل الصفحة التي كتبها ثمَّ أغلق دفتر الرياضيّات ورماه الى عمق الكَنْتُور، وهو يشعر أنَّ قلقاً كبيراً قد أزيح من على صدره، لقد ظهرتْ نود أمامه، لذا ستنقطع بدءاً من الليلة عن زيارات ما قبل الفجر المحْمُومة.

ـ ٢٩ ـ

كانت قسمة امرأة قويَّة، لقد خطبها كشاش لأنَّ أمه تمتدح المرأة القويَّة، لكنَّ المفارقة أنَّ الذي جذبه في هذه الفتاة بالذات، هو ذلك الوهن الذي يذكره بنفسه. أو إذا شئنا الدقَّة، تلك المقاومة الخفيَّة والصامتة لتيارات الضعف الداخليَّة، ذلك الارتجاف الذي يفصل بين المقاومة والانهيار. لقد كان هو أيضاً يعيش هذا الارتجاف، ويرفض مع نفسه، الاستجابة التي يجدها لدى أمّه وأخواته، حين يعود من العمل مهدوداً أو يئنُّ من التعب، إنَّهنَّ

يتعاملنَّ معه وكأنَّه رجل قوي، يقوم بأعمال الرجال من دون أنْ يشعر بشيء، وهـو يريد المواساة، يريد أنْ يعرف الجميع أنَّه يكابد مشقَّة هائلة.

هناك تفسيرات أخرى لانجذاب كشاش لقسمة، لكنَّ هذا التفسير يلائم حلمي، الذي - على العكس - لا يريد امرأة واهنة بملامح حزينة مثل نادية، إنَّما قويّة، تشعُّ بنورها على عتمته، تسنده، أو تقوده، امرأة هو متيقِّن من قوتها، تقف أمامه ثمَّ تقول: «أنت قوي.. أنت رجل». عندها سيرى تماماً أنَّه كذلك.

هناك تفسيرات أخرى لما يريده حلمي، لكنَّ هذا التفسير يلائم الحكاية أكثر، إنَّه لا يريد أميرة، لا يريد امرأة في الفراش فقط، لا يريد ملاكاً من نعومة ونظافة وكسل، إنَّه يريد عاملة، فلَّاحة، منظِّفة، فرَّاشَة، يريد مُلاكمة مثل ليلى بنت محمد علي كلاي، وسبَّاحة بجسد صلب مثل آنوفا باييف، يريد امرأة تحتطب ثمَّ تذهب لجلب الماء، وتقود، عند العصر، والدها الأعمى الى النهر لتروِّح عنه، ولتسمعه رقرقة الماء وأصوات الطيور وحركة الريح خِلَلَ الأشجار، إنَّه يريد (قسمة) أخرى.

ومن أجل ذلك كان يلاحق ببصره ندى أينما ذهبت، يسحبه إيقاع آلة التغْليف، وتختنق أذناه بضرباتها المتتابعة مثل موسيقى جاز من دون كَيتار، بينما عيناه تتراقصان على وجوه العاملات، بحثاً عنها، فيلْمحها تقترب من مكعب كارتوني ثمَّ ترفعه برفق وتسير به مخْتفية وراء العاملات. وجرَّب في فترة استراحة الغداء أنْ يرفع أحد هذه المكعبات استجابةً لفكّرة غريبة راودته، سحب المكعب إليه ورَازَه، وانتابه فرح غريب حين وجد أنَّ المكعب ثقيل.

يفتح دفتر الرياضيّات، ويكتب حرف (ن) ثمَّ يكتب تاريخ

اليوم، ويتخيَّل نفسه يكتب رسالة الى عيدان، سيقول له إنَّه تحدَّث مع نـود ظهر هذا اليوم، أرسله أحد زملائه الجدد ليسخِّن إبريق شاي لدى بعض العاملات، ووجدها هناك جالسة بينهن. وعند السابعة مساءً، خرج الشَّفْتُ الصباحي، ودخل عمال الشَّفْتِ المسائي. مرَّ حلمي من بينهم وهـو يبحث عن ندى، ثمَّ سار مع رفاقه الجدد حتى وقفوا عند رأس الشارع، التفتَ حلمي ورأها تقف مع فتاة طويلة، وذهل حين شاهدها تركب وراءه الى السيارة التي صعد فيها. تحرَّكت سيارة الأتومارس الطويلة، وحلمي لا يكاد يرفع بصره عن رأس (ن) الجالسة قرب الباب. بعد مدَّة وصلت السيارة التي نزل منها ركاب كثيرون الى آخر محطَّة لها قبل ان تستدير عائدة، وشاهد حلمي (ن) وهي تنزل أمام زقاق السادة، فذهل مرَّة ثانيةً لأنَّها نزلت في المكان الذي ينزل فيه عادةً. تبعها حذرا وهي تدخل الزقاق، ثمَّ توقف عند محل رزاق الأمير، مشيِّعاً إيَّاها ببصره حتى انحرفت مختفيَّة عند ركن دكان أبي ناجي.

سيضحك عيدان قائلاً: أتريدني أنْ أصدق أنَّك لم ترَ هذه الفتاة سابقاً؟ إنَّها تسكن بجوارك ولم تنتبه إليها إلَّا اليوم؟ سيمسح عيدان وجهه بكفَّيه ثمَّ ينظر الى صديقه ويكمل بنبرة مختلفة: «سوف لن اصدقك كي أثَّار منك، لأنَّك لم تصدق حكاية المرأة التي أنزل الى الشارع بحثاً عنها».

سيقول حلمي: صدق أو لا تصدق، بكِيْفَك، أنا مرتاح الآن لأنَّ أحداً من العائلة سوف لن يرى بعد اليوم أحمر شفاهها على وجهي ورقبتي.

في لحظة ما من بدايات الربيع، يدفع الملائكة الموكلون بالشمس، وعلى غير العادة، حطباً كثيراً الى أتونها، فتحْتدم بألسنتها اللاهبة، دافعةً إيَّاها نحو الأقاصي التي يذبل عندها الضوء والدفء، وتوزع نعمتها بقسمة غير متساوية على أصقاع الكرة الأرضيّة. تندفع الكرة لتضرب عمود الهاتف المجاور لدكان أبي ناجي ثمَّ ترتدُّ الى حلمي الذي ينظر في منعطف الزقاق، الى حيث تختفي كلَّ يوم زميلته في المعمل. يعود ببصره الى باب البيت البعيد، ويتحسَّس رأسه الساخن، ويفكِّر ثانيةً بالكواكب والشمس والكرة الأرضية، بينما الأطفال يلعبون الكرة في ضحى يوم الإجازة، يشعر بسخونة الشمس غير الطبيعيّة وينتابه ملل من الوقوف، فينادي على ابن اخته مصطفى لكي يكفَّ عن اللعب، لكنَّ مصطفى لا يأبه له، «روح للبيت.. روح اتغده»، يصيح عليه ثمَّ يقترب منه، ويحاول الإمساك به وجذبه لكنَّ الفتى يُفلت منه منزعجاً «شتريد منّي.. عوفني». ينادي أحد الأولاد على باقي المجموعة، «يلّله.. خَل نروح نلعب بالساحة»، فيستجيب الفريقان لأوامره، يرفعون الكرة، ويركضون على اسفلت الزقاق المترب، يصرخ حلمي على ابن اخته ويتقدم باتجاهه، لكنَّه يهرب راكضاً وراء رفاقه. يتابعهم حلمي حتى يخرجوا من الزقاق، ويزفر بضجر. يتمشَّى في الفيء البارد للحيطان عائداً الى البيت، وحين يصل الى الباب الحديدي المتقشِّر يجابهه وهو يدخل عمىً مؤقت بسبب النور الضعيف، وحدَّة انعكاس الشمس على عينيه منذ قليل.

إنَّ مصطفى لا يعرف حجم ما يفعله مع خاله، لقد ذكره بانخذاله، والخال لا يريد أنْ يتذكَّر ذلك كلَّ لحظة. يدخل الى غرفة

الضيوف، ويرى الجدّة جالسة على سجادتها تُسَبِّح، وهي تنظر الى التلفزيون. هل هي ترى ببصرها الضعيف شيئاً من التلفزيون حقًّاً، أم أنّها العادة لا أكثر. تتمتم تسابيحها من دون صوت، ثمَّ تحرِّك عينيها نحو حفيدها تتأمله ساهمةً ثمَّ تعود لمتابعة التلفزيون. يجلس حلمي مادّاً ساقيه، ويتكئ على الوسائد المسْنَدة على الحائط، ويأتيه نباح (جيران) منكفئاً وضعيفاً أشبه بعطاس من وراء السطح، ينظر الى التلفزيون والى جدّته المكوَّمة على سجادتها وتنساب في ذهنه كلمات قديمة لها، كانت تقول إنَّ كلَّ شعاع من الشمس يرافقه مَلَك، من حين صدوره حتى وصوله للأشجار والحيوانات والناس، ويسْرَح حلمي مع الصورة، آلاف بل ملايين لا يمكن عدُّها من الملائكة تهبط سِراعاً وبتلاحق عجيب الى الأرض، «وفي الليل أين تذهب الملائكة؟». يسأل حلوم، فتجيب الجدّة بنفاد صبر: «إنَّهم ينامون.. حتى الملائكة تنام.. انقطع قلبي ولم تنم بعد».

في بداية انتباهته الذهنيّة، اكتشف حلوم أن الشمس نار، ومثلما تنضج النار الطعام، تنضج الشمس الاشياء، عرف حلوم ذلك وحده، ان الزنوج مثلاً هم الأكثر نضجاً بين بني البشر، وبسبب ذلك لم يشاهد حلمي في يوم ما بطلاً في الملاكمة أو الرياضات العنيفة من غير الزنوج، ولقد تأثَّر كثيراً حين سحبوا الميداليّة الذهبيّة من بن جونسون بعد تعاطيه للمنشِّطات، ولم يخفف عليه سوى أنهم منحوها لكارل لويس، الزنجي الآخر.

سيتحدَّث رسول الكاتب فيما بعد مع حلمي عن توني موريسون، الكاتبة الزنجيّة، سيخبره بقصّة تلك الفتاة السوداء التي تنام وتدعو من كلِّ قلبها أن يمنحها الربُّ عينين زرقاوين، وحين تصحو صباحاً تركض الى المرآة وتصاب بالخذلان حين ترى أن

عينيها لم تغدوا زرقاوين بعد. سيسخر حلمي من ذلك، فلماذا هذا الوله بالكائنات العجينيّة؟!

كان عيدان يرفع يديه الكالحتين، مقلّباً إيّاهما أمام عينيه، ويقول لحلمي إنّه تأخّر في الفرن كثيراً حتى (تَشَعْوَط) وخرج الدخان وملأ أرجاء البيت، قبل أن ينتبه الأهل ويجلبوا الدَايَة للأمّ، «أما أنت فما زلت للآن عجيناً»، يقول ذلك لحلمي بخبث، أو ربَّما بحسد، ويلحقها بضحكة داعرة. وفي مرَّة وهما يتجوَّلان في الباب الشرقي خارجين من مكتبة التحرير بنضدٍ من الكتب، وأثناء ما كانا يتكلَّمان، صَفَنَ عيدان بوجه حلمي للحظات ثمَّ نطق بفكرة غريبة على سبيل المزاح: «ماذا لو.. يا صديقي العزيز.. أقول.. لو امتزجْنا معاً أنا وأنت لاصبح كلُّ واحد منا جميلاً». ضحك حلمي ببراءة، لأنَّ الفكرة راقت له وأجابه: «سنصبح حِنْطَاوِيين». وفهم عيدان أن جواب صديقه كان ابتهاجاً وزهْواً بألوانه الناصعة البرَّاقة. ولكنَّ الحقيقة تقول، إنَّ قدحة الخيال فقط هي التي أثارته، لأنَّ كابوسه الذي يسير به والذي يحسده عليه الكثيرون في الوقت نفسه، هو أنَّه فتاة. حتى صوته الرقيق الناعم، يذكّره بهذا الكابوس، وقد فرض على نفسه بسبب ذلك فكرة غريبة، أنْ لا يتكلَّم أو ينطق بشيء قدر المستطاع. صوته جعله في النهاية، يكتب ويخربش ويفرغ لواعجه على أيِّ ورقة يجدها، لن أقول إنَّه فكَّر أنْ يشرب التيزاب أو يدخّن من أجل تخْشين الصوت، لأنَّ هذه الاشياء ستحدث فيما بعد، ولكنَّ الصمت بدا له حينها أنَّه لا يكلّفه الشيء الكثير. بيد أنَّ هناك من يتكلَّم في داخله ولا يصمت أبداً، نبرة خشنة وثقيلة مثل صوت أسد عجوز مصاب بالزكام، يرافقه أثناء النهار، ويفتح قبل النوم باباً لصوته نحو حلمه أو كابوسه. إنَّ مهمَّة هذا الصوت تتلخَّص

بالضبط، في توليف الصور، أيّ صورٍ كانت، إنَّه بارع في نسجها بنسق واحد. مثلاً، الأسطر السابقة، ستحفّزه ليزأرَ بخبث وهدوء في أذُنِ لا وعي حلمي: أنت نبتٌ شيطانيٌّ، الملائكة تنْحرف بمقود الأشعة بعيداً عن بشرتك، أنت تعاني من فقدان فيتامين (دي)، للشياطين عيون زُرْقٌ، هناك امرأة في داخلك، هي من تجذب من يصافحونك ويحيُّونك، إنَّهم لا يفكِّرون بهذه الطريقة دائماً، ولكنَّها الحقيقة.. أنت كَابِيْنَة زجاجيّة تخْترقها الشمس وتغادرها من دون أثر يُذْكَر، أنت كابينة زجاجيّة تتمرْأى من ورائها امرأتك التي هي أنت، يراها الجميع ولكنَّهم يصطدمون بالزجاج.

- ٣١ -

[أنتِ أغصانُ أشجارٍ
تتماوجُ على ضفَّةِ الهواء.
أنتِ عينان ذابلتان مثل لَدْغَةِ الحُبِّ.
أنتِ وَهْنٌ مغلَّفٌ بخشبِ الأسرَّة والموائد.
حلمٌ بالأهوالِ والمصائب.
الرعْشَةُ الحَالمَةُ أنتِ..
حين تنطفئُ السيجارةُ لوحدها
في الظلام.
الظلامُ عبدكِ..
أو عجينكِ الذي تخمِّرينه كلَّ ليلةٍ،
لتخْبزيهِ قرصَ شمسٍ لصباح الغد.
أنتِ سَكْرةٌ
تحرّكُها روائحُ أشجارٍ مبلَّلة.

وهـواءٌ يُقَبِّلُ حتّى الموت
ريشةً تائهة.
أنتِ قُبْلَةٌ مخْمُومَةٌ
تنسى في كلِّ مرَّةٍ.. بلاغةَ الفقدان.
أنتِ خَفْقَةُ الفراغ..
خلفَ زُجاجٍ داكن..
نَذْرٌ يفي بنفسهِ
وأنا ..
أنتِ ،
أو ما تبقى من العالم.]

* كوان شين طاو

ـ ٣٢ ـ

ترفع الصديقة السمراء يديها لنادية من خلف السياج الواطئ ما بين السطحين، وكأنَّها جارية تعرض أساور أسرها، ونادية تطوي الملابس الناشفة في وعاء بلاستيكي مفطّر، مستسلمةً لوهْدَة الروح التي تعتريها عصر كلِّ يوم منذ أنْ بدأت روائح الصيف تهْمِي من بعيد. ينبح حِيوان، وترفع نادية رأسها الى الأعلى، لكنَّها لا تشاهد الشاهين، بل مجموعة من الغربان الملْتَفَّة حول بعضها في الأعالي، تنعق بصوت خافت، وتمتزج كتلها السوداء ثمَّ تفْتَرِق. تنحني نادية الى الوعاء لترفعه، وتسمع صديقتها تسألها: «الماذا لم تحضري لخطوبتي؟ كان عليَّ أنْ لا اكلّمك أبداً يا نادية»، فتجيب نادية من دون أن تنظر إليها: «أمي لم تتركْني أذهب، والله فرحت من قلبي.. مبروك». ثمَّ ينبح حِيوان، ولا ترفع نادية رأسها الى صديقتها.

«شوفي..» تقول الصديقة بلهْفَة، وهي ترفع ذراعيها ثانيةً، فتنظر إليها نادية أخيراً، وهي تتَّجه الى الحائط بينهما، تضع الوعاء البلاستيكي على حافة الحائط، وتستسلم لثرثرة صديقتها.

«المذهُور.. كان يرتجف وهو يُلْبسني الحلْقَة»، قالت الصديقة السمراء مرخيةً خدها على يدها المحْنَّاة.

ـ وانت؟

سألت نادية بفضول.

ـ آني ما أعرف .. حاولت ادخالها، ثمَّ ارتبكت، فوضعتها في يده واحنيت رأسي خجلاً.

ضحكت نادية من كلِّ قلبها، وخرجت من استغراقها مع نفسها، فبدأت تسأل صديقتها عمّا جرى بينها وذلك الشاب ذي التسْريحة الأنيقة، الذي يشبه كاظم الساهر، وهل خرجت معه بعد الخطوبة.

«ما صارلنه يومين من مخطوبين.. هاي شبيج نادية؟» أجابت الصديقة مسْتَغْرِبة. لكنَّ الكثير من كلمات نادية تبدو وكأنَّها تخرج بآليَّة رتيبة، ومن دون تركيز. وقبل أنْ تغادر السطح، حرصت أنْ تؤكد لصديقتها، أنَّها ستحضر في ليلة الحِنَّة. ولكنَّ نبْرَة صوتها كانت فاترة، فهي في الحقيقة غير قادرة على قطع الوعود المؤكدة لأيِّ أحد، لأنَّ أمّها تحوطها من كلِّ اتجاه «لا تخرجي رأسك من الباب كل شوية» .. «لا تسولفين هواية وية هاي المدهورة» .. «تريدين ياكلون وجهج..؟ ضلي وية سناء.. أني اروح بمكانج للسوگ».

تنزع الأقراط من أذنيها قبل أنْ تنام، وتنظر الى المرآة، كانوا يقولون لها «أنت تشبهين مديحة كامل» فحرصت على أنْ ترى مديحة كامل هذه، واكتشفت فيما بعد أنَّ هذه المديحة تبكي كثيراً،

ويخونها الممثِّلون، وتسرح شعرها بطريقة مثيرة، واستسْلمت راضيةً لمديح صديقتها السمراء التي تقرصها من خديها دائماً: «بوياي.. الگيمر ليش يطلع بالشمس؟» تشاكسها صديقتها فتضحك، لأنَّه متنفَّس صغير، لفتاة مثلها، اكتشفت أنَّ لديها مهمَّة واحدة، انتظار اليوم الذي يدخل فيه رجل ما، ليأسرها بسلاسل ذهبيّة، مثلما حصل مع صديقتها السمراء، ولا يبدو لها، في أفق مصيرها، أنَّ هذا الرجل سيكون حلمي. رغم أنَّها لا تستطيع تخيِّل هذا الاحتمال طويلاً، لأنَّه يرعبها، إنَّها في العادة تتخيَّل شيئاً آخرَ. لا أحد يستطيع، حين تضع رأسها على الوسادة، أنْ يعرفه أو يتكهَّن به، وهي مطمئنة لذلك، فهذا موضع حريتها الوحيد، تغطس رأسها في الوسادة، وقبل أنْ يعتريها ثقل النعاس، تسبح مع صورة تكرِّرها آلاف المرَّات: حلمي بدشداشة بيضاء، يقترب منها، ويرفع بهدوء، داخل العتمة، الأزَار الخفيف الذي تتغطَّى به، ويندسُّ في فراشها، يقترب من جسدها ويضمُّها إليه، وتكون هي ساكنة ومسْتَسْلمة تماماً، يتوقف شريط المخيِّلة عادةً عند هذا الحدِّ، فهي لا تفكِّر بما هو أبعد من ذلك. مجرد ضمَّة شديدة ودافئة حتى الصباح، هذا ما تقتات عليه كلَّ ليلة تقريباً.

- ٣٣ -

تنظر من خلف ستارة السطح الى الزقاق، وترى ندى بتنورتها السوداء، وقميصها الفضاض، وهي تسير بكعب عالٍ وحقيبة جلديّة حمراء، حتى تنعطف عند ركن دكان ابي ناجي، لم تكن صديقتها، ولكنَّهما كانتا في صف واحد، وقد أخرجها مدير المدرسة ذات خميس في الاصطفاف الصباحي، واوقفها أمام الطلبة، وقال إنَّ

زميلتكم فازت بالجائزة الأولى لمعرض النشاط المدرسي، وحين دخلت نادية مع أمّها الى المعاونة من أجل تسلُّم شهادتها في الامتحان النهائي، شاهدت ثلاث رسوم بالألوان الخشبيّة مغلّفة بالنايلون على جدار الغرفة، وقد كتب تحتها بخط غليظ (ندى محسن / السادس ب / مدرسة المظفر الابتدائية). كان حلمي في الأول متوسّط حينها، تشاهده يلعب الكرة في الساحة الترابيّة خلف المدرسة، ينزلق بحماس نحو الكرة كلما قذفوها باتجاه المرمى. شاهدت أيضاً صديقاتها يأخذنَ أوراق النقل الى متوسطة الوثْبَة، وقالت لأمّها إنَّها تريد أنْ تذهب الى المتوسطة، لكنَّ الأمّ المشغولة بتنظيف الملابس طلبت من ابنتها أنْ تُقَلِّم الباميا قبل أن يحضر أبوها من الشغل، ولا يجد الغداء حاضراً. ولم يقل حلمي شيئاً حين شاهدها تبكي في بيتهم بعد أن نهرها أبوها وكاد أنْ يضربها، لأنَّها لم تَتُبْ من المرَّة السابقة، حين لحقها الى السطح بقندرته البلاستيكيّة، صاحت بحدَّة مُحْتَجَّةً على رفضه لذهابها الى المتوسطة، واندفعت الأم تحجز الأب الذي استشاط غضباً من جرأة ابنته عليه، وأخذها عمُّها سالم الى بيته، خشية أنْ تتأذّى خطيبة ابنه المرتقبة، أو تصاب بعاهة مستديمة من يد ابيها الثقيلة، لكنَّ عمّها لم يفعل شيئاً أكثر من ذلك، ولم يتدخَّل في قرارات أخيه، ربّما لأنَّه يوافقه في الرأي، فقد أجْلَسَ ابنته سناء من المدرسة أيضاً، ولكنْ من دون مشاكل، فسناء تبدو راضيةً بالقدر الذي حصلت عليه من الدراسة، وكأنّما تريد لها أيضا قدراً مشابهاً، تواسيها وتُسَخِّفُ لها بكاءها ونحيبها، «شتردين تصيرين. . موظفة؟» ، تقول سناء ذلك بفم معْوَج دلالة الاستهزاء، ثمَّ تُرَبِّتُ على ابنة عمّها، وتحاول إلهاءها بأيِّ شيء: «شوفي هذا القماش. تتذكّرين؟ . . اشتريته من

العيد، أمي اتگول اخيطة يم أم جاسم، لأن ام رسول، تبوگ من القماش. . .». غير ان نادية تبكي.

لقد ذهبت ندى الى المتوسطة، وأخريات غيرها، فلماذا لا تذهب هي؟ «بنات الموظفين بس هنَّ إللي يخلصن دراسة». تقول سناء، لكنَّ والد ندى خبّاز، يعمل في مخبز في (حافظ القاضي)، وليس موظفاً. هل كلُّ بنات الخبازين موظفات؟ وأبوها خَلْفَة، فهل كلُّ بنات الخلفات ربّات بيوت؟

ثمَّ أنَّه اسم ضخم لا يلائم هيئتها الضئيلة (ربّة بيت)، وتتخيَّل أنَّ أمّ ناجي جارتهم هي وحدها من يلائمها اسم بهذا الامتلاء، لانَّها ممتلئة مثله.

تشاهد مديحة كامل وهي تخرج من الزقاق مع زميلاتها في (الگامعة) وتتشعْبط في الاتوبيس، حاضنة كتبها وحقيبتها النسائيّة الصغيرة، ويقرع الجرس الضخم في سقف الحياة المشْمِسَة، بينما مديحة تسير ضاحكة مع زميلاتها نحو المدرجات المليئة بالطلاب.

تشاهد ندى مع اثنتين أو ثلاثة من الطالبات يخطرن كلَّ صباح بالصدريات الزرق من أمام باب البيت، فتحرق صدرها حسرةٌ لا تقوى على إخراجها. «تردين تطلع عينج؟ . . شسوتلنه المدارس؟ . . موزين ساكتين عليج. . ذيج فضيلة صارلهم سنتين أهلها من گعدوها من المدرسة. .»، تكرّر أمّها على مسامعها هذا الكلام، كلما انتفضت البنت لأجل شيء يذكّرها بالدراسة، وتشتم فضيلة لأنّها أصبحت أمام أمّها مثالاً صالحاً: «فضيلة غبيّة . . موذكيّة. . موذيج اختهَ ناجية المخبلة أم الحَبّ؟»، «اسكتي لج. . أبوج نايم. . كل يوم هالقوانة؟».

إنَّها حتماً موظفة في دائرة ما. ينعق الشاهين أو احد الغربان في

سقف الصباح المشمس، وتفكِّر نادية وهي تسترجع صورة ندى خطواتها الواثقة على اسفلت الفرع، إنَّها تخرج كلَّ صباح، بهندام أنيق، تنظر الى الشوارع والناس، وتركب الحافلة، وترفع عينيها في أعين من ينظرون اليها، مثل بطلات المسلْسلات العربية، تدخل في الأسواق وتشتري ما تريد، لها صديقات كثيرات، ولديها تلفون في البيت.

لكنَّها لا تشبه مديحة كامل، وهذا خلل كبير، عليها أنْ تكون شبيهة بمديحة كامل، ولها ابن عمّ يشبه صور المسيح، وبيتهم في وسط الزقاق، وأبوها خَلْفَة، وأمّها تغنّي مثل بنت الريف. عليها أنْ تكون نادية، وليست ندى، كي تنعدل موازين العالم أمام نادية.

تطوي إزارها الخفيف بذراعيها، وتنام، ثمَّ تحلم بأنَّها وندى تسيران داخلتين الى الزقاق، وأشخاص جالسون قرب الأبواب ينظرون اليهما، وهما تتضاحكان بخفوت، كما تفعل مديحة كامل مع صديقتها في الگامعة، حتى تقْتَرِبان من باب بيتها حيث وقف حلمي، فتلتفت الى ندى وتودّعها، ليحوطها حلمي من كتفيها، ويدخلان. تضحك لأنَّ حلمي لا يتوقف عن مداعبتها أثناء سيرهما في المجاز المعْتم حتى يصلان الى الهول. فترفع عينيها على مرآة واسعة على الحائط أمامها، فترتجف غير مصدِّقة لما تراه، إنَّها ندى وليست نادية. حلمي في المرآة يحوط ندى بذراعه، بينما نادية هناك، في نهاية نفق معْتم، تغسل الملابس في طَشْتٍ قرب حنفيّة الحوش.

ـ ٣٤ ـ

تتسلَّم ندى هديتها من مدير المدرسة، ويصفق الطلبة لها بأمر من المدير. يأخذ أخوها سامي قصّة الأطفال وعلبة الألوان من يدها

ويقلبهما، ويقول: «آني اللي علمتج الرسم، أنطيني هاي الالوان»، لكنَّها ترفض وتحاول استرجاع هديتها منه، ويتدخّل الأب، فتصيح «رجعهه.. بابة.. رجعهه»، والأب يفصل بينهما، ثمَّ يقرر أنْ تأخذ هي القصّة ويأخذ هو الألوان، فتصيح وتشتم أخيها، وتلاحقه وهو يركض من أمامها، ثمَّ يفتح باب الحوش ويهرب. فيما بعد كانت الطالبات في الثانويّة يصفّقنَّ لها أيضاً، لأنّها أحرزت مركزاً متقدّماً في مسابقة رياضيّة. تمرُّ بصدريتها الزرقاء في زقاق السادة خارجة الى دوامها الصباحي، وترى بطرف عينيها تلك الفتاة نفسها التي تقف وكأنَّها تنتظر قدومها كلَّ صباح، يسحرها بريق وجهها الملفوف بالفُوْطَة، وهو يتخفَّى بحذر خلف فُرْجَة الباب، ولا يخطر على بالها إنَّها زميلة قديمة.

يقول أبوها الخبَّاز إنَّها تشبهه لأنَّها ذكيّة مثله، وليس مثل أخيها سامي، الذي لا يفعل شيئاً غير الرسم. تذاكر امتحاناتها مع حنان، زميلتها في القطاع المقابل، وتقول حنان إنَّها ستذهب الى الفرع العلمي لأنَّها تريد أنْ تصبح دكتورة، فتغلق ندى كتاب الجغرافيا، وتنظر الى ساعة الحائط، وتقول لصديقتها إنَّها تأخَّرتْ.

أخوها سامي، يفرش لوحاته على السجادة الكبيرة في الهول، ويصعد على (الكرويته) وينظر الى اللوحات، ويسألها أيُّها أجمل، لكنَّها لا ترى شيئاً، مجرد (شخابيط). كان يرسم سابقاً بشكل أفضل، لكنَّه أصبح مجنوناً الآن، يقلّب إحدى المجلّات، ويريها صورة لشخص بدِيْن بصلعة صغيرة وشعر أشيب منتوف من جهتي رأسه، وبطنه المشعرة ظاهرة من قميصه مفتوح الأزْرار، يجلس أمام منضدة قذرة تعلوها أوعية لفرش وعلب ألوان، مع ست أو سبع قناني داكنة تبدو كأنَّها لمشروب كحولي، ومن خلفه لوحات مرْكُونة

على جدار مغتم. تتراقص عيني سامي جذلاً ويقول لأخته: «هذا سوان ميرو». ولا تعرف ندى ماذا يعني ذلك، لكنْ، من المؤكد أنَّ هذا الشخص، هو من سبب جنون أخيها. إنَّ صورته كئيبة، تشبه اللوحات أخيها المعروضة على سجادة الغرفة.

«إنَّ الفتيات لا يرسبنَ أبداً»، يقول أخوها سامي، معلِّلاً ذلك بأنَّ الفتيات «ليس لهنَّ شغل ولا عمل سوى القراية». ولكنْ، ما هو شغل وعمل الفتيان إذن؟!

تدخل صديقتها حنان الى الفرع العلمي، فتذهب وراءها، وأبوها يشجّعها، ويشتري لها الملابس، ثمَّ يهزُّ رأسه أسفاً وهو يرى ابنه البكْر يخرج وقد لفَّ بجريدة لوحة كبيرة، «يمته الله يفضنه من هالسالفة؟». يقول الأب ذلك، وتعرف ندى أنَّ كلامه يتضمَّن بالمقابل مديحاً لها. إنَّ أباها الخبّاز ذي اليدين المعروقتين النحيفتين، يتوقع من ابنه الكبير أن يفكِّر أو يعلن عن رغبته المستقبليّة بأخذ زمام الأمور من أبيه، ويحيله الى التقاعد من وقفته أمام التنور من الفجر وحتى المغيب، لكنَّ سامي يبدو بعيداً، ويخرج دائماً للقاء أصدقاء بعيدين، خارج المدينة، (فنانين) كما يقول لأخته في بعض الأحيان، والأب يريد من ولده أنْ يدخل الى الكليّة العسكريّة أو كليّة الشرطة. يريده أنْ ينجح هذه السنة فقط، ويترك كلَّ شيء عدا دراسته. والابن يبدو بعيداً، ويذهب الى أماكن بعيدة، لا يسمع فيها صوت الأب، ثمَّ بعد نجاحه آخر السنة فاجأ سامي أهله بأنَّه ذهب الى أكاديميّة الفنون. فنشَبت المعارك في البيت، وهرب سامي على إثرها الى أعمامه. قضى شهوراً طويلة هناك، قبل أنْ تنتهي المفاوضات بعودة سامي المظفَّرة، الى غرفة ألوانه ولوحاته.

لكنْ هذه هي بداية الحكاية فقط، فالأيام الشنيْعَة جاءت فيما

بعد. يدخل سامي الى غرفته ويجمع اللوحات كلَّها، وعلب الألوان، والخِرَق الملوَّثة، وكتبه، وأوراقه، وصور رساميه المفضَّلين، وصوره الشخصيّة، ويغادر بها الى حيث لا يعرف أحد. باعها أم تخلَّص منها، أم ماذا؟ ثمَّ ذات صباح وقف سامي في وسط الحوش المشمس، بقميص أبيض وبنطلون جينز أبيض وحذاء أبيض، ونظارات سوداء، وحين رأته الأمّ بهذه الهيئة، بَكَتْ. وكان الوالد هناك، في البعيد، يقف أمام تنوره في المخبز المطلّ على أحد الشوارع القريبة من (حافظ القاضي). بكت ندى، وكرهت البكاء من يومها، بكى أخوتها الصغار، لبكائها وبكاء الوالدة، وضحك سامي وهو يحتضن أمّه وندى. وقتها قال سامي لأبيه إنّه سيرسل لهم النقود، سيجعلهم ينتقلون من هذا البيت الصغير الى منطقة (راقية)، وإنَّه سيعود. وفي الليل قال لندى وهو يسرح بعينيه، إنَّه سيصبح فنّاناً مشهوراً، لانَّه موهوب، وسيتعرَّف على الفنانين العالميين، ثمَّ بدأ يتحدَّث بأشياء لم تكن ندى تفهمها بعد، عن الفنّ الحديث، وعن بيكاسو، وخوان ميرو، وتستحضر أثناء كلامه صورهم الكئيبة، ورسومات أخيها البشعة.

لم يبكِ الأب أبداً، وكأنَّه يعرف كلَّ شيء منذ البداية، إنَّه يكره البكاء، ويقول إنّه للنسْوَان، أمثال أمّها التي لا تتوقف عن البكاء، إلّا لتسحب شهيقاً طويلاً، ثمَّ تعود. وكرهت هي نغمة البكاء المكرَّرة، التي تسمعها من أمّها أناء الليل وأطراف النهار، كرهت الانهيار الذي يعتريها حين تضفُن وتستغرق مع (نَعَاوي) أمّها على ولدها الفقيد. وتفكِّر إنّه سيرجع، هو موجود في مكان ما، وليس مفقوداً. لكنَّ الأمّ لا تفهم ذلك، وندى تريد أنْ تركِّز على كتاب الجبر، لأنَّها ستمتحن بمادته غداً، تصيح على أمّها أنْ تسْكُت، لكنَّ

الأمّ في عالم آخر. تخرج الى الحوش، وترى والدها يدخِّن، وهو ،طر الى الغيوم البيضاء المتفرِّقة، يقَلِّب، صامتاً، مسبحته في يده المعقودة خلف ظهره، وعيناه تهملان ماءً ساكناً.

عرفت فيما بعد أنَّ أباها لن يستطيع الوقوف أمام التنور ثانيةً، لأنْ عينيه أصيبتها بمرض سببه مواجهة اللهب لسنين طويلة، شيء يشبه خللاً في الغُدد الدمعيّة تحت الجفن، يجعل العين تجري بماء دافق، من دون توقف.

غادر الأب وقفته أمام التنور، لكنَّه لم يستطع منع نفسه من الذهاب الى مقهى الخبَّازين، الذي يجلس فيه دائماً، ويلتقي بزملاء المهنة. يطقطق بمسبحته ويدخِّن ويشرب الشاي، ويتحدَّث مع فلان وعِلّان، رافعاً يده بالمنديل كلَّ حين الى عينيه ليكفْكِفَ دمعاً بارداً، لا يحمل مغزىً أعمق من انسكابه الصامت.

الأمُّ تبكي، والأب ينشف دمعه بوجه صارم جامد التعابير، شاتماً الزواج وإنجاب الأولاد والركض وراء العيشة، وتعرف ندى أنَّ كلامه، هذه المرَّة، يتضمَّن بالمقابل (شتماً) لها، لأنَّ مصاريف دراستها تندرج تحت قائمة (الركض وراء العيشة). تخبرها أمّها بوجه عليه آثار النُّواح، أنَّها لن تستطيع الذهاب الى السوق اليوم، وعليها هي أنْ تذهب مكانها، فتقول ندى: «آني عندي دوام؟»، فتتغيّر نبرة الأمّ، وترفع صوتها بأعياء، شاتمةً الدراسة: «شسوت الدراسة لأخوج؟.. وينه هسه؟.. عافنه ومشه». واذ ترضخ لرغبة الأمّ، تكتشف بعد حين، أنَّها غدت محاصرةً شيئاً فشيئاً، عليها أنْ تخْبُز في التنور الطيني فوق السطح بدلاً من أمّها، لأنَّ الأب لم يعد يجلب آخر النهار الخبز كما اعتادت العائلة على ذلك منذ سنين، وأمّها غدت فجأةً ضامرة ومتعبة، لا تقوى على عمل البيت. وهي ابنتها

الكبيرة، وعليها أنْ تساعدها، ولكنَّ الأمر لم يكن بهذه الحدَّة سابقاً، إنَّها الآن لا تستطيع التركيز على شيء من دراستها، وتبدو مشوَّشة في بيت غلَّفه الصمت بخيمة من سكون مقْلق، يتقطَّع بين حين وآخر بنُواح الأمّ أو عصبيّة الأب. أو ثرثرة التلفزيون مع نفسه. ولم يعد أبوها يذكّرها بانها مثله، ذكيّة. لم يعد يسألها عن شيء، وكأنَّ عطلته الإجبارية، والمنديل المبلّل الذي لا يغادر يده، عزلاه عمّن حوله. تهرب الى حنان، وتلهيها عن قراءة مواد الامتحان بشكواها من البيت، وحنان تجيبها بأجوبة جاهزة لا تجد غيرها: «مالچ شغل، من تخلصين شغل البيت روحي اقري، اصلاً آني أمي ..»، وتشرع في تبيان (حسّ التوازن) الذي تحرص على وجوده، بين عمل البيت والدراسة.

في النهـاية أكْمَلَتْ ندى بدرسين، ولم يكترث أحد لذلك، تلقت إجابة فاترة من أمّها، وتمنَّت لو أنَّ أباها أنَّبها، أو انفعل بوجهها، لكنَّه لم يفعل ذلك، إنَّها الذكيّة، الشاطرة، هل كان كلُّ شيء معقوداً بأخيها سامي؟ ألَّا يفكِّر أحد بنجاحها أو رسوبها؟ ما الشيء الذي يقدر عليه سامي ولا تستطيع هي فعله؟

«هاي الدراسة لنفسچ، محد رايد منچ شي، اول وتالي راح تتزوجين وأكو من يعيلچ»، لا تعرف بالضبط من قال لها ذلك، لكنّها كليشة مكرّرة، يمكن أنْ تسمعها أيُّ فتاة في أيِّ مكان.

تقلّب كتبها، وتحضر في ذهنها اثناء ذلك صورة أخيها سامي، فتنتابها مشاعر متناقضة تجاهه، تتمنّى لو كان بجوارها الآن ليواسيها، وفي الوقت نفسه، تتمنَّى لو لم يكن موجوداً أبداً، لأنَّ له يداً في كلِّ ما تعانيه الآن، بل هو المسبب الوحيد، أنَّ أصدقاءه ذوي الصور البشعة، خطفوه، ثمَّ خرَّبوا حياتها. لكنَّها تأسى، حين

تتذكَّر كم كان لطيفاً، ويسألها دائماً عن شؤونها. لا يمكن أنْ تنسى لثرثراته الليليّة الطويلة عن الرسم، واصدقائه والفن الحديث، حتى من صديقاته، ومغامراته، ماذا لو أنَّ المُسَبّب الرئيس فيما تعانيه ليس كلُّ هذا، وإنَّما كونها بنتاً؟ تسرح مع نفسها متخيّلة أنَّها هي الولد بدلاً من أخيها، وتقلّب في ذهنها الخيارات الكثيرة، التي كان من الممكن أنْ تكون أمامها لو حدث مثل هذا الشيء.

ـ ٣٥ ـ

تنزل ندى من سيارة الاتومارس الطويلة، وتسحب حال نزولها شهيقاً مديداً من هواء المساء الفاتر، تخطو متثاقلة على الرصيف المعتم، ماسكة حقيبتها الجلديّة الحمراء المعلَّقة على كتفها. تدخل الى زقاق السادة، الذي ينير اسفلته المعتم مصباح وحيد معلَّق فوق دكان أبي ناجي. روائح عشاء ونَشِيْش مقلاة، ولغط مضبَّب يعبر النوافذ وفتحات الأبواب التي تمرُّ من أمامها، وذهنها يعيد بآليّة، مع خطوها على اسفلت الزقاق، وجوه رفيقاتها وأحاديثهنَّ المخُتلطة بالهمْهمة المعدنيَّة لآلات المعمل.

تنحرف عند دكان أبي ناجي، وتبطئ من خطواتها قليلاً، كي تنظر باختلاس الى الشبح الذي اعتادت على متابعته لها، إنَّه واقف هناك، في وسط الزقاق، بكتلته المعتمة كما هو عهده منذ عدَّة ليالٍ. تشيح بوجهها من دون أنْ تتوقف ويتأرْجح كعبها العالي قليلاً، لكنَّها تسيطر على مشيتها وتُكْمِلُ ساهمةً حتى تصل الى البيت. تطرق عدَّة طرقات على بابه الحديدي المرْتج، وتنتظر حتى تفتح لها أختها الصغرى.

كان ينظر، مثلما ينظر الآخرون، وترتبك عيناه حين تجيبه بنظرة

حادّة تعبر إليه من بين وجوه العاملين في المعمل، إنّه سلاحها لكشف نوايا الرجال، تثبت عيناها بنظرة صنميّة لا تحمل تعبيراً محدَّداً، حتى يستسلم المقابل وينحرف ببصره الى شيء آخر. لا تتذكَّر أنَّها استسلمت يوماً، دائماً الآخرون، هم الذين ينهزمون بأعْيُن كسيرة أمام أشعّة الصلابة والثبات في نظرتها.

مرَّةً قرأت عن تلك المهندسة التي تعرضت لتيار كهربائي شديد القوّة، فأصيبت إصابة بالغة، حملت في إثرها الى المستشفى، وبعد شهور شفيت بأعجوبة، ولاحظت وهي تخرج من المستشفى الى الشارع أنَّها قادرة على رؤية ما وراء الأشياء، أرعبتها هذه القدرة الغريبة التي اكتسبها بصرها، ترى الراكبين الى الحافلة من الجهة الثانية، ترى من خلال السياج العالي للمدرسة الداخليّة، التلاميذ وهم يلعبون. ترى الكِسْوَة الداخليَّة لامرأة عجوز. تتوهم الدخول الى حديقة عامة، فتصطدم بالحائط.

تختبر ندى لثوانٍ مع نفسها هكذا قدرة، تلتفت وتتحسَّس الحائط بنظرة فاحصة. ثمَّ تحضر ثانيةً صورة ذلك الناظر اليها من خلف آلة تغليف الشوكولا، بعينيه المرْتَجْتين، وجسده الناحل. لقد عرَّفته منذ اليوم الأول الذي باشر العمل فيه على آلة التغليف، إنَّه ذلك الذي عمل أهله هَرْجَة كبيرة عصر أحد أيام الصيف الماضي في زقاق السادة، احتفاءً بعودته، لقد كان الأمر مثل فضيحة، تعلّقت برقبته نساء كثيرات من عائلته، وانطرحنَّ به على الأرض باكيات، حاول أناس أنْ يُنْهِضوه من بينهنَّ، لكنَّ البكاء تصاعد، والنساء بعباءاتهن وفوطهن المترَّبة حوَّطْنَه من كلِّ جانب. كانت وقتها عائدةً من عملها في شركة الحبوب، وشاهدت هذا المنظر المأساوي. تلك العينان الباكيتان اللتان ارتفعتا عصر ذلك اليوم لتحدّقا في وجوه الناس

المتجمْهِرين. تنظران الآن الى وجهها في مرآة الحَمَّام، تدعك بيدها خدها الحنْطِي، وتشيح بعيداً عن عينيه الطفلِيَتَين. تأسى قليلاً للنحول الذي اعتراها ثمَّ تنظر الى المرآة فلا ترى العينين، تميل وجهها بيدها ذات اليمين وذات الشمال، قبل أنْ تضع عليه كريماً مبيِّضاً. تركِّز كثيراً على أهدابها القصيرة والباهتة، وتعمد الى تحديدها بخط أسود فاحم. تزيِّت وتديم سلاحها الفتاك، الذي يجعل الآخرين مكشوفين أمامها، مثلما تتخيَّل.

- ٣٦ -

ينزل الشاب الذي يشبه كاظم الساهر من سيارة مارسيدس بيضاء وقفت في وسط الزقاق، وترتفع الهلاهل من حوله، يصفق باب السيارة، ويتقدَّم داخلاً الى بيت العروس. نادية خلف الحائط تنظر الى سطح وبيت جارتها السمراء، ولا ترى شيئاً، ثمَّ تصعد أخت صديقتها الى السطح، فتتفاجأ برأس نادية الملْفُوف بفوطة بيضاء وهو يَبِين من وراء الحائط الفاصل بين السطحين، تستغرب من وقفتها، وتطلب منها المجيء، ولا تعرف نادية بماذا تجيبها. يأخذ كاظم الساهر عروسه، وموسيقى وهلاهل وهُوْسَات ترتفع لنادية من عمق الحوش. سوف لن تصعد ثانيةً الى السطح، تشعر نادية بذلك، بينما العروس تصعد الى السيارة. تتمشَّى على أرضية السطح المبلَّطة بالكاشي، ثمَّ تنزل بخطو بطيء على الدرج، والعروس تصفق الباب بجرأةٍ خلفها، تغادر سيارة العروسين، وتلحقهما سيارتان كبيرتان مملوءتان بأهلهما، تثيران دخاناً كثيفاً في الزقاق. وتدخل نادية الى المطبخ، تسوط قدراً كانت قد وضعته على النار يتصاعد البخار منه، وحلمي هناك ينظر من وراء آلة

التغليف الى زميلات ندى، ولا يجدها. يرجع ببصره الى آلته الجهنميّة، فينفرد وجهه، ويستبشر، لأنَّه وجد قطعة شوكولاته تملَّصت أخيراً من آلة التغليف.

تدور سيارة العِرْسَان في شوارع المدينة، وتصل الى ساحة مظفر، ثمَّ تلتفُّ، وتعود، لتسلك شوارع أخرى، وتقترب لتدخل الى شارع الفلاح، ثمَّ تعود الى نقطة البدء، زقاق العروسة، ولكن من الجهة المعاكسة للجهة التي خرجوا منها، تدخل السيارة البيضاء ذات الأشرطة الملوَّنة وأكليل الزهور ببطء الى الزقاق، وخلفها سيارة بيك أب يعتليها رزّاق الأمير وفرقته الصاخبة، ومعهم شخص يحمل كاميرا فديو صغيرة يوجّهها الى سيارة العِرْسَان. تتوقف السيارة أمام باب بيت ملاصق لبيت العروس السمراء، وينزل كاظم الساهر ويستدير ليفتح الباب لعروسه، ويمْسكها من يدها، فتنزل وقد كلَّلها برقع أبيض طويل، ويقودها الى داخل البيت. كان شرط العروس، التي خطبها وعقد عليها ابن الجيران الأنيق، ألَّا يحملها بخطوتين أو ثلاث من باب بيتها الى باب بيته، وإنَّما يدور بها في المدينة كلِّها، ويسلك كلَّ الشوارع ، ويصنع (هُوْسَة) كبيرة، قبل أنْ يعود بها من الجهة الثانيّة للزقاق.

ـ ٣٧ ـ

ـ أكان عليَّ أنْ أعود لكي أجدك ثانيةً؟ لماذا اختفيت إذنْ، ولماذا تظهرين الآن؟.. لماذا لا تثبتين على حال؟

ـ ...

ـ إنَّ الدوام هنا ثقيل، انت تعرفين، ولكنّي أشاغل النفس بك،

أعلمُ أنك موجودة معي تحت سقف هذا المعمل، ليس شرطاً أنْ أراكِ، ولكنَّك موجودة، وأشعر بك، تستنشقين معي ذات الرائحة، وتسمعين ما أسمع.

ـ . . .

ـ البارحة تمنّيت لو عدتُ واعتذرت لك، لأنّي تلعْثمت وأنا أكلّمك، لم يكن ما أردت قوله مهما، أردت أنْ أتكلَّم معك فقط، وأحسست بأنَّك تعرفين، لكنَّ صخرة يابسة علقت في بَلْعُومي، هل شعرت بهذا الشيء سابقاً. . صخرة في البلعوم؟

ـ نعم.

ـ كيف؟

ـ حين منعني أبي من إكمال دراستي. شاهد، أثناء عودتي من المدرسة، شباباً يتحرَّشون بي عند رأس الشارع، وكان عائداً من مقهى الخبَّازين، والشرر يتطاير من عينيه، سحبني من شعري، وجعلني فُرْجَة للناس، ودخل بي الى البيت ثمَّ أقسم بالأيْمَان الغليظة ألّا أطأ عتبة الباب ثانيةً.

ـ وماذا حصل بعد ذلك؟

ـ أردت أنْ أصْرُخ في وجهه، لكنَّ عينيه بدأتا تتدفَّقان بماء غزير، فانعقد لساني، وتجمّدت الصرخة في بلعومي.

ـ شيء محزن.

ـ لا . .

ـ أنا آسف.

ـ يجب ألّا تأسف، لانَّ ما فعله أبي، جعلنا نلتقي ثانيةً.

قالت له وهو يمسك يدها للمرَّة الأولى: «يجب ألَّا يتغيَّر شيء، أنزل أنا أولاً، وأدخل للزقاق، ثمَّ تتبعني. يجب ألَّا يرانا أحد نسير سويَّة». سارا معاً باتجاه باب المعمل، وسحبت يدها من يده.

قبل أنْ تصل السيارة بهما الى زقاق السادة، نظر إليها وشعر برغبة حارقة لمنعها من النزول، سيبقيان معاً في السيارة الفارغة، وليتَّجه بهما السائق حيثما يريد. كانت كلمات كثيرة تحتشد في ذهنه، وتتصارع مع بعضها للخروج على لسانه، وكأنَّه احتفظ بحصتهما المفترضة من الكلام طوال المدّة الماضية قبل لقائهما في المعمل، ويريد أنْ يستوفيها الآن دفعةً واحدة. قال لها والسيارة تتوقف: «إنَّ الهندوس يؤمنون...»، لكنَّها، غير مُنْتبهة الى جملته المبْتورة، علَّقت حقيبتها على كتفها ثمَّ نهضت، الْتَفَتَتْ إليه قائلةً: «بي باي». ونزلت، نزل خلفها، وعيناه تلاحقان جسدها الضامر المبتعد نحو مدخل الزقاق المظلم. كان يريد أنْ يخبرها بشيء مهم، الهندوس يؤمنون بعشر تَجَسُّدَات بشريَّة لإلههم كرشنا، وقد أنجز كرشنا هذا، حتى الآن، تسعاً منها، وفي التجسُّد العاشر والأخير، سيستولي على العالم، فأمَّا أنْ يفعل ذلك، أو تنتهي أسطورته تماماً. (أنت تذكّرينني بكرشنا هذا، أشعر أن صورتك التي أمامي الآن، هي تجسُّدك الأخير، أنت حبيبة من مدينتي، ويجب ألَّا أدعك تخْتفين ثانيةً).

يخطُّ حلمي بيد واثقة كلماته هذه في الصفحة الأولى من دفتر مدْرسي جديد، ويشعر بما يشبه اليقين، أنَّه قد بدأ فعلاً في مغادرة (الآن).

ـ ٣٩ ـ

تنزل صورة الكرسي من سماء الظلال الافلاطونية، وتغدو كرسيّاً، تنزل صورة الشجرة، وتغدو شجرة. تنزل صورة الشارع، الأعمدة، الأطفال، الكلاب النابحة آخر الليل، والنائمة قرب تنانير الطين، الدِّبَكَة وأسماك الزينة، الموظفات، وفلاحو الجزرات الوسطيّة، بائعو الباچة، والخُرْدة فروش، والأحذية المستعْمَلَة، ينزل حذاء افلاطون نفسه، ويبقى افلاطون حافياً في أروقة أكاديميّة الغيوم، تنْشِفُ الدموع السخيّة على مصطبة القاعدة الرخاميّة لتمثال غالاتيا، مع أول بزوغ للفجر، فيرفعُ بجماليون رأسَهُ الحزين من قدمي غالاتيا الرُّخاميتين، فيرى الثوب الشفيف لتمثاله/ محبوبته، وهو يرفْرِف مثل ثوب حقيقي، ويرى غالاتيا تضيء عتمة صباحه الأزليّة بابتسامة يتدفّق في جوانبها ماء الحياة. تهبط من القاعدة الرُّخاميّة وترفع يده لتُنْهِضَهُ، إنّها النهـاية!

أنظر الى الشباك بجواري، وأرى الصباح بشمسه الغائبة وراء غيوم شفيْفَة، وتردُّ الريح الباردة حافّة الرقعة الورقيّة التي سددت بها ثقباً في زجاج النافذة، حاملة البرد الى عظامي، قبل أنْ أنْتَبِهَ الى أنَّ هذا يتكرّر منذ أمد يصعب تذكُّره. وافكر، أنّني لو تأمّلت جيداً فسأجد أنَّ بقائي في هذا المكان هو أفضل نهاية لي.

ـ ٤٠ ـ

ـ إذنْ هل عاد أخوكِ سامي بعدها؟

ـ لقد أخبرتك أنّه اختفى، لم يبعث برسالة أو شيء من ذلك، ولم نعرف ما الذي حصل معه، المسكين أبي، كان يتوقَّع من دون أنْ ييأَسَ أنْ تصله نقود منه، في أيّة لحظة.

ـ ربّما مات.

ـ . . .

ـ أنا آسف.

ـ لماذا تأسف، لولا أنَّ سامي غير موجود لما رضخ أبي في النهـاية، وتركني أعمل في شركة الحبوب، ولولا أنَّني تركت الشركة لما رأيْتَني في هذا المعمل. ولو..

ـ ٤١ ـ

إنَّها على الضدِّ منه، تحبُّ الكلام، وتحبُّ يديه البيْضاوين، وهو يحبُّ يديها السمْراوين والإنصات إليها، تصافحه وتقلِّب يده في يدها، ثمَّ تقول ضاحكةً: «شاي بحليب». فيموت جذلاً وطرباً لكلماتها الغريبة، ويحبُّ من فوره الشاي بالحليب، ويقرِّر أنْ يكون هذا إفطاره كلَّ يوم حتى تحين النهـاية.

إنَّه يرى فيها امرأة حياته، وهي لا ترى نظرة الاستحواذ في عينيه، وهذا ما يجذبها فيه، فسرعان ما يكسر نظره خجلاً من عينيها الساكِنَتين كعيني فيروز حين تغنِّي: «بغدادُ، والشعراءُ والصورُ». إنَّها تشعر بالأمان معه، كما لو كانت مع طفل كبير.

ولكنْ، لماذا لا تعترف أنَّها مسْحُورة بشُقْرته وبياضه، فأعين باقي العاملات لا تفارقه، لماذا لا يكون هذا الفتى انتصاراً صغيراً لإرادتها، إنَّه الوحيد الذي أشعرها، وبعمق، أنَّها لم تَنْهَـرْ بعد. نظراته لا تلوّثها كما الآخرين، إنَّ عينيه، بمعنى أقرب، تُصَلِّيان وهما تتّجهان إليها.

أخذ ابن الجيران الذي يشبه كاظم الساهر، ابنة جاره السمراء، وسيتخلّى بعد حين عن لقبه الغريب، ليعود من جديد كاظم جودة، كما هو اسمه في هويّة الأحوال المدنيّة، سيثْخَن شاربه، وينهض وبه كلُّ الحيل والقوّة، متبرّئاً من الأغاني، ومن نسبته إليها، وسيخلو السطح من زوجته، لأنّه لا يريدها أنْ تصعد لأيٍّ أمر كان، متعلّلاً بوجود المطيرچية على الأسطح المجاورة طوال الليل والنهار، فتفقد نادية بذلك صديقتها السمراء، الوحيدة. لقد فقدتها، لأنّها وصلت الى النهاية، تتخيّل أنَّ الأمر كان يجب أنْ يحصل معها هي لا مع صديقتها السمراء، تنتقل من بيتها الى البيت المجاور، بيت عمّها سالم وابنه حلمي. ولا تدري من أين جاءتها فكرة غريبة تولّدت في ذهنها يوم علمت أنَّ جار صديقتها أصبح زوج صديقتها، تهجس أنَّ الأقدار غير المألوفة لا تحدث دائماً، ولا تتكرّر باطّراد. الزّفّة الفُكَاهِيَة التي تشبه رمزيّاً فكرة الدوران حول الأرض، والعودة الى نقطة البدء من الاتّجاه المعاكس، حدثت في النهاية مع صديقتها، وسوف لن تحدث معها أبداً.

تنظر الى سناء ومحمد، وتعرف أنّهما وصلا الى النهاية منذ زمن بعيد، أنّهما لا يكتشفان شيئاً جديداً، الحياة كما دخلوها تكرّر نفسها، فقط.. هناك أطفال يتكاثرون.

تريد أنْ تسأل أمّها عن حلمي، لماذا لم يعد يزورهم، وهل سيتزوّج بها حقّاً؟ لكنّها لا تملك الجرأة الكافيّة أو الرغبة لنطق سؤالٍ كهذا. ولكنْ، أليس هناك في العادة نهاية ما؟ أليس من المفروض أنّنا نرغب في النهاية فتحضر إلينا حالاً؟ أم أنّنا ننتظر

النهـاية، وننتظر، وننتظر حتى نصحو ذات يوم على حقيقة أنَّنا غدونا أنفسنا. . تلك النهـاية التي نبحث عنها؟

ـ ٤٣ ـ

وقفت الجدّة قسمة على نهايات كثيرة، النهـاية موجودة لأنَّنا لم نصل إليها بعد، حين نصل إليها تنبَثِق ثانيةً في الأفق، هكذا هي اللُعْبة، والجدّة لا تعرف ذلك، لكنّها تعيشه، وعاشته. دخلت في لحظة النهـاية مثلاً، يوم سقط كشاش من سِقَالة البناء، وانفرطت فَقَرَات ظهره، أحسَّت وهي بجواره، أنَّها تحْتَضِر معه، لم ينفع دواء (الدخاتره)، ولا الدوس بالأقدام على ظهره، ولا أعشاب وأحْرَاز زاير شميط، كان كشاش يفتح فمه بآهةٍ طويلة خشنة حتى تنقطع أنفاسه، يغمض عينيه قليلاً، ثمَّ يعاود الكرة، ولا يتوقف عن ذلك إلّا حين يداهمه النوم. ما الذي تفعله لهذا الرجل الذي لا يستجيب لرجاء أحد أو نصيحته، لقد طلب منه ابنه غانم منذ زمن طويل أنْ يستريح من عمله، بعد أنْ أخذ منه أسْرَار حرفته، ويبدأ يخرج وحده، لكنَّ الرجل العجوز يرفض ويقول: «يوم اللي أموت عود أبطّل. . تريد تصرف عليَّه؟».

تتذكَّر اللحظات العصيبة قبل لفظه لأنفاسه الأخيرة، نساء البيت تنوح عند رأسه، ورجل معمَّم يقرأ في أذُنَيْه القرآن، ويطلب منه أن يلفظ الشهادتين، ولا يفعل. أولاده، ورجال المَنْطَقَة عند باب الغرفة، والأطفال يتدافعون لينظروا بفضول وخوف. رفع عينيه الى زوجته، وكأنَّ الروح رُدَّتْ إليه فجأةً، وقال لها وهي تقرِّب رأسها منه شيئاً ما، قامت على إثره متعجِّلة، غابت لثوانٍ ثمَّ عادت بمرآة بيْضَوية مزخرفة بإطار من السيراميك، وجلست الى جواره، تحسَّس

المرآة بيده، وكلَّم زوجته ثانيةً بصوت لا يكاد يسمع، فقرَّبت المرآة حتى غدت أمام وجهه تماماً، بدأ يتلفَّظ بأشياء من دون صوت ناظراً الى وجهه في المرآة. استغرق الأمر منه لحظات، وحين انتهى، أسْبَلَ عينيه، وأسْلَمَ الروح.

تقول الجدّة لحفيدها، إنَّ الحُمَّى أخذت بالجدِّ، وظلَّ يهذي قبل ليلة من وفاته، تحدث تلك الليلة عن شيء يخصُّ جدَّه مسروط، والقرية البعيدة التي تركوها، عن أرض أهله التي لا يعرف أحد بيد من أصبحت. قبور أخوته الصغار في مقبرة الوداعة، وقبر أبيه فرج الحرامي، الذي لم ينقله أحد الى وادي السلام، عن مغيسل جدّه مسروط، وقطار الليل الهارب من عبيد الشيخ. قالت له: إنَّ الجدَّ أراد أنْ يختتم حياته بنظرة أخيرة الى وجه جدّه مسروط، الذي يعرف الجميع أنَّه يشبهه، كان يريد السلام عليه لتوديعه، واستشارته فيما يفعله مع رحلته الجديدة، وهو يطلُّ إليه عبر المرآة من العالم الآخر.

ـ ٤٤ ـ

قال لها، يجب أنْ يتغيَّر شيء واحد على الأقل، لقد ملَّ من حذرها المبالغ فيه، سينزلان هذه المرَّة سويَّة، وليكن الزقاق مليئاً بمليون عين، رفعت رأسها إليه، وأثارها كلام من تصوَّرته طفلاً كبيراً، إنَّ كلماته تلْتَهب رجولةً، لكنَّ ما يثيرها أكثر، هو السبل التي تتبعها من دون قصد، لكي يكون رأيها هو ما يتبع في النهاية. لن ينزلا سويَّة. فلْيكنْ أمرهما مكشوفاً في المعمل، ولكنْ في المنطقة لا تريد إثارة انتباه أحد، ثمَّ انَّ الأيام علَّمتها ألَّا تتعلَّق بحُلْم مهما بدا قريباً وسهل المنال، فمن يضمن لها مثلاً أنَّ سُمْعَتَهَا لن تتأثَّر فيما لو حدث أمرٌ منعها من الاقتران بحلمي. إنَّها تسترسل معه، تتحدَّث

إليه وتسمح له أنْ يَمَسَّ يديها، لكنَّها لم تقتنع بعد، أنَّ شيئاً سيحدث في الأيام المقبلة أبعد من ذلك.

ـ ٤٥ ـ

حين دخل الى غرفة الجدّة، شاهد العنكبوت مازال يحْرُس بشبكته السوداء سَكِيْنَةَ الغرفة. قيل له إنَّ جدَّته تعْتِب عليه، فلم يعد، وهو الأقرب الى نفسها، يجلس إليها ويحدّثها. بناتها انشغلن بأزواجهن وبيوتهن، وابتعدن عنها، وإذا لم تُحَدِّث أحداً في هذا البيت، فإنَّ أحداً لا يكلِّمها. ابنها سالم يدخل إليها كلَّ مساء، يُقَبِّل يدها ثمَّ سرعان ما يخرج، وغانم يجلس في غرفة الاستقبال وتسمع صوته الجهوري من بعيد، فقط.

«أمّا أمّك.. فإنَّها تتمنّى اليوم الذي أموت فيه»..

«أمّا أمك، فالله يستر عليها، شتسوي.. والبيت كلّه على راسها، مو زين من عدهه متحملتني».

ـ هاي جدتك تتدخل في كل شيء، إنَّها تخربط كل شيء ولا تدري.

ـ مرّة عجوز.. أتحملوهه چم يوم.. قبل ما تتوكل.

ينظر الى الحائط في عمق الغرفة، والذي بدا وكأنَّ يداً لم تمسَّه منذ عقود، يشاهد صوراً مختلفة ما زالت مرتبة كما رآها أول مرَّة في صغره.. صورة للإمام عليٍّ وولديه الصغيرين، الحسن والحسين، على فخذيه الضّخمين، صورة للمسيح وهالة مدوَّرة من نور أصفر تحيط برأسه، صورة للمختار على فرسه البيضاء، التي تبدو بوضع جانبيٍّ لكنَّ صدر المختار يبدو بلقطة أماميّة، ووجهه مسترخٍ، يحمل في يدٍ سيفه الذي يقْطُر دماً ثخيناً، وفي اليد الاخرى، رأس الشمر

الملعون، الذي يقْطُر دماً أيضاً، صورة لعنترة على حصانه المزركش الأسود، بدرعه ونياشينه وخوذته ورمحه ذي الذؤابات المتدلّيّة، ويبدو الحصان وقد رفع قائمتيه الأماميتين بشموخ، بينما عبْلَة مختبئة خلف نخلة سامقة، تعرض جزءاً من وجهها وعينين سوداوين ساحرتين ترنوان الى ابن عمها.

صورة للعباس وهو يهْرِق الماء العذب الزلال من يده الى النهر بعد أنْ تذكَّر عطش أخيه الحسين، وصورة يتيمة كالحة اللون متشقّقة القشرة، مؤطرة بـ (شَرِيْص) أحمر كامد يربطها بين ظهر كارتوني ووجه زجاجي سميك، معلّقة من خيطها الأبيض المغْبَر على مسمّار كبير فوق أغراض الجدّة، ويبدو فيها الجدُّ كشاش بلحْيَة مفرَّقة قصيرة، ناظراً الى الأمام بعينين مجعَّدتين بسبب الشمس، وقد رفع حنكه قليلاً، غاطساً في غتْرَتِه وعقاله الذي يبدو كإطارين أسودين مائلين. الحائط بأكمله يضفي جوَّاً من القداسة الثابتة على الغرفة.

ـ يا ولدي .. أنا أريد قسمة بجواري. وأمام عيني.

ـ وما المانع؟

ـ أنا أشعر أنَّ أمّها تكره أختك سناء، ولا تريد أنْ تزوّجك ابنتها، ما الذي تفعله البُنَيَّة خلال النهار؟ إنَّها لا تصنع شيئاً، ولكنَّ أمّها لا تقول لها «يمة.. روحي شوفي حبوبتچ» قلبها مليء بالسم، يالٰهي .. الله يجازيها. حتى أنّها لا تدع زوجها يأتي إليَّ ويكلّمني.

ـ أنتِ تتخيّلين.. جدّة.

ـ إذن متى تتزوّج من قسمة؟

ـ هي نادية وليست قسمة.. جدّة.

ـ أذن متى تتزوّج من نادية؟

ـ أنا لا أريد نادية.

يرفع رأسه الى نضدة الأفرشة والبطّانيّات، ويرى ضباب البخور متجمّعاً حتى السقف. لم تكن ترضى لأحدٍ أنْ يرفع شيئاً من أغراضها، ولو على سبيل الاستعارة، وبجوار فراشها الممدود قرب الدواليب والخزانات، تقبع دَرَازِن صحون من العهد الملكي، وفناجين قهوة وملاعق ستيل انكليزي، وشكردانات هندية، وأكياس حِنَّاء أمّ البنت، وعدَّة أجيال من الفئران لم تغادر مكانها منذ تأسيس المدينة.

ـ أنا أعرف أنَّهم يريدون هذه الغرفة، ولا يقولون، سأخذ فراشي الى الغرفة الثانية، أنا خطّار، سأموت عمّا قريب، وأغراضي هذه هي لك ولقسمة، أذهب للنَدَّاف وليعيد لك تَنْجِيد هذه الوسائد والأفرشة، ويُبَدِّل وجوهها، ولتَبِعْ باقي الأشياء، أو أفعل بها ما تشاء، ألَمْ تقلْ عمتي الله يرحمها ذلك لولدها كشاش، لماذا لا أقوله لك أيضاً، وأنت تتزوّج من قسمة؟

ـ ولكنّي لست كشاش؟

ـ أنظر في المرآة.

ـ ولكنّ أهلي سيرفضون؟

ـ من الذي سيرفض يا ولد؟ أكسر خشومهم.

ـ إنّها تعمل معي في المعمل .. وهم يريدونني أنْ أتزوّج نادية.

ـ ٤٦ ـ

بيت العمّ غانم يبدو مضطرباً، سناء تقاوم مغصّ الولادة وهي تركب الى سيارة الأجرة التي جلبها محمد. تركب العمّة والوالدة مع

البنت المكروبة. سيذهب بها زوجها الى مستشفى الزهراء كما حصل مع ولاداتها السابقة، وستنجب له هذه المرَّة ولداً يشبه حلمي. ستقول العائلة عن الخال وابن أخته: كأنّهما حَبَّة مقسومة على نصفين. ومن المفروض أنْ يتزوَّج حلمي من نادية لينجبا في يوم ما بنتاً تشبه نادية!

العمُّ غانم الذي لا يبدو مكْترثاً لما يجري حوله، ينام على سريره في طرف الحوش ويدخِّن ناظراً الى النجوم، أو هكذا ظنَّ حلمي. كانت نادية قد تسلَّمت تعليمات أمّها على عجل قبل أنْ تصفق الباب بوجهها «كملي العجين.. وخاف اتأخر.. أخوانج من ينامون يم التلفزيون گوميهم وخلي ينامون بفراشهم.. مواعين العشة غسليهن و...».

الأولاد لم يناموا في غرفة الضيوف كما هي عادتهم أثناء مشاهدتهم للتلفزيون، لأنَّ ذلك سيؤثر في سير الحكاية، لقد رضُوا هذه الليلة فجأةً بتلك الأوامر التي يصدرها الأب بضرورة الذهاب الى الفراش حين يداهمهم النعاس ولا يتعبوا الآخرين في إيقاظهم. يشاهدهم حلمي يخرجون متثاقلين ليرتقوا الدرج الى السطح حيث فرشت نادية منذ الغروب أفرشتهم فغدت وهم ينطرحون عليها باردة ولذيذة.

دخل حلمي الى غرفة الضيوف وشاهدها تحت المروحة المتباطئة تدخل يديها في الماء الساخن لإنْجَانَة العجين وعيناها مصوَّبتان الى التلفزيون.

* * *

فغرت أمّه فمها حين سمعت منه كلامه عن زميلته في المعمل، قال لها بتردد إنَّه يريد أنْ يتزوَّجها، صمتت ثمَّ سألته بثبات وهدوء،

من أين عرفها، وكيف التقاها، ومن هم أهلها. وحين أجابها قالت وكأنَّها لا تريد أن تقلّب على نفسها المواجع: «على كل حال!».

* * *

كانت صورة كبيرة للإمام عليٍّ تشعُّ في صالة بيت عمِّه غانم، وتواجهها على الجدار المقابل، صورة بنفس الحجم للإمام الحسين وهو جاثٍ على ركبته اليمنى يحتضن جسد ابنه علي الأكبر، وقد غطا وجهه الباكي بيده. توسط حلمي هاتين الصورتين ثمَّ جلس الى نادية. كان الموقف كلُّه يذكِّره بفيلم قديم.

قال لنادية، إنَّه يحبُّ . لقد تعلَّقت نفسه بامرأة ويريد أنْ يتزوَّجها لكن أهله يرفضون، إنَّه يعتبرها مثل أخته، وهو لا يريد أنْ يظْلِمَها معه وبالتأكيد هناك ألف واحد أفضل منِّي يرغب بالزواج منك. لم يخبر سوى أمّه، لكنَّ أباه سيرفض، جدّته قالت له «تزوّج». ثمَّ تحدّثت بحديث طويل.. كشاش.. قسمة، الحراميّة، إلخ. هو لا يستطيع ترك هذه الفتاة، لا يريدها أنْ تفلِت من يده، إنَّها بالتأكيد تعرف ما هو الحبُّ، إنَّه الـ (كلُّ شيء) الذي لا نستطيع التفريط به.. أليس كذلك؟ نظرت اليه نادية مشْدُوهة وأحسَّت بدُوار، أغمضت عينيها، وغاب صوتها في حنجرتها وشاهدت أطيافاً قديمة تتجسَّد أمامها، فيلماً دائريَّاً يبتدئ من حيث ينتهي، يتحرَّك بسرعة هائلة ثمَّ يدخل سيف حادٌّ ليقطعه. لقد أرادت نهاية ما، ولكنَّها لم تتخيَّل أنَّ النهاية ستكون هنا، وبهذه الطريقة، ربَّما هي نائمة، تحتضن إزارها وتحلم، أو أنَّه يمزح، (أخيراً قرَّر أنْ يمزح)، أو أنَّ الأمر كلَّه يجري في التلفزيون أمامها، وهي تهمي بالطحين في الماء الساخن. عصرت كتل العجين فتدفق ليناً من بين أصابعها، ضغطت بيدها فغاصت حتى لامست قاع الإنجانة وبدأت تعصر،

ونحرّك العجين بانفعال في كلِّ اتجاه. استغرقت في العجن صامتةً لساعات، تتحرَّك المروحة وهي تعْجِن فاقدة الرشد، حتى تصلَّب العجين في يديها. هدأ البعوض فوق السطح ونام أخوتها ووالدها، وبدأت نشرة الأخبار، كان صوت حلمي يغادرها شيئاً فشيئاً ثمَّ يعود ويكرّر الكلمات ذاتها، تمتزج مع بعضها وتذوب ثمَّ ترتجف مغادرةً مع حلمي المصدوم من الصمت الذي جوبه به. يتكئ على فُرْضَة الباب ويسحب قدميه بخذلان، ويستشعر ألماً في ركبته اليسرى وكأنَّ الرصاصة التي اخترقتها في الـ(٩١) مازالت هناك.

* * *

الممثِّل الوسيم ذو الملامح المصقولة يقف مع مديحة كامل تحت شجرة يحرِّكها هواء الصباح بهدوء، يرفع يديه ثمَّ ينزلهما بانخذال وينظر بأسى الى وجه مديحة ثمَّ يقول: إحنه لازم نسيب بعض. مديحة الهادئة تنفعل فجأةً وترشقه بكلمات قاسية متهمة إيَّاه بالجبن وأنَّه لا يستحقها. كانت تعرف هذه النهـاية ولقد جاءت الى الموعد أصلاً كي تخبره بأنَّه لا يستحقها. والحمد لله أنَّنا على البر، الحمد لله أنَّها كشفت حقيقته قبل فوات الأوان.

ـ ٤٧ ـ

[ما الذي لديَّ من أعمال، إنَّ الوقت فائض ومبذول هاهنا، اقلّب دفتر حكايتي، وقبل أنْ أكمل شيئاً فيها تستهويني رغبة إحصاء الكلمات. اكتشفت أنَّ كلمة (نهاية) تكرَّرت في حكايتي حتى الآن ٢٩ مرةً، مقابل ١٣ مرةً لكلمة (بداية) وهذا رقم مشؤوم كما يقال. أحتاج إذنْ الى ١٦ بداية جديدة كي تنحسر أطياف الموت عنِّي. ثمَّ أحتاج بعدها الى التفكير جدياً بما يضادد الرومانتيكيّة التي تسربل

الأشياء، الى ما ينقض البدايات والنهايات. فليست الحياة في حقيقتها حكاية متسقة، بقدر ما هي خليط متشابك يتمرَّد على التماسك التي يريد أنْ نطمئن له. إنَّ الحياة في النهاية ليست مكاناً للقبض على الطمأنينة أبداً].

ـ ٤٨ ـ

يدخل حلمي الى معمل الحلويات صباحاً، ويشاهد صديقه جميل گيطان ينفصل عن كتلة العمال الداخلين ويتّجه الى غرفة المدير، لقد تغيَّب ليومين لسبب مجهول، ربَّما مرض أو مشكلة ألمَّت به. وما يعرفه حلمي أنَّ صاحب المعمل لا يتساهل أبداً في قضية التغيُّب عن العمل، وقد طرد الكثيرين لهذا السبب. مرةً شاهد رجلاً أشيبَ يتحدَّث مع مدير المعمل وهو يتّجه بخطوات متباطئة الى الخارج حيث سيارته الفارهة، كان مدير المعمل يدخِّن بهدوء ويستمع الى الرجل الأشيب من دون أنْ يلتفت إليه، وحين وصل الى سيارته تحرَّكت شفتاه بكلمات قليلة ثمَّ جلس وراء المقود وأغلق الباب. كان الرجل الأشيب واحداً من الذين أنهيت خدماتهم بسبب التغيُّب، وبعد أنْ توسَّل الى المدير، قال له إنَّ هذه القضيّة من مسؤولية الإدارة، وهو مثله موظَّف عند صاحب المعمل!

يرمي حلمي كيس غدائه قرب الآلة الضخمة ويجلس على الـ (ستول) ذي غطاء الجلد المتهرئ، ويجيل ببصره في المكان قبل أنْ يشرع في تشغيل الآلة، سيحتاج لدقائق كي يبعد النعاس عن رأسه، وينتظر قدوم ندى مع رفيقاتها، لتمرَّ من جواره وتلقي عليه تحيّة الصباح. تتحرَّك آلات بعيدة، بإيقاع محتدم، مبتدئة مهمّتها في ملء أذنيه بصخبها النهاري. ومرَّت من خلفه، مع بعض العاملين،

الحاجة أمينة، والتي يقال إنَّها وحدها من يعرف خَلْطَة الشوكولاته، وخلطة المواد المطيِّبة الداخلة في تركيبة باقي أصناف الحلوى التي ينتجها هذا المعمل. إنَّها لا تمكث في العادة سوى ساعتين أو ثلاثة، مغلقة الباب في مختبرها الخاص الذي ليس سوى غرفة صغيرة غير نظيفة مزدحمة بأشياء كثيرة، تعكف على إعداد الكميّة المطلوبة لإنتاج الشفت الصباحي ثمَّ تغادر، ويتولّى باقي العاملين معها مزج التركيبة بباقي المواد، قبل دفع العجينة النهائيّة الى مفاصل الإنتاج الأخرى.

هناك حلوى كثيرة في السوق. نساتل بنوعيّات مختلفة، وشوكولاته، وأصناف وتسميّات لا يمكن إحصاؤها من الملبس وحلوى الجوز والسمسم. والمعامل الصغيرة والكبيرة تتنافس في شغل مساحة أكبر من اهتمام المتبضِّعين. ورغم الوضع الاقتصادي المغلق بسبب الحصار، إلَّا أنَّ الحركة لا تكاد تهدأ. وما يشاع هنا في المعمل أنَّ سرَّ نجاح منتوجه يكمن في الخلطة المميّزة التي تدخل فيها مواد لا يعلمها إلَّا الله، والموثوق بهم من العاملين الذين يشكِّلون النُّخبة التي يرتكز عليها المعمل. وعلى رأسهم الحاجة أمينة. يستغرق حلمي أثناء عمله مع صورة يتخيّلها: الحاجة أمينة ستخرج بعد قليل من مختبرها، وتجلس كالمعتاد مع المدير قليلاً قبل أنْ تغادر المعمل، تقف عند الشارع بانتظار سيارة أجرة، وفي هذه الأثناء تنبثق من وسط الشارع بيك آب قذرة ذات بدن صدئ مُخَلَّع، تحمل الخضار، يقودها سائق أهمل إدامتها وتنظيفها، تحت وطأة انشغاله بجمع النقود من الليل حتى الليل، تصعد البيك آب الرصيف وتمرُّ بسرعتها المباغتة من جوار بعض السابلة حسني الحظِّ، ثمَّ ترتطم بالحاجة أمينة ذات الجسد الرجراج الثقيل وتقذفها في الهواء

لتهوي فوق سقف منطقة الباص. ماذا سيحدث حينها؟ هل سيتوقفون عن العمل؟ من سيصنع التركيبة بعدها، من يعرف السرَّ غيرها؟ من غير المعقول أنَّها وحدها من يعرف ذلك. لابدَّ أنَّها قد بلغت وعلى رؤوس الأشهاد أنَّ فلاناً ابن عِلّان هو وريثها، وهو من يحمل السرَّ بعدها. فبهذه الطريقة وحدها سيستمرُّ السرُّ جيلاً بعد جيل الى أنْ يكفَّ الناس عن أكل الحلوى نهائيّاً.

يلمح حلمي صديقه جميل گيطان وهو يخرج من غرفة المدير ويتّجه بكيس غدائه الى الباب الخارجي، فيحزن مع نفسه. الى أين سيتّجه هذا الرجل الآن؟ إنَّه حتماً سيفكِّر أثناء سيره على الأرصفة، ببيك آب عمياء تخرجه من هذه الحياة السيئة. حلمي سيفعل ذلك حتماً لو كان مكانه. ولهذا، تخيَّل منذ برهة من دون قصد ما سيكون عليه مصير الحاجة أمينة. سيمنح مدير المعمل، بسبب الظرف الطارئ، إجازة مفتوحة للعاملين. لن يفصلهم جميعاً، هي مجرد أيام معدودات، حتى يظهر وريث سرِّ التركيبة الجديد، ليستأنف المعمل عمله المعتاد.

تدخل ندى الى المعمل وحدها، تتقدَّمها ظلالها الطويلة مرسومة على الأرضية الخراسانية، تقترب منه وهو سارح الذهن، تلتفُّ من وراء آلة التغليف وتلقي عليه التحيّة، فيرفع بصره متفاجئاً، ويردُّ وعيناه تتراقصان فرحاً. نظرت الى حيث زميلاتها في أقصى القاعة، كأنّها تتأكّد من مجيئهن، ثمَّ عادت اليه. لم يعتد منها أنْ تقف معه في وقت كهذا، كان وجهها ينضح آثار النعاس، وقد اكتسى على عجل بلطختين أو ثلاثٍ من الماكياج، نظرت الى يديه البيضاوين وقالت: «لقد فكَّرت البارحة كثيراً». رفع بصره من آلة التغليف منصتاً. فوجدها تلتفت الى صديقاتها في أقصى القاعة ثمَّ

،ود اليه، وتغيّر من نبرتها فتغدو أكثر حسماً. تختلط أصوات المكائن مع صوتها، ويرى شفتيها الجميلتين تتحرّكان وحاجباها ،هوّسان ثمّ ينكمشان، تدير وجهها أثناء كلامها وتحرّك يديها، وهو ،هيبها رافعاً صوته، يصمتان داخل الضوضاء ثمّ يستأنف كلامه، فبتعد بخطوتين الى الخلف، تنظر الى زميلاتها المنشغلات، ثمّ الى باب غرفة المدير، وتعود لتنظر اليه وهو يحاول أنْ يفهم الموضوع. صمتت منصتة اليه ثمّ أمنت برأسها كإشارة ختاميّة، وابتعدت عنه، تاركةً إيّاه وسط ارتباك شديد. نظر اليها وهي تمرُّ من بين أكياس المواد الأولية وعلب الكارتون ثمّ تقف في آخر القاعة وتلقي بحقيبتها وكيس غدائها قرب خزانة حديديّة وتنظم الى باقي رفيقاتها.

كانت مجموعة من قطع الشوكولا قد أفلتت أثناء ذلك من الآلة من دون أنْ ينتبه. رفعها وأعاد نظمها مع باقي القطع الطريّة المتّجهة الى فوهة التغليف. قلّب كلماتها في رأسه، ثمّ رغب لو يذهب اليها لاستئناف حديثهما، لم يكن يتوقع هذا التغيّر المفاجئ لديها. وود لو كان لديه متسع من الوقت، ليتحدَّث معها بعيداً عن هذا المكان. لكنَّها رفضت عروضه السابقة، في الذهاب صباح الجمعة الى مكان ما. فلْتتحجَّج لعائلتها بأيِّ حُجَّة، من أجل أنْ يلتقيا في مكان آخر غير المعمل، لكنَّها ترفض بحزم، وكأنَّها تخشى من شيء. شتم المعمل في داخله، والعمل المبهض. ومن أجل ذلك يتخيَّل دائماً مصيراً بشعاً للحاجة أمينة. إنَّه يريد الانعتاق ولو لفترة من هذه الضوضاء وهذا الوقوف الممضّ من الصباح وحتى المساء، يريد أنْ يرى الظهيرة ليوم واحد على الأقل. وأنْ يجلس مع ندى تحت النهار ويُفْرِغَان باسترخاء ودونما عجل كلَّ ما لديهما من كلمات.

لم تكن لديه سوى صورة مختزلة عمّا تعانيه ندى. أخٌ وحيد

مسافر، وأمّ مريضة وأبٌ توفي مؤخراً. وهي المعيل الوحيد للعائلة. لم تخبره رغم كلِّ رومانسياته الخجولة بأنّها تحبُّه، لكنَّه لا يحتاج أنْ تصرح بذلك حتى يعرف، استجابتها له كانت كافية، وهو لا يخطئ تلك الأطياف التي تمرُّ في نظرتها اليه، إنَّها تشعره بخصوصيّة معينة، فضلا عن أحاديثها التي تشير الى أمر لقائهما وكأنَّه قضيّة محسومة، وقدرٌ يجب عدم الفرار منه. في اليوم السابق تحدّث لها عن عائلته وأنَّه يريد مفاتحتهم حتى يأتوا معه لِخطْبَتها.

وفي الليل فكّرت كثيراً. كانت قد أخبرت أمّها في وقت سابق، حين نَمَّ اليها من بعض النساء أنّها تدخل الزقاق معه. يا إلهي .. لقد فعلت ذلك لمرَّة واحدة، نتيجة إلحاحه الطفولي، كيف تصيّدتهما الأعين؟ مرَّ في ذهنها هذا السؤال وهي تؤكد مستسلمة ما سمعته الأم. ولكنْ، لم يبدُ على الأمّ أنّها قد انزعجت كثيراً لتوكيد ابنتها، وبدلا من ذلك سألتها عن (الولد)، وأين بيتهم، ومن هم أهله، وكانت ندى تجيب بإيجاز والأمّ منشغلة بإعداد طعام العشاء في المطبخ، وبدا لندى بسبب الاستجابة الفاترة من أمّها، أنَّه ما من مشكلة هناك، وفي الأيام اللاحقة تأكد لندى أنَّ الأمّ معنيّة بشيء واحد، زواجها. تريد أنْ ترى ابنتها وقد تزوَّجت، قبل أن تغيِّم سماء حياتها وتفوتها فرصة اللحاق بالناس! كما كانت تقول. ولم تعد الأمّ الى سؤال ابنتها عن شيء ثانيةً، ولم تعرف ندى أنَّ الوالدة قد انشغلت بعد تلك الليلة بـ (شَمْشَمَة) الأخبار عن الولد، فعرفت من نساء الحي، كلّ ما تحتاجه عن الولد وأهله ووضعهم الاجتماعي، ليست هناك شائبة تشوب الولد، لكنَّ ما أقْلَقَها هو الكلام الذي قيل لها .. أنَّ الولد (خاطب بنت عمّه منذ الأزل).

ـ إنَّه لا يريدها.

ـ هو من قال لك ذلك؟

ـ لقد أخبر عائلته بأمر زواجه منّي. .

ـ عيني. . بنيتي، ديري بالچ. . لا تخلينا علچ بحلوگ الوادم.

ـ إنَّه يريد أنْ يقابلك.

كذَّبت على والدتها، ولم تفكِّر كثيراً، وجدت نفسها تنطق هذه الكلمات، لأنَّها لاتريد أنْ تبرِّر لها كلَّ أفعالها أو تشرح شيئاً. وهاهي قد أخبرته بما جرى مع والدتها، وعليه أنْ يحسم أمره إنْ كان حقّاً يرغب بالزواج منها. أهله. . أمّه وأبوه؟ إنَّها مشكلته وليست مشكلتها، ومن أجل ألَّا تصدع رأسها بكلام زائد، قرَّرت ألّا ينزلا سويَّة أمام زقاق السادة بعد الآن.

خرجت الحاجة أمينة من مختبرها ومرَّت من ورائه وهو مشغول البال بكلام ندى المفاجئ. ثمَّ انحرفت حول آلة التغليف ومرَّت من أمامه متجهة الى الباب. وبعد لحظات من اختفاء كتلتها الرجراجة في مربع الباب المضيء، سمع حلمي وسط احتدام الآلات في المعمل صوتاً حاداً ومديداً يأتي من الخارج لإطارات تتوقف على الاسفلت بعنف.

ـ ٤٩ ـ

يتخيَّل خليَّة نحل عملاقة، وهو مع باقي العاملين يحملون الرحيق اليها من الصباح وحتى المساء، ثمَّ يخلدون للنوم، في اللحظة التي يبدئ العمل فيها عمال آخرون. تمتلئ الأقراص السداسيّة بالعسل، ويأخذه صاحب المعمل وحده. جميل گيطان تأخَّر في جلب الرحيق. . « جميل . . OUT». أذهب الى الجحيم يا صديقي.

سوف لن يعود جميل گيطان الى المعمل ثانيةً، ولن يتمكّن حلمي من رؤيته خلال الأيام اللاحقة، وكأنَّه خرج من باب المعمل ليذوب في العدم. يفكِّر حلمي برفيقه الذي ساعده ويشعر بالأسى لأجله. تذكَّر صديقه عيدان، الذي كان يقول له، إنَّ الإنسان الذي لا يرى كلَّ ما في الحياة، موته خسارة. ثمَّ قسَّم في ذهنه البشر على صنفين، أولئك الذين يصنعون الحياة، وأولئك الذين يستهلكونها، أولئك الذين ينظِّفون المسرح وأولئك الذين يرقصون عليه. وبالتأكيد هو من الصنف الأول.

- ٥٠ -

يفتح دفتر الرياضيات ويكتب رسالة لن ترسل الى صديقه عيدان:

لا أعرف ما الذي عليَّ فعله بالضبط. الاضطراب يعتور كلَّ شيء حولي، لقد تغيَّرت نـود فجاةً، ابتسامتها الوديعة، وعيناها السوداوان، وجهها الملائكي، ماذا أقول، لقد تغيَّرت، إنَّها لا تريدني أن أكلمها أثناء العمل، خشية كلام الناس السيء، وتسرع عند انتهاء الدوام مارَّة من أمامي، وحين ألحقها أجدها قد غادرت في إحدى السيّارات. حين اسألها صباح اليوم التالي، تعتذر ببرود، ثمَّ تستأذن لتعود لعملها. لم تكن هكذا في البداية، ما الذي حصل منِّي لأجل هذا الجفاء؟

لقد كلَّمت أهلي بشأنها كما أرادت، لكن لم يبدُ أنَّهم صدَّقوا كلامي، ظنُّوا أنَّني أمزح، لم أمزح معهم سابقاً، لم يكترث أبي لكلامي، وقال بعد إلحاحي أنَّ ظرفهم لا يساعد الآن على الزواج أو ما شابه، لم أعرف بالضبط رأيه في عدم الزواج من نادية، وتركني أهذي ليتابع المسلسل العربي وهو يدخِّن.

اردت انْ أغضب وأنفعل وأصيح، لكنّي لم أفعل ذلك سابقاً، واكتفت أمّي حين نظرت اليها برجائها الخافت أنْ أنسى الموضوع لئلا تحصل مشكلة. لقد أخبرت نود بكلِّ هذه التفاصيل، لكنّها لم تبدِ مكترثة أيضاً، وكأنَّ ما يهمُّها هو النتيجة فقط، هل سأحضر مع عائلتي لخطبتها أو لا ؟

صباح اليوم، وقبل أنْ أخرج من البيت، سمعت سناء تتكلَّم مع امّي في الحوش، كان صوتها خفيضاً، لكنّي سمعت كلَّ شيء، إنَّ مشكلةً ما حصلت في بيت عمّي، نادية أصيبت بالخرس أو ما شابه، ولا يعرفون ما الذي حصل لها. تدفَّق الدم في رأسي، وأردت أنْ أسأل سناء مباشرةً، لكنّي خفت أو ربَّما خشيت أنْ أتهم بشيء، وأكاد أعرف تماماً مع نفسي لماذا أصيبت نادية بالخرس، لقد غدا وجهها مساء اليوم الذي كلَّمتها فيه، وجه فتاة خرساء.

أين أنت الآن ياصديقي العزيز؟ لقد بحثت عنك، أحتاج الى الثرثرة معك، لا بدَّ أنَّك في مكان ما حولي، ربَّما ركبنا السيارة نفسها في يوم ما من دون أنْ يعلم احدنا بالآخر، ربَّما انت تمرُّ الآن في زقاق السادة، ويرتسم على وجهك لثوانٍ الضوء المنبعث من شبّاك غرفة الخطّار في بيتنا.

لقد شعرت بالذنب لأنَّ صاحب المعمل طرد جميل گيطان، لماذا شعرت بالذنب؟ لا أعرف، ولكنّي حزنت لأجله، هل كان جميل حزيناً لأنّه ترك العمل؟ ربَّما كان سعيداً، لا أعرف. أصبح يوم العمل ثقيلاً فجأةً، كانت نود تخفّف عنّي. مجرد نظرة عابرة بين حين وآخر الى وجهها بين العاملات تبهجني وتنسيني القرف المتواصل لاثنتي عشرة ساعةً من العمل المملِّ. مجرد جلوسها معي في السيارة عند المساء، يجعلني أتلهف للمجيء للعمل صباح الغد.

ربَّما اكتشفت أنَّني أحبُّ الكلام فقط، وأنَّني غير قادر على فعل شيء، لكنِّي لا أثرثر كثيراً أمامها، أنا في العادة أنصت لها، أتعبد بوجهها.

أين انت أيُّها الصديق، إنَّهم لا يكترثون لي ابداً.

ـ ٥١ ـ

الرسالة الثانية:

أردت أنْ اكتشف مشاعر جميل حين ترك العمل. فتحت عيني ورفعت ساعتي اليدويّة، وعرفت أنَّه موعد نهوضي اليومي، لكنَّ جسدي لم يستجب، هل تمرَّد جسدي حين لم أتمرَّد أنا؟ ولكنْ ما معنى انْ أتمرَّد، الّا يجب أنْ يكون هناك هدف ما حتى أتمرَّد من اجله، أم أنَّ التمرُّد يقتضي عدم الإيمان بأيِّ هدف؟ لا أعرف. لكنَّ جسدي يعرف شيئاً بالتأكيد، إنَّه لا يطاوعني. أتقلَّب في الفراش، فأشعر بأسياخ ناريّة تمزِّق ظهري، أه، قدماي أيضاً، أرفع رأسي فلا يتحرّك أبداً، كأنَّ أحداً ما أبدله أثناء الليل بصخرة كبيرة، أسمع ضوضاء أطفال أختي سناء خلف الباب، وشحط نعلي والدتي، ثمَّ صوت راديو من الجيران، تمرُّ الدقائق ولا يفتح الباب عليَّ أحد، أرفع ساعتي أمام عيني وأجد أنَّ العقربين قد قفزا قفزة كبيرة، أغمض عيني، فينطفئ كلُّ شيء.

فتحتهما، فوجدت ضوءاً حادَّاً يكسو الغرفة، كان أحدهم قد فتح عليَّ الباب ولم يغلقه، رفعت ساعتي أمام عيني، فوجدت أنَّ العقربين قد حلَّقا الى مكان بعيد. أتخيّل ما الذي يحصل الآن في المعمل، كرسيي ذو الجلد المتهرئ فارغ، ونـود تعمل مع زميلاتها من دون أنْ تكلِّف نفسها النظر إليه، لن تسأل عنِّي، إنّها لا تحبّني،

ا هنني، آه، أنا مملٌّ، أنا سيء الحظ، أنا مريض جداً، أنا يائس، انا ميت إلّا قليلاً.

* * *

صباح هذا اليوم طلبني مدير المعمل. كنت قد وقفت لتوّي أمام الي كالحة اللون، لم أضع بعد كيس غدائي بجوارها، وعرفت بسرعة لماذا طلبني مدير المعمل. لقد تغيَّبت ليومين، وسيفصلني، وماذا غير ذلك؟ لن يفهم أنَّني كنت مريضاً نوعاً ما. نظرت الى مكان عمل نـود فوجدتها هناك تحمل كارتونة فارغة وتركنها في إحدى الزوايا، نظرت اليها مليّاً، واكتشفت بألم أنَّها لم تعد نـود، أنها ندى فقط، انعصر فؤادي، وتخيّلت مقدَّمة إحدى الأغاني تعزف من حولي بدلا من هذا الصخب الحيواني للآلات الميتة. طويت كيس غدائي بيدي، واعتصرته، كان ليناً ودافئاً، نسيت نفسي لثوان، واحسَّ زميلي الذي أبلغني بخبر طلب المدير لي بأنَّني تجاهلته، فأعاد عليَّ كلامه، فالتفتُّ اليه وقلت وأنا أطمئنه إنَّني سأحضر. ولكن.. آه.. لا أستطيع الاستمرار في عمل كهذا، أنا لا أعرف ما هو النهار، الأرصفة، الشوارع، الحافلات، الأشجار، التراب، الهواء، الناس، العصر، الظهر، الحدائق، الباب الشرقي، العلاوي، النهضة، باب المعظم، المقاهي، المعارض، لا أعرف أيّاً من ذلك، سأموت من دون أنْ تتاح لي فرصة الهرب من حياتي. ليس لديَّ أصدقاء، لم أرتكب حماقة، لم آكل لفَّةَ فلافل واحدة منذ زمن طويل، لم أشرب ببسي، لم أضيّع ثانيةً واحدةً. أو أنَّني أضعت الثواني كلَّها.

أخذت كيس غدائي، وطويته وعجنته بيدي، ثمَّ اتّجهت الى الباب، سمعت صوتاً من خلفي ينادي على اسمي، لكنَّه، للأسف،

لم يكن صوت نـود أو ندى، التفت فوجدته أحد الزملاء، أشار بيده الى غرفة المدير. يا إلهي، ما الذي يدفع هذا الرجل الى الإلحاح هكذا؟ حرَّكت له رأسي من بعيد مطمئناً إيَّاه، ثمَّ أكملت بانزعاج مسيري نحو الباب، خَفَتَ صوت الآلات في أذني شيئاً فشيئاً، ثمَّ اختلط بأصوات العالم الخارجي، ثمَّ حلَّت الأصوات الجديدة محل الأصوات الميتة. وطأت بقدمي على ارض موحلة ثمَّ على ورقة خسّ، ثمَّ على كيس بلاستيكي قذر، ثمَّ على بقع شاي أمام جنبر حديدي لبيع الشاي والحامض، ثمَّ على علبة سجائر أجنبية، ثمَّ على صورة كبيرة لمدينة بشوارع نظيفة وبيوت مربّعة الشكل وأشجار خضراء مستنسخة عن بعضها.

ـ ٥٢ ـ

الرسالة الثالثة:

عزيزي عيدان، أنا آسف، لأنّني استحضرك هذه الأيام. لست متيقّناً تماماً من قيمة ما أفعل، أكتب أو أُشَخْبِط أو ارسم دوائر وخرائط لبلدان غريبة. نهضت في العاشرة، أرتديت ملابسي ثمَّ خرجت، لم تسألني الوالدة أيَّ شيء، وكان أبي قد غادر فجراً الى عمله في مصلحة نقل الركاب. خرجت من الزقاق، وحزنت حين وقفت في المكان الذي اعتدت على الركوب منه صباح كلِّ يوم الى معمل الحلويات، لا أستطيع نسيان نـود. لقد تركت العمل في معمل الحلويات، وتخيّلت أنَّني أعاقبها بذلك، هذا سلوك أطفال، حتى إنَّها لم تعرف حينها أنَّني تركت العمل، ربَّما ستفاجأ حين تكتشف ذلك، لكنّي لا أعرف تماماً، هل سأتقصد رؤيتها؟ أقف عند ركن زقاق السادة في الساعة المحدّدة لوصولها كلَّ يوم وأحاول الحديث

معها؟ لكنّها لم تعد نـود، ستكلّمني بجفاء، كيف سأتكلّم معها وهي ليست نـود، ولكنْ، لماذا سأستوقفها إذا لم تكن نـود، لماذا أنا منشغل بها هكذا إذا لم تكنْ نـود؟

* * *

إنَّه يوم غريب، تمنّيت لو أنَّ كلَّ الأشياء في حياتي تحصل بهذه الطريقة. ذهبت الى باب المعظم، ومن هناك سلكت باتجاه شارع الرشيد. كان الجو ساخناً رغم الوقت المبكر. كنت أريد التسكُّع لا اكثر. مرَّرت من بين الحافلات الحمراء المصطفة في ساحة الميدان وتناهت إليَّ موسيقى ولغط التلفزيونات والراديوات من المطاعم والمحال، وأنا أسلك بين بائعي الصحف وصباغي الأحذية، وجنابر السجائر. أتحسّس ألماً في رقبتي، وخمولاً محبّباً. ربّما هكذا شعر جميل گيطان حين ترك العمل، أشعر الآن بأنّي غير معنيٍّ بالوقت، غير معنيٍّ بانقضائه أو ضياعه، لا يشغلني شيء مهم، وهذه هي الراحة العظمى.

أثارتني بسطات الكتب الكثيرة المتوزعة بين الأرصفة في شارع الرشيد حتى بداية شارع المتنبي. ومن هناك بدا لي وكأنَّ قروناً مضت منذ أنْ وطِئت قدمي هذا المكان آخر مرَّة، نفق بشري طويل ينتهي ببناية عظيمة، كتب كثيرة مختلطة ببشر أكثر، ووجدت نفسي أنحرف داخلاً في هذا الحشد الكُتُبِي.

وجدت كتاب (راسبوتين) بين الكتب في إحدى البسطات، قلَّبته، وتذكَّرت ذلك اليوم الذي استعرته فيه منك يا عيدان، المفارقة أنّي لم أقرأه ابداً، لأنّي انشغلت بالامتحانات حينها، ثمّ لم أقرأه، لأنّي كلّما نظرت اليه، تذكّرت فاجعة رسوبي.

حين ألقيت (راسبوتين) الى الأرض، وابتعدت لإكمال مسيري،

تخيّلت وأنا أنظر بين وجوه السابلة والمتبضّعين، أنّني أرى وجهك الأسمر، بلحيتك الصغيرة المفرَّقة على جانبي وجهك، وجبهتك الضيقة، سمعت صوت أذان بعيد، ربّما هو قادم من الحيدرخانة، او من أحد الراديوات، والتفت الى بداية النفق، فوجدتك هناك تنظر الى الأرض، بين مجموعة من الأشخاص، تمسك بيدك كتاباً، تدقّق النظر الى العناوين المعروضة، ثمّ تنحني لترفع كتاباً، إنَّه شيء غريب، هل انبثقت أخيراً نتيجة إلحاحي، هل جئت تلبية لرغبتي العميقة، أم انّني أتخيّل فقط؟

أقترب منك، وأمسُّ بيدي على كتفك، فتلتفت، وأرى المفاجأة في وجهك:

ـ حلمي الملعون..

تحتضنني ونضحك معاً، ولا تترك يدي. تسحبني وتمطرني بالأسئلة، فأجيب، وأنا أتحاشى الاصطدام بالمارَّة، تحلف أنّك لن تتركني اليوم، وأُقَلِّب عيني في هيئتك الجديدة، انت نفسك، لكنّك لست أنت في الوقت نفسه.

ـ ٥٣ ـ

ـ وينه هذا اللي تگولين عليه؟ مو گلتي راح يجيب أهله ويجي؟

ـ لقد ترك العمل.

ـ يعني شنو؟

ـ لا أعرف.

ـ لازم تعرفين، إنتي مو تگولين عنه خوش ولد؟ ليش ضيعتيه بنيتي؟ آني بس ردتج اتديرين بالچ، خاف سمعتيه احچاية موزينه وزعل؟

ـ أخبرته بالمفيد.

ـ يعني ما چان رايد يخطبج؟

ـ لا أعرف.

ـ لازم تعرفين.

ـ ٥٤ ـ

لم يدخل عيدان الى كليّة الطّب كما كان يحلم، فانتهى به الأمر ان يدرس علم الاجتماع، تخرَّج ثمَّ خدم في الحرس الجمهوري. وبعد انْ تسرَّح من الجيش، انتقل مع أهله من حي الأكراد قرب ساحة الـ(٥٥) الى الأورفلي، إنَّه لا يعمل الآن، لا يفعل شيئاً سوى كتابة الشعر. هذا ما فهمه حلمي من صديق دراسته نهار ذلك اليوم حين التقى به صدفةً. قاده من يده وأجلسه في مقهى حسن عجمي، وخمَّن حلمي أنَّ هناك موعداً مسبقاً بين عيدان وأشخاص آخرين، كانوا قد ملؤوا المكان حول المنضدة، نزلت الشايات، وأوقدت السجائر، وتلاحقت الأحاديث التي كان حلمي منصتاً لها فحسب. كان يتوقَّع لقاءً أكثر حميميَّة، يأخذه صديقه الى مكان مفتوح مثل حديقة مستشفى الچوادر، يجلسان ويستذكران الأيام الخوالي، يسأله عن مشاغله وأحلامه، ويبهجه بشطحاته الغريبة.

أمضى حلمي وقته منصتاً لأحاديث الأشخاص الجالسين على التخت بجواره، وسمع صديقه ينبري أكثر من مرَّة للدفاع عن شخص اسمه ابولنير، يرفع عيدان يده ويهتف «يسقط غيوم.. يسقط غيوم»، ويضحك رفاقه، ولا يفهم حلمي شيئاً، أناشيد مالدرور، وفصل في الجحيم، إنَّه هذا الفصل حتماً حيث الشمس عموديّة تماماً.

أحسَّ حلمي مخذولاً، بانَّ صديق دراسته لم يبدُ متلهفاً كثيراً

للقائه، وغير شاكر للصدفة التي جمعتهما ثانيةً، حتى أنَّه لم يذكر أيا شيء عن محاولة أو ما شابه قام بها للبحث عنه طوال السنين الماضيّة. أراد أنْ يكلّمه عن مشاغله وآلامه الشخصيّة، ولكن الوقت لم يبدُ مناسباً لذلك، سيلتقيان ثانيةً حتماً، وفي مكان آخر بالتّأكيد، أكثر هدوءاً وحميميّة. وليكن أكثر صبراً في هذه اللحظة، فما الذي وراءه، لا شغل ولا عمل. انحرفت الشمس عن منتصف النهار بكثير، وخرج عيدان مع اصدقائه يتبعهم حلمي من المقهى واتّجهوا الى الميدان. دخلوا في أحد المطاعم، وأكلوا وهم واقفين ساندويتشات سريعة، وشربوا البيسي، وبدا عيدان كريماً مع صديقه، فطلب منه أنْ يأكل لفَّة ثانية، لكنَّ حلمي ذا المعدة الصغيرة امتنع شاكراً، ثمَّ وهم يخرجون الى الهواء من جديد مدَّ عيدان يده بسيجارة الى صديق دراسته، فامتنع حلمي ثانيةً، موضحاً بأنَّه لا يدخِّن. دسَّ عيدان السيجارة في فمه وأوقدها من قدّاحة صغيرة وسحب نفساً سريعاً وأطلق الى الأعلى نافورة دخان بيضاء، ثمَّ رمق صديقه مبتسماً وكأنّه يقول له.. أنظر الى الدخان، إنَّه دخان أليس كذلك؟

(ما الذي تفعله؟ عملك .. ما عملك؟.. أين تشتغل؟ هل تزوّجت؟)

ساله أخيراً دفعةً واحدةً أسئلةً يحتاج حلمي الى نهار كامل لكي يجيب عليها، لكنّه اكتفى بإشارات مختصرة لم يتوقف عندها عيدان كثيراً، حيث استأنف أحد الأصدقاء أثناء مسير المجموعة نحو الكراج الحوار السابق، والذي لم يبدُ أنَّهم قد اتّفقوا بشأنه على شيء محدّد.

(سنلتقي .. أنا لدي شغل الآن.. غداً جيد؟.. أنا عادةً أكون

ار الواحدة ظهراً في مقهى أم كلثوم .. تعرفه .. هناك في بداية ا ار ع الرشيد.. ضروري أجلس معك.. لم نتحدث بما فيه الكفاية.. اليوم انا مخبوص.. لدينا موضوع.. بالمناسبة، هل ما ا ، تكتب؟ .. كنت تكتب قصائد وقصص، هل تركت الكتابة؟ إذا كان لديك شيء فأجلبه غداً)

سلك حلمي طريقه بين السابلة الذين يملؤون الكراج متّجهاً نحو سيارات الجوادر. توقف على أحد الأرصفة بجوار صِينِيّة للدَاطْلِي وضعها على الأرض أحد الصبية، وتأمل الزحام على السيارات، مقلّباً في ذهنه أجزاء من حواره مع صديقه. بعد برهة، برزت عند المدخل سيارة اوتومارس طويلة عرفها حلمي في الحال، ها هي تدخل في المضمار المخصّص لسيارات الجوادر، ويتراكض نحوها الناس. لم يجد حلمي في نفسه الهمّة للركض باتّجاهها، واكتفى بتأمل المشهد أمامه. إنّها السيارة نفسها التي ركب فيها مع نـود أول مرّة، هل هو قادر على التذكّر الى هذا الحدّ؟ ربّما هناك أكثر من سيارة شبيه بهذه. لكنّها السيارة نفسها. توقّفت أخيراً، وبدا أنّ هناك رُكّاباً يحاولون النزول، إلّا أنّ الازدحام على الباب يمنعهم من ذلك. نزل الأشخاص أخيراً، امرأة كبيرة وطفل وفتاة شابة تغطّي شعرها بفوطة بيضاء. بدأت تنفض ملابسها، يا إلهي.. نـود. مرّت العائلة من جواره، وحمد الله أنّها لم تكن هي.

ـ ٥٥ ـ

توقف عن كتابة الرسائل في دفتر الرياضيّات، كان يكتبها لصديقه عيدان، وها هو بجواره، فما الذي يدفعه لكتابة رسائل اليه بعد الآن. سيخبره بكلّ لواعجه مباشرةً، تفاصيل حكايته مع نـود.

يقلّب في أوراقه، ولا يجد شيئاً مهمّاً، لقد طلب منه عيدان أنْ يجلب ما يكتبه، وليس لديه هنا سوى هذه الرسائل، سيعطيها له. ربَّما ستؤثر فيه هذه الرسائل، ستجعله يفهم صديقه، ويقدّر لقاءهما الجديد حقَّ قدره.

جلس في مقهى أم كلثوم طاوياً دفتره بيده، وطلب شاياً، ولم يكن صديقه قد أتى بعد. تأمّل وجوه الزبائن، كانت حياديّة، أو خاملة. هناك رجل أشيب نحيف، له لحية منْتُوفَة، وشعر مسترسل، وظهر مستقيم، يرتدي بدلة حائِلَة اللون، لكنَّها نظيفة، يقلّب كتاباً في يده. هذه إشارة أولى الى الجو الذي يريد عيدان أنْ يدخل صديقه فيه. يقلّب الرجل الأشيب كتابه بوقار، ويقرقر من ذراع النارجيلة في يده الأخرى. ويكتسي فضاء المقهى شبه المعتمة بالصوت الأزلي لأم كلثوم، التي ازدانت الجدران بصورها الكبيرة مع صور مطربين آخرين. يرتشف حلمي من الشاي، ويقلّب الرجل العجوز كتابه ويطلق الدخان، وتحلّق أم كلثوم باسترخاء حنون مالئة الأجواء حتى حدود الضوء الباهر على الأرصفة المقابلة. يقلّب حلمي الدفتر بيده، ثمَّ يشرع في القراءة، يتوقف عند جملة كتبها فيما مضى، فيشعر بالخجل منها، يخرج قلمه الجاف، ويشطبها، ثمَّ يستغرق أكثر في قراءة الصفحات الباقية. تستهويه هذه القراءة النقديّة، فيشرع في شطب جمل كثيرة لا يجد فيها سوى بكائيات ثقيلة، لن تناسب ردَّة الفعل التي وجدها لدى صديقه القديم الجديد. ثمَّ ها هو يمزّق إحدى الصفحات، ثمَّ يمزّق أخرى، ويرفع بصره الى الباب، متوقّعاً حضور صديقه. يرجع الى كلماته ثمَّ يدخل شخصان أو ثلاثة ويمرقان من أمامه، يرفع رأسه، ويكتشف أنَّ الرجل الأشيب ذا البدلة الحائلة، ينظر باتّجاهه، انتابه ضيق غريب من النظرة الثابتة

التي ترسلها العينيان الناعستان لهذا الرجل العجوز. فتشاغل عنها بالعودة الى القراءة، لكنَّه شعر بعد برهة بأنَّه لا يقرأ، وإنَّما يحرِّك عينيه على الأسطر فقط، بينما ذهنه منسحب لهذا المراقب العجوز.

دخل عيدان أخيراً الى المقهى على عجل، وهو يحمل مجموعة من الكتب والدفاتر، وصافح صديقه بحرارة:

ـ هل تأخّرت عليك؟

ـ لا . .

ـ كنت نائماً، تصوّر. .

قال ذلك ثمّ ضحك وهو يمسح وجهه، وطلب بصوت مرتفع شاياً من عامل المقهى.

ـ البارحة كانت سهرة جميلة، تمنيتك معنا، جلسة حلوة. . . شلونك؟

قال ذلك وهو يضرب على فخذ حلمي.

ـ أنا زين. .

أجاب حلمي ثمّ التفت الى الرجل الأشيب، فوجده مستغرقاً في القراءة. نظر عيدان اليه أيضاً وبدا كأنَّه انتبه لوجوده توّاً:

ـ هذا رسول الكاتب، تعرفه؟

ـ لا. .

ـ إنَّه شاعر مهمّ، ألم تقرأ له سابقاً؟

ـ لا . . أنا أراه للمرَّة الأولى.

قال عيدان وهو يهمُّ بالقيام:

ـ تعال أُعَرِّفُكَ عليه.

ـ لا . . أرجوك، أنا جئت لأراك.

قال حلمي، ثمّ مرَّ خاطر في ذهنه فأكمل:

ـ هل سيأتي أصدقاؤك الآخرون أيضاً؟

ـ لا . . إنَّهم الآن في مقهى الجماهير، سنذهب اليهم فيما بعد.

قال عيدان، ثمَّ أرخى جسده على التخت، والتقت عيناه بعيني رسول الكاتب، فرفع يده اليه محيّياً، فأجابه الرجل بتحية مماثلة. ظلَّ عيدان ينظر الى الرجل العجوز لثوانٍ وكأنَّ فكرة ما مرّت في ذهنه، ثمّ عاد الى كتبه ودفاتره فوضعها على التخت بجواره، وقال:

ـ أنا أجيء الى هنا عادةً من أجل الكتابة، لا التقي كثيراً. هذا المكان لا يأتي اليه الكثيرون.

ـ وأين تعمل الآن؟

ـ لا أعمل شيئاً، الوضع لا يساعد على ذلك، كنت أبيع الكتب.

زفر ساهماً ثمّ أكمل:

ـ قضيت سنة أعمل في محل للأدوات الصحيّة الى أنْ تعاركت مع صاحب المحل، لانّه يشكّك في ذمتي، لم أتحمل ثرثرته فكسرت له مقعد تواليت من السيراميك.

قال عيدان ذلك ثمّ ضحك. فسأله حلمي ثانيةً عن عمله الآن، من أين يصرف على نفسه، فأجابه وهو يرتشف الشاي، بانّه (عايش على الطايفات). أخرج علبة سجائره واستل واحدة، قدمها الى حلمي لكنَّ حلمي أكد له بانّه لا يدخّن. نظر عيدان الى صديقه نظرة فاحصة ثمّ قال وهو يشعل السيجارة:

ـ ستدخّن، شكلك يوحي بذلك.

أمال رأسه جانباً وأطلق زفير دخان كثيف، ثم انتبه الى الدفتر في يد صديقه فقال له:

ـ ما هذا؟ . . أرني؟

سلّمه حلمي الدفتر، وأحسَّ بالدماء تتدفّق في رأسه وهو يشاهد صديقه يقلّب الأوراق، إنَّه يقرأ اسمه الآن، يستغرق في قراءة بعض الأسطر ثمّ يقلّب الصفحات، ويرفع رأسه الى حلمي:

ـ هذه قصص؟

ـ لا . . هذه رسائل. . كنت. .

قال حلمي وأكمل مبتسماً:

ـ كنت أكتب دائماً، ولا أفكر في شيء محدّد. في وقت ما رغبت في كتابة رسالة لك، فكتبت في هذا الدفتر، وبقيت أكتب.

قرأ عيدان باهتمام، ثمّ ابتسم ونظر الى صديقه، وعاود القراءة، وبدا لحلمي أنَّ الدفتر قد استحوذ على اهتمام صديقه، فها هو يغلّقه ويضعه بسرعة مع باقي كتبه ودفاتره:

ـ سأقرأه بتمعّن، دعه عندي لفترة.

لم يعترض حلمي، وبدا له أنَّ هذه بداية جيدة لكي يتحدّثا. سيقول له بأنّه يحتاج اليه كصديق، يريد المشورة، واذا كان ممكناً فليجد له عملاً، بالتأكيد هو يعمل في وظيفة ما، وإلّا من أين جاء بثمن السجائر الأجنبية، ولماذا يبدو مسترخياً ولا يعاني من أيّة مشكلة، إنَّه منشرح الذهن، ويفكّر في أشياء لا تشغل حلمي الآن، يفكّر في أشياء، تتطلّب من الإنسان أنْ يكون بلا مشاكل حقيقيّة. لكنَّ كلماته مع ذلك تدغدغ الهواجس القديمة لدى حلمي، إنَّه يدعوه بطريقة ما، لكي ينسى هذا العالم البائس، يتحرّر قليلاً من المشاكل التي لا ولن تحلّ، يغريه لكي يرى ذاته في مرآة أخرى.

هل هناك فرص في هذا العالم الضيق؟ ربّما. فكّر حلمي، أثناء ما كان صديقه عيدان يقرأ له بعض القصائد:

(التنور ينام.
الألم بحجم الكوكب.
النساء مرضعات للحرب.
الدماء بطاقات هويّة ممزّقة .
التنور يخرج الدم. . للطوفان القادم.
الحرب تنفطم وتسير وحدها.
النساء يدخلن دائرة التقاعد.
الكوكب يشوي نفسه جيداً. .
على شمس قديمة.
ألمي يرضع من ثدي الحرب.
أخثّره جيداً. . وأخرج منه ذاتاً جديدة)

يتوقف عيدان عن القراءة ويخبر صديقه بأنّه إذا أراد أنْ يكتب مثل هذه القصائد الجيدة، فعليه أنْ يكتب من دون تحفّظ، وعليه أنْ يقرأ الشعر لكي يكتب الشعر، وأنّه الآن ـ أي عيدان ـ شاعر معروف، لأنّه ينشر في الصحف المحليّة والمجلّات العربيّة. قال ذلك ثمّ أخرج مجلة عربية وأشار الى نصّ قصير في زاوية إحدى الصفحات (هذه قصيدتي) قال ذلك، فتناول حلمي المجلة وبدأ يقرأ القصيدة، إنّها دمويّة. انتبه حلمي أنْ مفردات الدم والحرب والقنابل، تكثر في نصوص صديقه. أراد أنْ يسأله عن ذلك، لكنّه لم يتحمّس.

ولكنْ، لماذا يفترض عيدان أنَّ صديقه يريد أنْ يصبح شاعراً أيضاً، هو لم يسأله بصورة مباشرة عن ذلك. أما حلمي فكان يفكّر بصورة قديمة لهما أثناء دراستهما الإعدادية، إنَّهما يتسلّيان بالكتابة،

لا يريدان أنْ يصبحا من المشاهير، أو بصورة أدق، لم يفكّرا بذلك على أنّه هدف لهما. ولكنْ لا يبدو أنْ عيدان يفكّر بهذه الطريقة الآن، أنْ لديه حماسة تكفي لتحويل كلّ السابلة في شارع الرشيد الى شعراء. أحسَّ حلمي بأنَّ ما يبرّر لقاءه مع صديقه قد تحدّد ومنذ الآن بالكتابة، فهما لم يتحدّثا طوال جلستهما الخاصة بشيء آخر غير الكتابة، والنشر، والشعر، وأورد عيدان أثناء حديثه أسماء كثيرة لشعراء ومبدعين أجانبَ وعراقيين، وقلّب الكتب التي لديه، ثمّ أعطى واحداً لحلمي.

ولكنْ ما هي المشكلة؟ هناك أمر ما لا يثير حلمي كثيراً، إنّه يريد التسكّع، ولا يريد الجلوس وقتاً طويلاً على تخت مقهى ضيقة ومنزوية ومعتمة. لقد هرب من الأماكن المغلّقة، ويجب على صديقه أنْ يعرف ذلك وحده!

قبل أنْ يخرجا، تقدّم عيدان الى الرجل العجوز الذي ظلّ في جلسته نفسها لوقت طويل، صافح اليد المعروقة للرجل، ثمّ قدّم له صديقه حلمي، فصافحه أيضاً، حدَّ النظر الى عينيه، فشعر حلمي بالدماء تتدفّق في صدغيه، تأخّرت يد حلمي البيضاء في يد الرجل العجوز قليلاً، أثناء ماكان عيدان يتكلّم معرّفاً بصديقه.

ـ لا تمزّق أيَّ شيء،

تفاجأ حلمي حين سمع الرجل العجوز ينطق بهذه الكلمات، لقد كان منتبهاً اليه إذنْ وهو يمزّق الصفحات. ترك يده، فسحبها حلمي وضغط عليها بصورة لا شعوريّة براحة يده الأخرى، وأكمل الرجل العجوز جالساً وكأنّه يكلّم نفسه:

ـ كفانا.. كلُّ شيء يمزّقنا، علينا ألّا نمزّق نحن أيضاً.

وضع الرجل العجوز ذراع النارجيلة في فمه، وظلّ ينظر بعينين

مبلّلتين ناعستين الى الشابين الواقفين بجواره. وسرعان ما استأذن عيدان، وتبعه حلمي، ليصافحا أخيراً الهواء النقي خارج المقهى.

ـ ٥٦ ـ

عليه أنْ يكتب من دون تحفّظ، عليه ألّا يمزّق شيئاً بعد الآن. قرأ في الليل وعلى فراشه فوق السطح بجوار أفرشة أخوته الصغار، الكتاب الذي أعاره إيّاه عيدان، هاهما يعودان الى أسلوب قديم. عيدان يعير الكتب لحلمي وحلمي يقرؤها. إذنْ، سيتحدّثان في لقائهما اللاحق عن مضمون الكتاب، إنّه مجموعة قصائد مختارة لعدد من الشعراء العالميين. استغرق حلمي بالقراءة، وحاول أنْ يتجاهل كلَّ ما سواها، عطالته، ورغبته الحارقة في رؤية نـود، إحساسه بالعجز، ونظرات الاتهام التي يتلقّاها من العائلة، العقوق الخفي، الذي يستشعرونه في لا مبالاته تجاههم، رغبته في أنْ يتمرَّد، وخشيته من عواقب ذلك.

(شكلك يوحي بأنّك ستدخّن)

ما الذي أوحى له بنبوءة كهذه؟ يفكّر حلمي بكلمات صديقه، ويشعر بأنَّ خيطاً من السذاجة والبراءة قد اختفى تماماً في صوت وحركات صديقه القديم، إنّه يبدو أكثر نضجاً، وربما ألماً. وطوال جلستهما الأخيرة، لم يتطرّق كثيراً الى شؤونه الخاصة، لم يتعرف حلمي على شيء من يوميات صديقه، أو ما حقّقه من أشياء طوال السنين الماضية، أخوه الطبيب، أين وصل به الحال، وأهله؟ كان يبدو لحملي بصورة واضحة أنَّ عيدان معنيٌّ بعرض ذاته على أنّه شاعر فقط، وكلّ مشاعر شخصيّة أخرى، يجب ألّا يتاح لها أنْ تأخذ مداها.

هل يريد الصديق الشاعر، أنْ يتحوّل الى شاعر في عيني صديقه المسكين؟ هل يتحوّل الشاعر الى شاعر عن طريق ذلك؟ يفكّر حلمي، ويتذكّر الدم والقنابل التي انطلقت من قصيدة صديقه ظهر هذا اليوم في مقهى أم كلثوم. لماذا يبدو منشرحاً بينما قصائده هزيلة؟ هل عانى كثيراً الى الدرجة التي تدفعه ليكتب كلمات بهذه البشاعة؟

تتكاثر الأسئلة في ذهن حلمي، وهو يقلّب عينيه في كلمات القصائد المترجمة، فيجد بعضها بارداً، يتحدّث عن الزهور والأحلام والشراشف البيضاء والنساء الخجْلاوات، ثمَّ يقلب الصفحة، فيقرأ عن السكاكين والأقدام المقطوعة والأيدي المهروسة، وجماجم الألمان في الحرب العالمية الثانية. يتيه في دوامة الصور والكلمات المتضادّة والمتعارضة، حتى يتعب، ويداهمه ثقل النعاس فجأة، فيلقي الكتاب جانباً، ويرسل بصره الى الأعلى، الى النجوم شديدة اللمعان على الصفحة السوداء لليل أمسيات الصيف.

- ٥٧ -

(كل اللائي يعملن في المعامل قحاب، دهاليز ومخابئ مظلمة، الله العالم ماذا يصنعون بهن، ثمَّ ليس هناك شيء بين، اللهم احفظنا، لا تنقص من إحداهن رجل ولا يد، ولا يرتسم على وجهها)

يسمع حلمي كلام أمّه مع أخته سناء، ويعرف أنَّ المقصودة بهذا الكلام هي نود. ولكن، هل لديه القدرة على العراك مع والدته في هذا الصباح، إنَّ جسده يبدو متشنّجاً ومهدوداً، وكأنَّ أيام الإرهاق في معمل الحلويات قد ظهرت فيه الآن. ثمَّ ما الذي ذكر والدته

بنـود؟ لقد كفَّ عن الحديث بموضوعها منذ اليوم الذي ترك فيه المعمل، وخلال المدَّة الماضيّة لم ير نـود أبداً، لم يتقصَّد رؤيتها. ربّما أمّه تعرفها أو تراها كلَّ يوم، لكنَّها على أية حال لم تعد نـود، إنَّها نادية الآن، وآسفاه.. لقد اختفت نـود تماماً.

يقف أمام أمّه، وينظر اليها بعينين تنفثان لوماً وعتاباً، ويخبرها بفتور أنَّه خارج للسؤال عن جميل گيطان في بيته، فلا تجيبه. وقبل أنْ يخرج من الباب، تصيح عليه (هل ستعود للغداء؟) فيجيبها (لا أعرف).

* * *

(عليك أنْ تعرفي)، كيف ستعرف؟ هل تنتظره في رأس الزقاق مثلاً، وحين يأتي تستوقفه وتسأله؟ لربّما لم يكن حقّاً سوى طفل كبير، ما الذي ورطها معه الى هذا الحدّ، إنَّها لا تتوقف عن التفكير به، كانت تحتاج الى الحزم معه، لأنَّها أحسَّت أنَّه لا يفكّر في شيء أبعد من بقائه معها لحظات من الزمن، مع أنَّه لم يتجرّأ أبداً ليمس يدها، أو يحاول الاقتراب من وجهها، وهذا ما يربكها. لم تكن لديه نوايا سيئة تجاهها، تشعر بذلك، لم يبدُ عليه أنَّه يريد قضاء وقت لا أكثر، هل كان عليها أنْ تتريَّث قليلاً؟ تذكّرت ما قالته أمّها عن ابنة عمّه وخطيبته، هل رضخ لرغبات أهله، أم أنَّ كلامه عن كرهه لابنة عمّه كان مجرد كلام فارغ؟ لا تملك إجابة عن أيِّ سؤال لأنَّه ترك المعمل فجأةً واختفى.

مساءً، وبعد أنْ نزعت ملابس العمل، وارتدت نفنوفاً صيفيّاً خفيفاً، قالت لها أمّها إنَّها شاهدت حلمي ظهر هذا اليوم حين كانت تشتري الملح من دكان أبي ناجي، كان يرتدي ملابس أنيقة ويتّجه الى بداية الزقاق.

ضرب قلب ندى بشدّة:

ـ ألم يبدو عليه شيء.. ألم يكن مريضاً؟

سألت ندى فأجابتها أمّها مستغربة:

ـ شدراني آني .. چان يلمع بالشمس چنه بيضه مسلوگة.

آه، شعرت بوخزة في فؤادها، إنّه جميل مثل ملاك، ورقيق مثل قميص صيفي. لم يكن أول شخص يتحدّث اليها، لكنَّها لا تستطيع نسيان صورته. ستحاول أنْ تلهي نفسها عنه، فمازالت على البرِّ كما يقال، ولم يحدث لها شيء معه، هل هذا صحيح؟ تنصت لأغنية فيروزيَّة على الإفطار، فينتابها شعور غريب، إنَّها تنصت بإمعان، وكأنَّها فتاة صغيرة، تحزن، وهي تعلق حقيبتها على كتفها، وتحزن أكثر حين تخطو على اسفلت الزقاق، تضطرب أحشاؤها حين تمرُّ من أمام باب بيته، ويكون هذا ديدنها كلَّ صباح ومساء، تسترق النظر وهي تقف على الرصيف، فلربّما انبثق بجوارها فجأةً، ثمَّ تركب وتمسح ببصرها أثناء سير السيارة الرصيف باحثة عن وجهه بين عشرات الملامح الكامدة والمتغضّنة، ولكنْ من دون أمل.

ـ ٥٨ ـ

[حياتي

سجادة أشجار ..

لا شيء تحتها.

مرحلة من الطيور

في دورة حياة السماء

أنا نقيٌّ بكثرة

تشوه النقاء،

نقيٌّ مثل إبرة الردهات
بعد منتصف الليل
تدخل في الصراخ
وتخرج ساكنة.
كلُّ غرْزة فيَّ
تدمي حياتي
التي أجهلها]

(كوان شين طاو)

- ٥٩ -

يستلُّ عيدان سيجارة طويلة ونحيفة ذات لون داكن ويقدّمها لصديقه، فيأخذها حلمي، يتحمّس عيدان فيوقدها من قداحته مبتهجاً، ويسحب حلمي نَفَساً من السيجارة الغريبة، ثمَّ يندفع بسعال قوي وتدمع عيناه، فيضحك عيدان وهو يلتقم سيجارة مشابهة ويوقدها بزهو، ثمَّ يُرِي صديقه الطريقة المُثلى في دفع الدخان الى الخارج:

- إنّها سيجارة نسائيّة.. هكذا يقولون.. ولكنّي أحبّها.

يقول عيدان ذلك، ويسلّمه حلمي قصيدته الجديدة. يقرأ عيدان باهتمام، ويشعر وهو يحرّك عينيه فوق الكلمات، أنَّ صديقه قد تأثّر سريعاً بنصوص الكتاب الذي أعاره إيّاه، لكنْ، هناك شيء خاص، نبرة حزن تشبه ملامح صديقه الجالس بجواره. دفع عيدان القصيدة الى رسول الكاتب الذي كان على تخت مجاور، فقرأها الرجل العجوز، وأبدى ملاحظات لم يفهمها حلمي تماماً، على العكس من عيدان الذي شرع في النقاش مع رسول الكاتب، فتطرّقا الى

موضوعات تتعلّق بالشعر، ثمَّ لم يلبث أنْ قام من مكانه ودعا حلمي الى ذلك أيضاً، ليجلسا بجوار الرجل العجوز.

ـ الشعر يحتاج الى حياة بأكملها.

قال الرجل العجوز، ثمَّ أكمل وهو يقرقر من نرجيلته:

ـ عليك أنْ تنفق حياة كاملة بكلّ تفاصيلها، من اجل عشرة أبيات جيدة في النهاية. هذه الورقة مثلاً..

رفع العجوز قصيدة حلمي بيده:

ـ .. هي مجرد تمرين لكتابة الشعر، كلُّ قصائد الشاعر هي تمارين من اجل قصيدة لن يكتبها في النهاية.

النهاية

النهاية

النهاية

إنَّه يفكِّر بالبداية، إنّه يريد بداية

بداية

بداية

بداية، لماذا عليه أنْ يفكِّر في النهاية دائماً؟ لا يريد أنْ يتذكَّر النهايات، يريد بدايات

بدايات

بدايات

بدايات

ـ لماذا تريد أنْ تصبح شاعراً يا صديقي؟

تفاجأ حلمي بسؤال الرجل العجوز المباغت، الذي قطع عليه استغراقه مع نفسه، لأنَّه حسب أنَّ كلَّ الكلام الذي أدلى به كان موجهاً الى عيدان.

ـ أنا . .

قال حلمي ثمَّ حرَّك يديه وأكمل بوجه فارغ:

ـ لا أعرف تماماً . . ولكنْ لدي رغبة لقول شيء . .

صمت حلمي لثوان ثمَّ سأل بقلق:

ـ هل القصيدة سيئة؟

سحب رسول الكاتب نَفَسَها عميقاً من ذراع نارجيلته، وبدا وكأنَّه لم يسمع سؤال حلمي، نفث الدخان الأبيض أمامه على مهل ثمَّ قال:

ـ ليس الموضوع في النهاية، هل القصيدة جيدة أم سيئة، بل، هل كتبتها أنت أم كتبها الوجود من خلالك. اذا كتبتها أنت، فهذا يعني أنَّك تسمِّي فقط لحظتك الحاضرة، أما إذا كتبها الوجود من خلالك، فهذا يعني أنَّك تقتنص لحظة قادمة.

لحظة قادمة . . حلَّق حلمي مع هذه الكلمات السحريّة، دخلت اليه كجرثومة غريبة، كتب في الليل قصيدة تقصد ألّا يُدخل نفسه أو نـود فيها، وفي الصباح قرأها، فلعلَّها ذكرت شيئاً عمّا سيؤول اليه في اللحظة القادمة.

كتب قصائد أخرى، وأيقن أنَّه سينشغل بذلك لوقت طويل. بدأ يفكِّر في اللحظة القادمة، لم تعد تشغله لحظته الحاضرة، يسمع صوت الأب عند باب البيت قبل خروجه صباحاً، ويرى جدَّته قسمة تبكي من دون دموع وهي تثْرد الخبز بصحن مليء بالحليب غير المحلَّى، يرى عبر السطح نادية وهي تنشر الملابس، تنظر اليه بعينين جامدتين، ثمَّ تترك وعاء الملابس البلاستيكي وتنزل من دون أنْ تكلِّمه، تاركةً إيَّاه داخل هاجس يتنامى ويتجاوز وجودها أو وجوده

في تلك اللحظة، فهو يتحرَّك باتّجاه لحظة قادمة. واستمر رسول الكاتب يخبره بأنَّ قصائده تمارين:

ـ هذه تمارين يا عزيزي، لم تصل الى قصيدتك بعد!

ولكنَّه أحسَّ بالاعياء سريعاً، وفي لحظة نفدت الكلمات التي لديه، ولم تعد لديه قدرة على كتابة أيِّ شيء، فاكتفى بالإنصات الى عيدان وهو يقرأ قصائده الجديدة (هل ستنشرها؟ هل ستطبع كتاباً؟ وماذا بعد ذلك؟ ألمْ يقلْ رسول الكاتب أنَّ علينا أنْ نفكِّر بالنهايات؟ أريد الخلاصة، النهاية)

(التنور ينام.

الألم بحجم الكوكب.

النساء مرضعات للحرب.

السماء سجادة مقلوبة في المرآة

السرفات تنزع اسفلت أيامنا

البارود يبخِّر سراديب الموتى.)

ـ أنا أعتقد أنَّنا نكتب بطريقة أو بأخرى سيرنا الذاتية، نكتب ما نريد ألّا يموت منا.

ـ من أين سمعت هذا الكلام؟

ـ رسول الكاتب قال ذلك.

ـ ٦٠ ـ

هبطت الأمطار فجأةً عند المغيب، كانت الغيوم تتكدَّس منذ يومين، ولكنَّ أحداً لم يتوقع أنَّ الرياح ستبطىء من سيرها، لتنزل السماء نعمتها على المدينة. استمرت الأمطار الى ما بعد منتصف الليل، ونام الكثيرون وهم يسمعون الوقع المتسارع لحبّات المطر

الكبيرة. تأفَّف غانم حين انقطع التيار الكهربائي، ونظر الى ابنه محمد الجالس وراء المدفئة، ثمَّ قال له: غداً لن نخرج، سنجد الطابوق مشبَّعاً بالماء.

نزلت المياه الى غرفة الجدّة قسمة من أسفل الباب، ولم يسمع احد صوتها وهي تستغيث، ولما لم تجد أذُناً صاغية، قامت وسحبت جسدها الذاوي وبدأت تدفع الخرق في فتحة الباب السفليّة. ابنها سالم يحتضن الراديو الكبير ويستمع الى الأخبار، يحرِّك الموجات على إذاعات مختلفة ثمَّ يثبّتها على اذاعة (صوت الجماهير) ويستمع الى نشرة الأخبار، بينما توزع الأطفال الصغار حول المدفأة ونام بعضهم، وهناك في غرفة أغراض العائلة، وأمام موقد نفطي صغير، جلس حلمي يقرأ قصائد صديقه عيدان، كان قد أعطاه دفتراً سميكاً، وقال له إنَّها مجموعته الأولى.

مضى وقت غير معلوم وحلمي يقرِّب قدميه من الموقد، ويقلِّب صفحات الدفتر، وها هو يأتي عليه، أغلق الدفتر، وتأمّل اللوحة الغريبة التي رسمها عيدان بنفسه كغلاف للمجموعة، أطرق مفكِّراً، واسترجع مع نفسه أشياء بعيدة، بدت الآن وكأنَّها إشارات أولى لما آل اليه عيدان. كان منذ البداية يعرف ماذا يريد، لكنَّ حلمي لم يفكِّر بذلك بوضوح، كان يساوره الشكُّ دائماً في صورته المستقبليّة.

سأله عصر هذا اليوم، والغيوم فوقهما تغلِّف الشوارع بجوٍّ من القتامة المبكرة:

ـ هل قرأت الدفتر الذي أعطيتك إيَّاه؟

ـ دفتر الرياضيّات؟

ـ نعم.

أجاب حلمي وبقي ينظر الى وجه صديقه شديد السُمْرَة.

ـ إنَّها مذكّرات، عرفت ذلك.

سارا بجوار حائط أكاديمية الفنون، وأرعدت السماء وهما يعبران الشارع الى المقبرة الانكليزية. نظرا بلا مبالاة كما هو شأن كلِّ أحد، الى الشواهد الاسمنتية المصفوفة بجوار بعضها بانتظام، وتذكَّر حلمي خاطراً قديماً مرَّ في ذهنه حين رأى هذه المقبرة أول مرَّة؛ هل تضمُّ هذه المقبرة كلَّ رفات الجنود الانكليز الذين قتلوا أبّان غزوهم للعراق؟ أم أنَّها مقبرة رمزيّة لا أكثر؟

ـ هؤلاء أجدادك.

قال عيدان بنظرة تآمر، قطعت على حلمي استغراقه القصير.

ـ ما الذي تقصده؟

ضحك عيدان وثرثر بأشياء أخرى، أفصحت عن ارتباكه، ثمَّ استلَّ وهما ينعطفان من امام معهد الادارة سيجارة نسائيّة قاتمة اللون وأوقدها على عجل.

مرَّ فوج من الطالبات بجوارهما، فحدَّ عيدان النظر اليهن، ووجد صديقه حلمي يبتسم، ذكره بالفتيات اللائي أحبَّهن، لكنَّ عيدان لم يعلّق بشيء، ذكَّره بصورة الفتاة في دائرة الجنسيّة والأحوال المدنيّة، وبحبيباته اللائي يرسمهن ثمَّ يبحث عنهن، لكنَّ صمت عيدان استمرَّ، وتشاغل بالسيجارة التي بين أصابعه حتى أتى عليها، فقذفها مثل شيء تافه الى بركة ماء أسفل الرصيف.

ـ لا تشغل نفسك بالنساء إنَّهن تافهات.

ـ كيف؟

ـ كلُّ خراب في الرجل مصدره النساء.

حاول حلمي أنْ يستوضح أكثر، لكنَّ كلمات صديقه بدت مختزلة ومتحفِّظة، وكأنَّه لا يريد أنْ يدخلا هذا الموضوع، فصمت

حلمي، ووجد يد صديقه تمتدُّ اليه بسيجارة ، فأخذها وظلَّت في يده من دون أن يوقدها حتى وقفا في وسط الگراج.

ـ ٦١ ـ

في الوقت الذي كان فيه حلمي يقرأ قصائد صديقه على ضوء الفانوس، كان عيدان هناك في غرفة من احد بيوت الاورفلي، يعيد وعلى ضوء الفانوس أيضاً، قراءة كلمات صديقه النحيفة والدقيقة كأنَّها براشيم امتحانات، يدقِّق النظر في الكلمات على الضوء الضعيف، ويفكِّر منزعجاً، أنَّه نفسه، لم يتغيّر، وكأنَّه غاب طوال السنين الماضيّة في سرداب، ثمَّ خرج فجأةً ليلتقيه ضحى ذلك اليوم في شارع المتنبي. وجهه المورِّد الناحل وشعر لحيته المفرَّق والأشقر، عيناه الزرقاوان مثل سماء شتائيّة مشمسة، لم يتغيّر فيه شيء من ذلك.

إنَّه لا يريد التذكّر، فلماذا يظهر أمامه، لقد نسيَ تماماً صورته القديمة، أو أنَّها ـ من دون أنْ يأخذ رأيه احد ـ أخذت منه والى الأبد.

ما الذي يكتبه هنا؟ ولماذا يوجه الكلام اليه بالذات؟

«.. كنت منشغلاً بها على الدوام، تخطر في الممرّات واسمع ضحكتها، أنتظر في النهار الساعة التي تأتي فيها إليَّ، وأوهم نفسي بأنَّ الكلمات القليلة التي أتداولها معها بانجليزية ركيكة، قد اوصلتني أو قرّبتني اليها. كان مسافر يراقب ما يحدث بعينين ذئبيتين، وكمن ينتهي من مشاهدة فيلم قصير، يتركها حتى تغادر فيبدأ بالتعليق والسخريّة. ثمَّ حدث ذات ليلة ما لم أكن انتظره. كنت نائماً، أو أنَّني شرعت بذلك للتوِّ، اطفأت أضواء الغرفة، وكان

مسافر قد نام قبلي أثناء ما كنت اقرأ في الجريدة، . دسّست نفسي في الفراش، وبعد دقائق سمعت صوت الباب وهو يفتح علينا بهدوء، فانقلبت بجسد متراخٍ. ضرب قلبي حين لمحت شبحاً يتسحّب الى الداخل، وعرفت في الحال أنّه لامرأة. اقتربت ومن دون أيّة مقدّمات اعتلت السرير، وتمدّدت فوقي صامتةً، انعقد لساني، وارتجف بدني لرعب وعذوبة ثقلها الدافئ.»

قلب الورقة بسرعة..

«.. انتهى كلُّ شيء على عجل، وبهدوء. كنت قد تلفّظت بكلمات كثيرة لم أعلم ما هي وأنا راقد تحتها، بينما قلبي يضرب بسخونة، لكنَّها لم تجبني أبداً، ثمَّ سرعان ما لملمت نفسها منّي وخرجت من دون أنْ أتمكن من معرفتها. ولكنّي عرفتها يا عيدان، لم أكن أحتاج لرؤيتها، رائحتها كانت كافية لكي أعرفها، إنَّها نود، نود.

ـ ٦٢ ـ

لقد رآها هذه الليلة أيضاً. كان يوصل ابن عمّه محمد الى باب الحوش، الذي جاء ليقترح عليه أنْ يخرج معه صباح الغد كعامل بناء، فهذا أفضل من جلوسه هكذا من دون عمل.

ـ اصبح الجو بارداً، أخشى أنْ أحرجك إذا تعبت بسرعة؟

ـ عندها خذ استراحة منّي، فأنا الخلفة.

وقف عند الباب، وبقي يتابعه حتى دخل الى البيت المجاور، ثمَّ تحوّل ببصره نحو بداية الزقاق، من المؤكد أنَّ سناء وراء الموضوع. ولكنْ، لماذا لم يسأله عن نادية؟ لم يبدُ عليه الاكتراث للغط الدائر في البيتين حول ذلك.

سحب شهيقاً بارداً، ولمح عدَّة أشباح تخطر على الضوء الشحيح في بداية الزقاق، مرَّت في خاطره صورة ندى، كان قد رآها قبل يومين من الرصيف المقابل وهي تنزل من السيارة وتتجه مسرعةً الى زقاق السادة. همَّ بإغلاق الباب، فخطف من أمامه شبح تكشفت ملامحه لثوان على وهج الضوء المنبعث من الحوش. أحسَّ بوخزة في فؤاده وأغلق الباب بهدوء.

هل شاهدته؟ ما الذي ستفكِّر به الآن؟

بعد منتصف الليل، همد الجميع إلّا هو، فتح دفتراً كان قد جمع فيه ـ بناءً على إلحاح صديقه عيدانـ عدَّة قصائد كتبها في الآونة الأخيرة، وهي مع بضع قصائد أخرى ستغدو مجموعته الشعريّة الأولى، قلَّب عينيه فوق الكلمات الأنيقة من دون اهتمام، وهاجس واحد يلحُّ عليه، لماذا لم يستوقفها، ستضيع منه الى الابد. سيكون وحده الخاسر الكبير، لأنَّه لن يستطيع النسيان، وهي بلا ذاكرة، ألمْ تقلْ له ذلك سابقاً، أم أنَّه يتخيّل؟

أمسك بالدفتر وشطره الى نصفين، ثمَّ مزَّق الأوراق واحدةً تلو الأخرى، وكان كلّما نظر في قصاصة، وشاهد فيها جملة كاملة، عمد الى تمزيقها أجزاءً أصغر. شعر براحة سوداء لأنَّه يقوم بعمل رجولي مهم! التمزيق. وتناسى مكرهاً تحذيرات رسول الكاتب: «لا تمزق انت شيئاً.. دع التاريخ وحده يختار ما سيمزِّقه».

هاهو التاريخ من خلال حلمي يمزّق ما يريد.. أليس كذلك؟

دسَّ يده في جيب سترته، وأخرج سيجارة نسائيّة نحيفة، أوقدها من المدفأة وبدأ يدخِّن، مقلِّداً أسلوب عيدان في نفث الدخان، وقبل أنْ تنتهي السيجارة، كان هاجس يكرِّر نفسه قد استولى عليه وهو في عزلته. سيفقدها، لقد فقدها، سيفقدها، لقد فقدها. أخرج أوراقاً

سمراء مثل بشرة نـود، وبدأ يسجّل بقلم جاف أحمر مثل لون شفتيها، الكلمات التي تطرق في رأسه، هاهو يعود بذلك الى ديدنه القديم، إنَّه يكتب للتخلُّص من شيء، يكتب للتخلُّص من الكلمات التي تثقله ربَّما، أو لأجل شيء لا علاقة له بالكتابة.

مع اقتراب الفجر، كان قد دخَّن كثيراً، متجاهلاً أنْ يكتشف أحد ما من العائلة ذلك حين يدخلون عليه ويتشمّمون الرائحة الغريبة. كان النعاس قد شوش عليه حواسه، فبدأ يسمع أصواتاً وطنيناً ويرى أطيافاً ترتسم على الحائط ثمَّ تختفي. جمع الأوراق التي سوَّدها طوال الليل، وأحسَّ بأنَّه قد تخلَّص من ألمه، لقد دلق كلَّ شيء في هذه الأوراق، وكان قد اكتشف بعد السطر السادس أنَّه يكتب فيما يشبه القصّة. عليه الآن أنْ يتخلَّص من هذه الأوراق، يتخلَّص من ذاكرته، حتى يستطيع الإخلاد الى النسيان. وضعها بجوار فراشه ونهض بجسد مترنّح، هامَّاً بالذهاب الى المرافق. وحين مرَّ من أمام المرآة البيضويّة ذات الإطار الخزفي، توقف للحظات وتأمَّل وجهه. أحسَّ بأنَّه يرى شخصاً غريباً وليس هو. ربَّما هو جدّه كشاش كما تقول جدّته قسمة، أو جدّ جدّه مسروط، هل يبادر بالتحيّة على جدّه الذي لم يره سابقاً، أم ينتظر إشارة منه؟ اقترب من المرآة اكثر حتى كاد أنفه يلامسها، حدَّق مليّاً، فبرزت عيناه وانعقد حاجباه. كان يرى بوضوح لا مراء فيه، كيف تلطَّخ وجهه ورقبته بطبعات أختام على شكل شفاه نسائيّة حمراء.

ـ ٦٣ ـ

كان القنوط يغلّف رسول الكاتب بمعطفه الأسود المتهرئ وبدا وجهه متهدّلاً أكثر من أيّ وقت آخر، ويكشف عن تعب عميق.

انقطعت أبخرة شايه على المنضدة أمامه منذ زمن لكنَّه لم يرتشف منه شيئاً، لم يتكلَّم كثيراً مع الشباب الذين يحيطونه كثيراً، ولم يقلّب كعادته كتاباً ما أو نصّاً جديداً كتبه أحد مريديه. سأل حلمي عيدان عمّا جرى للأستاذ ، فأجاب وهما ينعزلان بصوت الغرامافون العالي:

ـ الأستاذ رسول طلَّق امرأته، لقد تبرَّأ منه أولاده أيضاً، هكذا يقول.

«إنَّهم جيل غير حداثي، عرفت ذلك حين عدت الى مدينتي في العيد، لقد وجدت ابني الكبير يعتمر العقال والكوفيّة. أنا الذي اسمه أنا، لم ألبس العقال يوماً، فأجد ولدي البكر الذي سيتخرَّج من الجامعة قريباً، يجول في الهوسات والعركات والطلايب»

ـ لقد عملت زوجته فضيحة كبرى، حين كرَّر عليها أمر بيع البيت والانتقال الى بغداد، ثمَّ اتهمته بأنَّه لم يكترث لهم في يوم من الأيام. وأنَّه تركهم مثل اليتامى.

تأمَّل حلمي سحنة الرجل العجوز، ورغب لو يسأله، أين ينام الآن؟ وما هو عمله؟ أحسَّ بالاشفاق تجاهه، والحسد، في آن واحد، لأنَّ لديه ألماً ظاهراً على الأقل. لفحته غيمة دخان نفثها عيدان، فحرَّك يده أمام وجهه بانزعاج، وكأنَّما يريد أنْ يطرد مع الدخان الهاجس السيئ الذي اعتراه تجاه هذا الرجل المسكين. ثمَّ تذكَّر شيئاً. مالَ الى سجل منزوع الأوراق يحمله عادةً معه، وأخرج منه حزمةَ أوراق سمراء مربوطة بمشبك نسائي، وأعطاها لعيدان.

ـ (ملاك وحيد).. ما هذه .. قصَّة؟

سأل عيدان وهو يقرأ في الأسطر الحمراء ، ثمَّ التفت الى رسول الكاتب فوجده يرتشف من شايه البارد، وينظر اليهما، ثمَّ

يدخل يده في جيب معطفه بارتخاء ليخرج علبة سجائره، أوقد واحدةً، ثمَّ غرق ثانيةً مع قنوطه.

ـ سأعطيها له، أنا سأقرؤها فيما بعد، سيخرجه هذا من حزنه.

قال عيدان ذلك، وهو يجعد وجهه برجاء، ولم ينتظر جواب حلمي، فقرّب نفسه من المنضدة وعرض الأوراق أمام رسول الكاتب. أخذ الرجل العجوز الأوراق، تأمَّلها وقلَّب عدَّة صفحات من دون اهتمام، ثمَّ نظر الى حلمي بعينين لامعتين. وقال وهو يدفع الأوراق في حقيبته، إنَّه لا يستطيع قراءتها هنا. سيقرؤها في الغرفة حين يعود. ويعطيه رأيه.

في اليوم التالي، كانت الأمطار تَزخُّ بنعومة، ولكنَّها أغرقت الشوارع منذ الصباح الباكر، تردّد حلمي في الخروج، لكنَّ عتاب أمّه الذي سمعه على الأفطار لأنَّه لم يخرج مع ابن عمّه الى العمل كما اتّفقا، أشعره بضيق شديد، أراد إسكاتها، لكنّها ما إنْ تشرع في اتهامه فإنَّها لن تتوقف. لبس ملابسه على عجل وحمل السجل المنزوع الأوراق وخرج. وصل الى مقهى أم كلثوم وقد غسلته الأمطار الناعمة من قمَّة رأسه حتى قدميه.

كان حلمي يتوقّع رأي رسول الكاتب بقصّته، لكنَّه تفاجأ من نبرته الغريبة والحادّة:

ـ إنَّها قصّة سخيفة، خياليّة جدّاً ورومانسيّة.

تلفظ الرجل العجوز بهذه الكلمات، وعيناه جامدتان، ثمَّ وكأنَّه أحسَّ بالصدمة التي ارتسمت على وجه حلمي أكمل مخفِّفاً من حدّة نبرته:

ـ بإمكانك أنْ تجعلها واقعيّة أكثر، لو غيّرت نهايتها على الأقل.

وشرع يشرح له، الفرق بين الرومانسيّة والواقعيّة، ويستطرد في ذكر الأمثلة والشواهد:

ـ إنّنا ،ككتاب، لا نصوّر الألم كما هو، إنّنا نعيد تشكيله بما يتيح أفقاً لما هو أبعد منه، هذه هي الواقعيّة. لأنَّ الواقع الذي نحمل صورة عنه، يحوي في الحقيقة هذا الأفق، قد يكون أفقاً لا عقلانيّاً، أو خارج حدود التنبُّؤ، قد لا نستطيع امتلاكه في النهاية، ولكنّه موجود، يستمدُّ طاقته من مخيّلة الإنسان. على الألم الذي يتجسّد في الكتابة أنْ يكون لا شخصيّاً، عليه أنْ يكون ممزوجاً بالمخيّلة، كما هو في الواقع.

أخذ عيدان الأوراق من يد رسول الكاتب وظلَّ يقلّبها مستَثاراً. يرفع عيناً الى الرجل العجوز، وعينٌ أخرى تتابع الأسطر الحمراء. في النهاية توقف المطر في الخارج، وصمت العجوز. أخذ عيدان قصّة صديقه، على أمل أنْ يقرأها بإمعان، لكنَّه لم يعدها إليه بعد ذلك أبداً. ولم يزعج ذلك حلمي، لأنَّه كان مؤمناً كلَّ الإيمان بكلام رسول الكاتب، إنَّها قصّة سخيفة، قصّته السخيفة، وقد تخلَّص منها أخيراً. رغم ذلك هو لا يريد أنْ يمتثّل للرؤية التي طرحها الرجل العجوز، لأنَّه لا يرى فائدة في الكتابة سوى أنَّها تخلِّصه من الكلام.

ـ ٦٤ ـ

خرج مع ابن عمّه محمد كعامل بناء، كلَّفه بأعمال بسيطة في البداية، يرصف الطابوق بشكل متقاطع ويُهيئها للعمال الآخرين الذي يحملونها على ظهورهم المغطَّاة بأكياس من الجنْفَاص. يدير بالمجْرفة خَبْطَة الاسمنت والرمل والحصى، ويجهد نفسه لإتمام

عمله بشكل لائق، لكنَّ العمال الآخرين أبدوا امتعاظهم، وتلاحقت عليه أوامرهم، بينما ابن عمّه منشغل عنه بالبناء وهو على دَرَّابه داخل إحدى الغرف.

قبل أنْ ينتهي محمد من عَقَدِ السقف، كان الإعياء قد تملَّك حلمي. وفي الحقيقة، الضجر، والاختناق. الشمس التي تناوبت في الظهور والاحتجاب خلف نتف الغيوم طوال النهار، تعبت هي أيضاً، وبدأت تهبط بخمول نحو الغرب. دعك حلمي يديه من الاسمنت، ثمَّ شاهد العمال الآخرين وابن عمّه وهم يغسلون بالماء البارد وجوههم وأرجلهم، فاقشعرَّ بدنه، لكنَّه غسل يديه ووجهه مرغماً، فهو لا يريد أن يراه أحد في المنطقة بهذا المظهر المُبَهْذَل.

في اليوم التالي، خرج للبناء أيضاً، لكن ابن عمّه بدا وكأنَّه نسيَ وعده الذي قطعه له، فها هو يحمل طاسة اسمنت ثقيلة، ويسير بحذر على درَّاب متماوج. يعطيها لعامل يركب على الحائط مثل فارس، يأخذها منه ويَنْثِرُ ما بها سريعاً على الطابوق العاري أمام الخلْفة ثمَّ يرميها مقلوبة الى الأرض. أجهدته هذه الحركة التي لا تهدأ، وقضّى جزءاً كبيراً من النهار يتسلَّم أوامره من عامل يلفُّ رأسه بفُوطَة مُرَقَّطَة، عرف في اليوم الأول أنَّه مساعد الخلْفَة.

في الليل نام مثل جُثَّة، وشعر وهو يغالب إغفاءة ثقيلة، إنَّه يعاني خَلَلاً في الذاكرة. كأنَّ اليومين الماضيين سنتان طويلتان. استلقى على بطنه، وتأوَّه آهةً عميقة، وحانت من عينيه شبه المغمضتين نظرة الى سجل أوراقه. فتذكَّر عيدان، وأحسَّ أنَّ لقاءهما الأخير غدا بعيداً ومشوَّشاً:

ـ كانت سهرة جميلة.. تمنيتك معنا.

إنَّه يسهر الآن في مكان ما، ما الذي يفعله في هذه السهرات؟ هل يقرأ القصائد؟ أم يغنّي.

تدخل موسيقى التلفزيون البعيدة الى أذنيه. ثمَّ تضعف وتتقطَّع. الى أن تصمت نهائياً.

ـ ٦٥ ـ

كان الجو مشْمِسَاً، والسماء لا تشوبها أيَّة نتفة بيضاء. هزَّ محمد يده بأسف، وغادر بيت عمّه سالم. صاحت الأم ثانيةً على حلمي، لكنَّه رفض النهوض. سمع رشيش ماء على أرضية الحوش، وأغانٍ فيروزيّة، ثمَّ تمثيليّة إذاعيّة، ثمَّ دخل البخور الى أنفه، رفع بصره وشاهد جدّته قسمة بجواره، سمعها تتكلَّم، وحين رفع عينيه ثانيةً وجدها قد اختفت.

عند الظهيرة، عاد أبوه من أجل الغداء، صلَّى الظهر في (المشْرَاكة) وحَلَقَ لحيته على مسند الدَّرَج الحجري:

ـ باچر وزينهه؟

ـ باچر أخذ إجازة عَلَمُود نروح للزيارة الجمعة. أريد أكلِّف أحد يصلح قبر أبوي.

يغمض حلمي عينيه حين يطلُّ الأب برأسه في مستطيل الباب، وحين تنسحب الظلال من عينيه يفتحهما، فيجد أبوه قد غادر. يحتضن الوسادة، ويسمع صوت باب الحوش يصْفق بعنف.

ذهب ظهراً الى مقهى أم كلثوم، ولم يجد عيدان أو رسول الكاتب. قال له عامل المقهى، إنَّ عيدان كان جالساً من الضحى في المقهى يكتب، وقد غادر منذ ساعة. أمّا الأستاذ رسول فلم يأتِ الى المقهى منذ ثلاثة أيام.

لم يذهب معهم الى الزيارة، تحجَّج بأنّه مرهق، لكنَّ ضوضاءهم أيقظته من الصباح الباكر. ظلَّ يتابعهم وهم يتخطَّرون أمامه. يفتحون الدواليب ويغلقونها، وتصيح الأم على سناء كي تحمل طفلها الزاحف على الأرض. ارتدى الأب العُقَال والكوفيّة، ورمى عباءته على كتفه. وحين خرج حلمي من الغرفة الى التواليت، شاهد جدّته قسمة وقد لفَّت عمامتها المجرْغِدَة، والتي لا ترتديها إلّا في المناسبات، وأخرجت عباءتها السوداء (السّيْرَة) من ديلاب أغراضها السريّة، ولم يلحظ أحد تلك الثقوب الصغيرة التي عملتها الصراصير أو الفئران في أطراف العباءة إلّا بعد أنْ ارتدتها. شاهد أيضاً نادية واقفة مع أمها تنتظران في وسط الحوش، وضياء الفجر يبدّد العتمة في السماء الصافية، كانت منتصبة القامة، بملامح مستوْحشة، وكأنَّها ذاهبة في دفن ميت. بقيت تراقبه وهو يتثاءب ويدعك رأسه ناظراً الى سرب من الطيور مَرَقَت باتّجاه الشرق. جلس أخيراً على الدرجات الأولى من السُّلَّم الحجري مستسلماً لبقايا نعاسه يراقب العائلة وهي تحزم أمرها. سيبيتون ليلة في النجف ثمَّ يعودون نهار الجمعة.

أراد أنْ يعود الى النوم، لكنَّ غرائزه الباطنة منعته من ذلك. بيتٌ خالٍ، ونباح متقطّع يأتي من السطح. ارتقى بدشداشته الدرج الى السطح، ونظر الى حِيوان، كان متبلّداً يلعق في وعاء مليء بمطر الأيام السابقة. تجوّل حلمي في السطح وراقب أسراب طيور حمراء مبكرة تشرع في الطيران من بعض البَيْتُونات المرتفعة، دعك رقبته من البرودة اللاسعة، وانحنى برأسه متأمّلاً الزقاق، فتيات بصداري زرقاء يخرجنَّ من بعض البيوت ويتجهنَّ الى الشارع، طلبة

باللونين الأبيض والرصاصي يحملون لِفكْسَات ويتخطَّرون بمشية وئيدة على اسفلت الزقاق. أطفال مشعثُو الوجوه نهضوا من النوم سريعاً ليشتروا من دكان أبي ناجي، امرأة بعباءة تجلس عند ركن حسينيّة الإمام عليٍّ تبيع جبن العَرَب والقَيْمَر، تجلس بجوارها بين حين وآخر نساء نعسات يشترين الإفطار منها ويرحلن. صوت كاظم الساهر مع أول ساعة من النهار يأتي من مسجّلة في بيت أبي كاظم. ندى تخرج بخطوات متعجّلة من بيتها وتمرُّ من ركن دكان أبي ناجي، ثمَّ تخطر ساهمةً أو مثقلة البال من أمام بيت أبي حلمي، يشاهدها من أعلى ويرتجف لهبة هواء صقيع.

فكَّر في شيء يسكت غرائزه الباطنة، دعك ما بين فخذيه إثر حَكَّة مفاجئة ثمَّ خطر له شيء، أطلّ برأسه المشعث على حوش بيت عمّه غانم، فشاهد أخته سناء وهي تخرج من غرفة المعيشة بإبريق ماء ساخن، إنَّها تعدُّ الإفطار لأولادها الذين في المدارس. لم يرَ أيَّ طيف لمحمد، فهو في العادة يخرج بعد صلاة الفجر الى عمله.

ـ أتريد اسويلك ريوگ؟

صاحت سناء وهي ترفع رأسها الى وجه أخيها الساهم، فحرَّك رأسه بالرفض. أرجع جسده الى الخلف ثمَّ نزل من درجات السلم بسرعة كما هي عادته، وراودته أثناء ذلك ذكرى قديمة، حين سقط من السلم أول مرَّة وانْشَجَّت جبهته. وقتها أجمع الكلُّ على لوم الصغير، واحتاطوا قدر الإمكان لمنعه من الصعود ثانيةً. ولم يدرك سوى متأخراً، أيام دراسته الابتدائية، أنَّ الجاذبيّة هي من تسبّب السقوط، لا الصعود. وإلّا لماذا يسقط السندباد وعلاء الدين وعلي بابا في الحفرة!

ارتدى ملابسه على عجل، وانْحنى ليرفع سجله المنزوع

الأوراق، وقلَّب ما فيه. كان قد فكَّر بشيء ليلة البارحة. وعزم على القيام به هذا اليوم. هل هو كاتبٌ سيء، أم أنَّه شخصٌ سيء؟ خطّته الصغيرة ستقرّبه من الجواب على هذا السؤال.

لكنّه انْشَغل فجأةً بهاجس جديد انْبَثق في ذهنه حين كان يراقب الزقاق من على السطح. صفق الباب، ثمَّ أغلقه بالمفتاح الذي وضعته أمّه على التلفزيون، دفع باب بيت عمّه غانم، وشاهد سناء تكنس الحوش، أعطاها المفتاح وأخبرها بأنَّه ربَّما لن يعود على الغداء. أخرج من جيب سترته النقود التي كسبها من عمله المضْنِي في العَمَّالة، وقلَّبها أثناء سيره في الزقاق محصياً ما صرفه منها. اشترى سيجارتين من بسطيّة ناجيّة. ولمح بطرفة عين من فُرْجَة الباب أختها فضيلة تجلس على تَخْتَة واطئة وتوليه ظهرها الممتلئ فتدفَّقت غرائزة الباطنة لمرأى عجيزتها المشدودة بثوبها المنزلي وهي تتماوج مع دعكها للملابس في الطست.

أحسَّ وهو يقترب من الشارع أنَّه تخلَّص من حكايته.

(عليك أنْ تغيِّر النهاية ربَّما ، كي تكون قصّتك أكثر واقعيةً)

تذكَّر كلام الرجل العجوز، وهو يسحب أنفاساً بطيئة من سيجارته، منتظراً قدوم سيارة من البعيد لتنقله الى حيث لا يدري. (عليك أنْ تغيِّر النهاية). حرَّكه شعور مبهم ليلتفت الى الوراء، فالتفت، وطرفت عيناه عدَّة مرَّات ثمَّ ثبتتا لمرأى ندى وهي تتقدَّم بمشيتها المألوفة، مقتربة من الحشد الواقف بانتظار السيارات. ها هي تقترب نحوه، ترفع رأسها، دافعة خصل الشعر الفاحم خلف أذنها، فترتجف شفتها السفلى لمرآه. تقترب حتى تقف على بعد خطوتين منه. تكسر بصرها، على غير عادتها، ثمَّ تنظر الى وجهه وتقول بعد تردّد:

ـ صباح الخير.

في تلك اللحظة أحسَّ بفائدة الإفطار، إنَّه يحتاج الآن الى طاقة هائلة كي يبدو طبيعيّاً أمامها. ردَّ عليها ثمَّ ابتسم ابتسامة سرعان ما ذوت. صمت قليلاً ناظراً الى وجوه السابلة، ثمَّ سألها عن حالها، فأجابته بجواب نموذجي: «زينة». تابعا حوارهما المتقطّع والعمومي من دون أنْ ينظرا كثيراً في وجهي بعضهما أو يقتربا مسافة أكثر. وسادت بين كلماتهما القليلة فترات صمت، وبديا أشبه بمن يمثّل دوراً في تمثيليّة، أنتجت خصيصاً لتعريف سكان الكواكب الأخرى بالحوار النمطي والعام بين الأجناس البشريَّة.

امتلأت سيارة اوتومارس بالركاب وتحرَّكت، ثمَّ قدمت سيارة أخرى تراكض باتّجاهها الأشخاص الواقفون على الرصيف، وسرعان ما امتلأت أيضاً، لكنَّ ندى لم تركب. نظر حلمي في ساعته وقال:

ـ ستتأخّرين عن الدوام؟

فنظرت هي الأخرى في ساعتها الصغيرة، وطفا شبح ابتسامة أموميّة على وجهها وقالت:

ـ لا يهمُّ.

ـ كيف؟ . .

ـ . .

نظرت الى وجهه الذابل، والسجل المتهرئ في يده، وتساءلت مع نفسها عن وجهته في هذا الصباح الباكر. وتركته يثرثر عن المعمل والدوام. نظر الى سيارة كوستر يصيح سائقها: «ساحة . . ساحة . . ساحة»، وأحسَّت هي بتناقص السابلة على الرصيف فقالت متشجّعة وهي تتذكّر نصائح أمّها:

ـ من قال لك إنَّني ذاهبة الى الدوام؟

وبدآ من دون أنْ يشعرا يبتعدان عن المكان الذي وقفا فيه. تجاوزا مجموعة من الجنابر الحديديّة المركونة على الرصيف والتي لم يستيقظ أصحابها بعد. وتذكَّر شيئاً، فنظر الى وجهها الخالي من المساحيق سائلاً:

ـ ألَّا تخافين أنْ يرانا أحد نسير سويّةً؟

ابتسمت من سؤاله الخبيث. وحرَّكت رأسها نافيةً.

بعد دقائق كانا قد وصلا في سيرهما الى مسافة بعيدة، وهو يسألها عن أمّها، وهي تسأله عن أهله. يسألها عن المعمل، وتسأله عن عمله الجديد. ثمَّ نظر الى ساعة يده، وقال لها:

ـ هل حقّاً ليس لديك دوام اليوم؟

ـ وإذا..؟

ـ سيفصلونك.. أنت تحتاجين الى العمل.

ـ لا تخف إنَّهم لا يفصلون النساء.

قالت وهي تبتسم بثقة، وضحك من جوابها، رغم أنَّه لم يفهم تماماً ما قالته. بعد حين، اتّفقا أنْ يرْكَبا في أيِّ حافلة تقف لهما. وتلامست أيديهما وهما يجلسان على مقعد واحد. نسيَ موعده مع عيدان وخطَّته الصغيرة، وسطع الدفء من النافذة العريضة على جسديهما، وهما يتهدْهَدَان مع حركة الحافلة.

«.. لقد كنت أفكِّر فيك كلَّ لحظة يا نود، تصوَّري؟ لقد تخيَّلت صباح هذا اليوم وأنا أنظر الى الزقاق أنَّني رأيتك تخرجين، وتمرين من أمام بيتنا. لم تفارقيني لحظة واحدة، حتى أنَّني كتبت قصّة عنك.. تصوَّري؟. لا أريدك أنْ تزعلي منّي ثانيةً يانود، إنَّني أحبُّك، أنظري إليَّ، ألَّا ترين ما بي»

«ما بك شيء، مورد وكلش زين»

«لقد خفت أنَّك كرهتني، ما الذي أفعله لكي لا تعذبيني هكذا؟»

«لا يبدو عليك أنَّك قد تعذَّبت، صحتك جيدة، حتى أنَّك تدخِّن الآن»

«عليَّ أنْ أحرق شيئاً، فلأحرق سيجارة بدلاً من أعصابي أو مصاريني»

«على رسلك !!!»

* * *

«سأكلِّم أبي لكي نأتي الى بيتكم وأخطبك من أهلك، ولكنْ إذا رفضوا ماذا سأصنع»

«. .»

«لا تقولي إنَّها مشكلتك، إنَّها مشكلتنا معاً، أليس كذلك؟»

«إذا لم يأتِ معك أحد، فتعال لوحدك، انت رجل، أليس كذلك؟، تعمل، وتستطيع إعالة عائلة»

«لقد صرفت كلَّ ما لديَّ من نقود، لقد أخبرتك، لم أجد حتى الآن أيَّ عمل دائم»

«كم معك الآن؟»

«. . خمسة آلاف دينار»

«جيد. . ! ».

* * *

«سأخبرك بشيء، أنا مواليد ١٩٧٢، أتعرف ذلك؟ ستخطبني من أخوالي. شكْلِيات يعني. أنَّهم بعيدون عنا، ولا علاقة لهم بمشاكلنا، ولكنَّ أمّي تريد ذلك. أمّي فرَّاشة الآن في مدرسة المظفر

الابتدائية، وتريدني أنْ أترك العمل، لن أترك العمل، أتفهم يا حبيبي؟»

«لقد التقيت مجدّداً بصديقي القديم عيدان، لقد أخبرتك عنه سابقاً، ربَّما سيساعدني في إيجاد عمل دائم. لقد قلت له إنَّني ساعمل معه في وظيفته التي لا يريد أنْ يخبرني ما هي، ساعمل معه حتى لو كان نزَّاحاً للمجاري».

«يجب أنْ تكون حبّاب، وتسمع كلامي، أتفهم؟».

- ٦٧ -

يطرق عيدان مع صديقه جاسم على باب بيت حلمي، وينتظران قليلاً قبل أنْ يخرج إليهما بدشداشته، وعيونه ترتجُّ بقلق. يرحِّب بهما ويطلب منهما الدخول، فيمرُّون من أمام المرافق، ويرتقون السلم الحجري باتّجاه غرفة حلمي في الطابق الثاني. تُخرج ندى راسها من باب الهول المعتم، وتعرف الداخلين الى البيت، فتزْفُر ضجرةً وتعيد البَرْدَة التي تغطي فتحة الباب من الداخل، ثمَّ تجلس بجوار أمّها على الأرض تتابع برامج السهرة.

يفتح عيدان قنينة المشروب، ويدْلِق منها في كؤوس يحتفظ حلمي بها عادة أسفل السرير، ولا يدع ندى تغسلهما أو تعدُّ له أيَّ شيء يتعلَّق بلقاءاته الخاصة مع أصدقائه. إنَّه يستثمر صبرها عليه الى حدوده القصوى. بعد أن أجلسها من العمل، وضيَّق عليها بعاطفته المشبوبة منافذ بوحها وتشكّيها.

«عليه أنْ يجد مكاناً آخر، للقائه بأصدقائه، إنَّها غرفة نومكم وليست نادي»

«نادي.. نـود .. نداوي.. ندند»

«يجب أنْ أعود الى العمل.. من أين سنصرف، لقد نفدت نقودك، ولم تعمر طويلاً في عملك الأخير»

«لقد فصلوك يا حبيبتي لأنَّك تغيَّبت ليومين، ولن يعيدوك الى العمل ثانيةً»

«لا تخبرني بأيٍّ شيء عن الرسم والرسامين والشعر والشعراء، لا تثرثر أمامي بذلك رجاءً، لقد خرَّب هؤلاء حياتي، حطَّموا مستقبلي، ولا أريدك أنْ تزيد عليهم أنت أيضاً»

ـ ٦٨ ـ

كان رسول الكاتب يبدو منشرحاً، وقد تلقَّى قبل يومين خبر صدور كتابه الجديد عن إحدى دور النشر العربيّة. لم يعرف احد مدى صحّة الخبر، لكنْ لا بأس من الاستمتاع به فترة من الزمن حتى لو لم يكن صحيحاً. هكذا قال الرجل العجوز ضاحكاً.

تردَّد حلمي وهو يداول نفسه بخطَّته الصغيرة. رَازَ نفسه ومدى شجاعته للحظات، ثمَّ حسم الأمر، بأنَّ فتح سجله المتهرئ، وأخرج مجموعة من الأوراق وقدَّمها الى صديقه عيدان.

ـ كوان شين طاو.. من هذا .. شاعر صيني؟

ـ نعم.

ـ وهل ترجمت هذه النصوص انت؟

قال عيدان مستغرِباً وهو ينظر الى وجه صديقه، فبلع حلمي ريقه وحاول تلطيف كذبته قائلاً:

ـ لا.. إنَّه .. ابن عمّي محمد، إنَّه يدرس اللغات، وترجم هذه القصائد من موسوعة شعريَّة باللغة الانكليزية.

تنقلت الأوراق بين أيدي الجالسين على تخوت المقهى، ثمَّ

انتهت الى حضن رسول الكاتب، الذي ارتدى نظارته الطبيّة الجديدة، وشرع يقرأ في النصوص القصيرة. وبعد أن تحمَّسوا لمناخاتها الآسيوية، ولغتها المتقشِّفَة، أجمعوا من خلال رأي الرجل العجوز، على أنَّها قصائد جيدة، وجميلة، واقترح أحد الجالسين أنْ ينشرها في إحدى الصحف المحليّة. لكنَّ حلمي كمن يستيقظ من حلم، اعترض قائلاً بأنَّ عليه أولاً أنْ يستشير ابن عمّه في ذلك، فهو المترْجِم.

عند الليل، شعر وهو يقلِّب الخمسة آلاف دينار، بجوار جسد زوجته النائمة، أنَّه ليس كاتباً سيئاً، إنَّه شخص سيء، وفكَّر لو يحتضن زوجته باكياً، لكنَّها ستستيقظ، وتذكّره بالمعاهدة التي أبرماها، في الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم البعيد، الذي جلسا فيه على مصطبة خشبية أمام أقفاص القرود والذئاب وأبناء وبنات آوى في حديقة الحيوان. ستقول له:

ـ أنا أكره الشعر والفن الحديث. أكره بيكاسو وخوان ميرو. أكرهك حين تتكلَّم بهذه الطريقة.

حاول أنْ ينام وتخيّل وهو يدسُّ رأسه في شعر زوجته المنبسط على الوسادة ويغمض عينيه، إنَّه في غرفته، في بيت أهله، وإنَّه يسمع بين فترة وأخرى، صوت جدّته قسمة المتجرِّح من التدخين وهي تُنَغِّمُ نَعَاوِيْهَا على فقْد الأجداد الذين لم يعرفهم ابداً. ثمَّ يقطع عليه أحلامه، نباح منْكسر، لكلب وحيد على السطح الطيني للبيت، لا يعرف ماذا يفعل أمام هجمات الأمطار المتلاحقة من كبد الليل.

ـ ٦٩ ـ

ولكن هل عليه أنْ يكتب الآن؟ إنَّ نـود بين يديه، وهذه هي لنهاية.. أليس كذلك؟ عليه كي يحتفظ بها أن يعمل عملاً آخر، غير

بيع الأمواس وسكاكين المطبخ وأقلام الرصاص والحبر والمساطر وقاتلات الذباب اليدويّة. عليه أنْ يترك مهنة بيع الفرّارات وطيّارات الورق، ونقّافات أشرطة العمليّات المطاطيّة، عليه أنْ يرمي صينيّة الداطْلِي والبقلاوة، وأكياس الحَبّ والحُمّص والشاميّة، وشعر البنات، ثمَّ فلْيترك بيع الصحف والمجلّات المستعملة وبيع الكتب المستنسخة، وبيع الأدعية والحجابات وكراريس الزيارات قرب الأضرحة، وبيع الماء في الصيف. والباقلّاء في الشتاء.

عليه أنْ يترك عمله المضني من الصباح الى الليل في مأكولات «هلي» في الأورزدي، وليلمّ خردواته من بسطته الصغيرة أمام سوق مريدي، وليمكب أباريق شايه وحامضه على الرصيف، وليمسح بملابسه (البالة) أرضيات الردهات في مستشفيات الچوادر والدّاخل ومستوصفات وعيادات الگيارة والشركة وحي أور والأورفلي.

أما اذا ترك أعمال الخدمة ورفع الأنقاض والأزبال من الشوارع الفارهة، فسيكون أقرب الى بغيته، خصوصاً، وأنّه يعود كلَّ مساء عابراً على أحجار تتوسط الماء الآسن الذي يمتدُّ من السيارة التي ينزل منها حتى باب بيته. سيتمكّن عندها، وهو يصل الى النهاية، من النظر لوحده - من دون أعْيُن المتطفّلين - الى مصيره وما يخبئه له من كوارث أو مسرّات.

ينظر الى المرآة، فلا يرى صورة جدّه كشاش، أو جدّ جدّه مسروط، وإنّما صورة تشبه الوجوه المشوَّهة في رسومات بيكاسو، لشخص يُدْعَى كوان شين طاو.

يرفع كوان شين طاو يده بطريقة مسرحيّة مودّعاً حلمي، ثمَّ يغيْب داخل النفق في عمق المرآة، ويبقى حلمي صامتاً يمسح بالمنشفة آثار تعب النهار والليل، وينظر الى اللاشيء أمامه.

ـ ٧٠ ـ

أبلغوه أنَّ حِيوان مات من البرد والشيخوخة. وجدوه على السطح باسطاً ذراعيه بالوسيط، بين بيته الطيني المتهدِّم وأقراص المُطّال الرطبة. ماداً رأسه الى الأمام، وكأنَّه يذعن لسياف خفيٍّ أمره بذلك. لم يبكِ أحد في العائلة على فراق حِيوان، لكنَّ سالم جثا بجواره وأهرق دمعاً سخيّاً، وهو يمسِّد على فروه المفتّل من الطين والماء. تخيّل حلمي، أنَّ الأب سيبحث، قبل دفن كلبه العزيز، عمّن قال له: «مت». سينبش الأرض بحثاً عن هذا اللاعب اللاهي، الذي أمر كلبه بالموت.

لكنَّ الأب لم ينْبس ببنتْ شَفَة وهو يرى ابنه المغضوب عليه يبرز في مساء أحزانه. تهيّأ لحلمي أنْ يلقي بنظرة أخيرة على كلب العائلة، واتّهم صامتاً أهله بالإهمال. لقد نسُوا كلبهم العزيز المدلّل، في حمْأة انْشغالهم وتعوّدهم على وجوده. ربطوه في السطح وتركوه. لقد ظنُّوا أنَّه سيبقى هكذا أبد الدهر، حيّاً أمامهم، ومطيعاً، وغير متمرِّد، ينفِّذ ما يرغبون، ويستجيب للسُنَّة التي اختطُّوها، أو ارتضوا أنْ يعيشوا من خلالها. لكنَّ أحداً ما قال له (مت)، فاستجاب. لقد غيَّر حِيوان سيده أخيراً. ونفذ مطلبه الأول والأخير.

ـ ٧١ ـ

قال لعيدان إنَّه يريد أنْ يعمل معه، فلْيكن ما يعمله دنيئاً وخسيساً ولا يطيقه العبيد، سيرضى به، لأنَّه سيكون مع صديقه المخلص في كلِّ الأحوال. صمت عيدان وتأمَّل وجه صديقه، إنَّه نافد الصبر، وينفث قلقاً وحيرةً. وقف بجوار جنبر للسجائر واشترى علبة

ميركوري، نزع السوليفان عنها، واستلَّ سيجارة ثمَّ سأل صديقه:

ـ هل قرأت مجموعتي الجديدة؟

ـ لماذا لا تخبرني وتخلّصني؟ هل تعمل في التهريب؟

ـ أريد أنْ أخبرك شيئاً. لكنْ علينا أولاً أنْ نجلس في مكان ما.

قال عيدان ذلك وهو يشعل سيجارته من قدّاحة فضيّة.

تمشّيا في الميدان وانحرفا نحو وزارة الدفاع القديمة، وسارا بمحاذاتها، وحين وصلا الى جسر مدينة الطّب عبرا، وهما يغنّيان، حتى وصلا الى مرقد الخضر، كان الجو ربيعيّاً، والهواء يحمل نسمة لطيفة لا تذكّر بالشتاء، والمصابيح الكرويّة الضخمة تضيء ضفّة دجلة، فوق مناضد شغلتها عوائل وأطفال، ونساء عجائز. جلسا على الحافّة الكونكريتيّة للرصيف المطلّ على النهر، ثمَّ أخرج عيدان سيجارتين وأوقدهما، وبدأ يطلقان الدخان في الهواء المتباطئ فوقهما.

قال له عيدان:

ـ لقد نضجت الآن يا صديقي، كنت أنتظر هذه اللحظة. في الحقيقة لم أكن متحمّساً في البداية، ولكنَّك أثبت جدراتك. كم وظيفةً عملت بها حتى الآن؟

صفن حلمي وتحمَّس لكي يُحصي لكنَّه تخلَّى عن هذه الفكرة فقال:

ـ لا أعرف بالضبط، ولكنَّها كثيرة، كثيرة جداً؟

ـ أنا، الذي هو أنا.

قال عيدان داقّاً على صدره وأكمل:

ـ .. عملت في عشرة آلاف وظيفة، جربت كلَّ الأعمال التي

يقوم بها الإنسان، لقد فقدت زوجتي بسبب الفقر، تدمّرت حياتي بسبب الحاجة، تسكّعت، وأصبحت بوهيمياً، ثمَّ لبست لباس الذلّة، وغشّيت وجهي بماء المهانة، ووسّخت بدني وروحي، ومرضت. ادخلني أناس لا أعرفهم الى مصحّة نفسيّة، وأخرجني أصدقاء قُدامى، وساعدني صديق سافر منذ سنين على أنْ أرجع لنفسي. عملت معه في مرْسَمه، وعدت الى بيت أهلي، وغفر لي إبي ما تقدَّم من ذنبي وما تأخر. بدأت أنسخ مع صديقي لوحات المستشرقين، وكسبنا نقوداً كثيرة، بعثرنا وتهتكنا، ثمَّ أحببت امرأة، وبدأت أصرف عليها كلَّ ما يأتيني من نقود، تزوّجتها كما قلت لك، ثمَّ سافر صديقي، وسخر منّي لأنّي لم أسافر بسبب زوجتي. كان يرسل لي رسالة كلَّ أسبوع، ثمَّ بدأت رسائله تتناقص، حتى أتتني في يوم ما رسالة كانت هي الأخيرة. كان يسخر منّي لأنّي أجازف بمصيري من أجل امرأة، وها أنّي قد فقدتها في النهاية.

ـ ما الذي تريد أنْ تصل اليه؟

قال حلمي ورماد سيجارته يمتدُّ منها كعمود صامت.

ـ الذي أريد قوله، إنَّ هناك سلّم للتطوّر الحياتي، يشبه نظرية دارون، هل قرأت عن دارون؟ المهم، في البداية تعمل العمل رقم واحد ثمَّ ٢ ثمَّ ٣ ثمَّ ٤، وهكذا تبدأ بالتطوّر، وأنا الآن مقدم على العمل رقم صفر، هكذا اقترحت تسميته، لأنَّ تطوّر الأعمال دائري.

ازداد تشوش حلمي، وشعر بأنَّ صديقه لا يريد أنْ يفصح بصورة مباشرة عمّا يدور في رأسه.

ـ هل أنت سكْرَان، أم تمزح معي؟

قال حلمي، وضحك عيدان، واخترق سمعيهما صوت الموسيقى والغناء في عبّارة مخرَت المياه الليليّة أمامهما.

عاد حلمي مساء الى البيت، وقرّبت ندى، وهي تفتح له الباب، أنفها من فمه، تشمّمت زفيره ثمَّ رجعت الى الوراء مطمئنة، قادته الى الأعلى، وأجلسته على السرير، قبّلت ركبته البيضاء الناصعة، وطلبت منه ألّا يتأخّر بعد اليوم. إنَّ أمّها تضايقها بكلامها، وعليه أنْ يترك هؤلاء الرفاق السيئين.

قال لها إنَّ كلبهم (حِيوان) مات، لكنَّها أخرجت دشداشته من الكنتور، ورمتها على وجهه. وحين نزع قميصه، سمعها تثرثر بصوت مرتفع مع أمّها داخل البيت. ربّما لا تريد المرأة العجوز أنْ تصبَّ ابنتها طعام العشاء لزوجها؟

قبل أنْ ينْطَرِحَ على السرير، أعادت عليه ندى، رجاءها في العودة الى معمل الحلويات. إنَّ صاحب المعمل يرغب بتوظيف الفتيات، حتى لو خربطن في الدوام ولم يلتزمن كثيرا بأوقات الحضور والإنصراف، ولكنْ، كيف يستطيع تحمّل سماعها وهي تذكر هذه الأشياء.

صمتت، ولم تكشف له عن قرارها الذي لا رجعة فيه بالعودة الى العمل. وشعرت مع نفسها أنَّها بهذه الطريقة ستعيد الأمور الى نصابها الأول. سيعودان ثانيةً الى المعاهدة التي عقداها وأخلَّ هو بشروطها.

جلست على صدره وأخبرته وهو يشرق بأنفاسه، بالفقرة الجديدة في لائحة معاهدة حبّهما وزواجهما.

(سوف لن تجلب أصدقاءك السكارى ثانيةً الى البيت، أتفهم يا حبيبي، سوف أطردهم شرَّ طردة)

انزلقت الى الأسفل، فسحب شهيقاً طويلاً مثل غريق طفا الى السطح، ثمَّ تناول يدها جاذباً إيّاها اليه، لكنَّها تملَّصت منه،

وجلست تمشّط شعرها أمام ميز التواليت الذي اشتروه مع باقي أغراض الغرفة بالتقسيط، من بائع أثاث عتيقة ومعاد تصليحها في نهاية سوق الحراميّة.

صهرته وذوّبته ثمَّ جعلته يشْخر من التعب فنام نومة أهل الكهف، وتركته لتنزل الى أمّها تجلس معها وتحادثها. غَطَسَ شيئاً فشيئاً حتى وصل الى النومة السابعة، هناك شرع حلمه يتدفَّق غزيراً، ثمَّ يغمره من خلفه ومن أمامه ومن بين يديه:

ها هو مع عيدان في الإعدادية. يقف (المدرس الأسطورة) وقد امتلأت جيوب بنطلونه وقميصه بالأوراق النقديّة وضاقت بها. يحرِّك عصاه أمام الطلبة في قاعة مدْهُونة الحيطان بلون السخام. ثمَّ يضرب ضربةَ تنبيه على خشب السبُّورة. ويرى حلمي ما مكتوب عليها:

وظيفة رقم واحد

وظيفة رقم اثنين

وظيفة رقم ثلاثة

هكذا حتى يصل الأستاذ الأسطورة بشرحه الى الوظيفة رقم صفر، يفتح حلمي عينيه ويقرأ الكتابة الطبشوريّة الملغَّزة، فلا يفهم شيئاً.

يلتفت الى صديقه عيدان ويجده يضحك بسخريّة، لأنَّ الأستاذ الأسطورة لم ينتبه الى نقوده وهي تتساقط أثناء الشرح على أرضية الصف، ويدوسها، مراراً وتكراراً.

ـ ولكن هذا لا يجوز؟ كيف تفكِّر في ذلك؟ هل فقدت عقلك؟

قال حلمي لصديقه، بينما أبْخرة اللبلبي تتصاعد من القدر الغاطس في العربة أمامهما.

ـ إنَّ الأخلاق والقيم والمبادئ، والتقاليد والأعراف والمُثُل،

كلّها يا صديقي، أخترعت من أجل استغلالنا نحن المساكين. لا تتخيّل أنّني توصلت الى ذلك بسهولة، لقد شربت المرَّ وأكلت العلقم حتى أيقنت في النهاية أنَّ ذلك هو الحقيقة.

ـ أيّة حقيقة؟

ـ إنَّك أمام شيئين، أمّا أنْ تفْقِدَ حياتك، أو تغتصبها من أيدي الذين يعتبرونها شيئاً كماليّاً في حياتهم.

ـ ولكنَّك مثقَّف، كيف ستقوم بهذا العمل؟

ـ بدأت تفهمني يا صديقي، أنا لست وحدي، هناك شخصان آخران، ومعك، سنكون أربعة، كلُّ واحد منا لديه مهمّة محدّدة، فلا داعي للخوف.

ـ ولكن، أليس هناك فرصة لعمل آخر، أمِنَ المعقول أنَّ كلَّ هؤلاء الناس الأحياء حولنا يأسوا من ايجاد فرصة طيبة للعيش.

ـ إنَّهم كلّهم يتوزعون بين نقاط في السلّم التطوّري باتّجاه اللحظة التي نعيشها الآن؟

ـ أيّة لحظة؟

ـ اللحظة صفر، والوظيفة صفر.

ـ ومتى ستباشر بعملك الجديد؟

ـ بعد يومين، ليلة الجمعة. ولكنْ لن أتحرَّك خطوة واحدة إذا لم تكن معي.

رَبَتَ عيدان على كتف صديقه، ثمَّ خاطبه بمودة وهزَّه اليه بأخوّة:

ـ ماذا بك يا صديقي، لماذا صرت مثل دجاجة مبلّلة، لا تخف يا عزيزي، ألّا تثق بي؟

حضر عصراً على غير عادته، ولم يكن ذلك استجابة لرجاء ندى، ولكن ليهيئ نفسه لما قبل منتصف الليل.

- الساعة الحادية عشرة والنصف، عند تقاطع ساحة مظفر. هناك سنجتمع أنا وجاسم وياسين وانت. لا تتأخّر، لأنّنا سنتركك، أتفهم.

الساعة الحادية عشرة والنصف، يقلّب الموعد في ذهنه مراراً، وهو يطرق الباب فتفتح العجوز له، ويرى عينيها مبلّلتين بالدموع. يُسَلِّم عليها، وتردُّ شاردة البال، تمسح أنفها بطرف فوطتها ثمَّ تغادره داخلة الى الهول، ويسمع صوت مقتل حُسَيْني مألوف، يخرْخِشُ في المسجلة المتعبة هناك. يرتقي الى غرفته ولا يجد ندى. يجلس على السرير ولا يشعل الضوء، ويرى الستائر مسدلة كما تركها ضحى هذا اليوم حين استيقظ من نومه.

- القضيّة ببساطة قضيّة جُراة، قضية المرَّة الأولى، أتفهم؟.. نحن لسنا لصوصاً أو حراميّة، سنحاول فقط أنْ نعيد شيئاً من التوازن الى العالم المتأرجح.

- جيد، ها انت تستفيد من الشعر في هذا الموضوع إذنْ؟

- الشعر الآن خارج قوس. هي مرَّة واحدة يا عزيزي، واذا قمنا بها بشكل جيد، فلن يكون هناك من مشكلة، أنا أعرف أنَّ الخوف الذي فيك، هو من العواقب، لكنْ كنْ مطمئناً، من يحسب الأمور جيداً لن يقع في المحظور.

- وإذا قبض عليكم؟

- سيكون ذلك ثمن جرأتنا، ولن نندم على شيء، لأنَّ ما من شيء تبقّى لنا، أتفهم؟

ـ . . .

ـ أليست مشكلتك كلُّها منْحَصِرة في رأس مال صغير؟ . . كم ستنفق من السنوات وانت تفكِّر في تحقيق شيء، لن يمنحه لك أحد؟ . . ها ؟ . . الوقت ضيق، احسم الموضوع.

ـ لا أدري . .

ـ ستدري، إنَّها عمليّة سهلة وبسيطة ، وقد درسناها أنا وباقي أعضاء (منتصف الليل) جيداً، حتى أنَّها لا تحتاج لأكثر من اثنين في الحقيقة.

ـ منتصف الليل؟!

ـ نعم . . لا أستطيع مغادرة الشعر نهائيّاً . . سيكون اسْمُنَا عصابة (منتصف الليل).

سمع صفق الباب، وهو مستلقٍ على سريره مشوَّش الذهن، ثمَّ انخفض صوت المسجّلة فجأةً، نظر الى الشباك المغطَّى بالستارة، فبدا معتماً، وتمكّن من سماع صوت أذان بعيد، ربَّما هو قادم من حسينيّة الأمام عليّ في ركن زقاقهم.

فكَّر في عائلته التي تخاصم معها، وفي جفاء أبيه المؤلم، وصمت أمّه وأخته وعمّاته، فكَّر في التحدي الذي فرضه عليه الأب: «لن تستطيع إعالة نفسك، ما زلت طفلاً، واشكر الله لأنّي حي وأصرف على العائلة، اذهب ودعنا نرى»، تذكَّر وجه أمّه وهو يسوَّد من هول المصيبة التي تتخيَّلها، تصفق على وجهها وتخْدُش خديها بهلع «تريد اتصير كعيدي، هاي تاليته حلوم؟». كان كلُّ ذلك هيناً، إلَّا أنْ يكون طفلاً في عيني ندى.

نهض من فراشه لمرأى ندى وهي تدخل بهدوء من باب الغرفة المفتوح، وتضغط على زر تشغيل المصباح فيجعّد عينيه من الضوء،

ويهنظر اليها. كانت شفتها السفلى مرتخيّة وتنظر اليه بعينين لامعتين، ألقت الحقيبة من على كتفها منتظرة ردّة فعله. قال لها:

ـ هل كنت في الخارج؟

ـ نعم.

أجابت، ثمَّ شعرت بالغثيان، بسبب مشيها السريع في الزقاق تحسُّباً لعودته مبكراً. جلست على صفيحة مغطّاة بوسادة أمام ميز التواليت، وضمَّت وجهها بيديها وسحبت شهيقاً مديداً.

ـ هل عدت الى المعمل؟

قال وهو يقف ويقترب بخطوتين.

ـ لا.. طلبت منهم العودة.

قالت ناظرة اليه بإشفاق ثمَّ أكملت وهي تحرّك عينيها على الأثاث القليل والبائس في غرفة نومهما:

ـ لكنَّهم رفضوا، قال مدير المعمل، إنَّهم طردوا عمّالاً كثيرين بسبب تقليص الانتاج.

ـ وخالفت كلامي؟

ارتجف خده، وزمَّ شفتيه، وأحسَّ برغبة في البكاء، ممزوجة بغضب مؤلم. نظرت اليه بعينين لا ترمشان، وشاهد الكُحْلَ وقد لطخ هالتي الإرهاق أسفل عينيها. أحسَّت بضيق لا فكاك منه، ففاجأته بصياحها:

ـ ما الذي تريد أنْ تفعله، تريد أنْ تضربني؟.. اضربني.. ها.. يلله؟

قرَّبت جسدها منه، وانفجرت بكلمات متسارعة لم تعد تقوى على كتمها. كان ينظر بأنفاس متلاحقة الى عينيها وهما تسيلان بدموع صامتة، وشفتاها تختلجان بكلام يائس.

ـ آني عندي أخوات، أمّي مريضة، لا أريدها أنْ تعمل، هل أقول لك ذلك كلَّ يوم؟

وقف عند الباب ونظر الى الدرج النازل حتى حائط المرافق، وشاهد طرفاً من الزقاق ونظر الى حوش الجيران، وهي خلفه تتكلّم بحدَّة فصاح:

ـ اسكتي..

لكنَّها لم تسكت وظلَّت تصيح: «الماذا أسكت..؟ ها ؟ قل لي لماذا أسكت؟»

ـ اسكتي..

صاح ثانيةً، والدماء تغلي في عروقه، ثمَّ اشتمل عليها بيديه، وهصر لدونة زنديها، خضَّها مراراً، ولم يعرف ماذا يفعل بعد ذلك، فتركها تهوي متراخيّة الى الأرض، وظلَّ يدور في الغرفة الضيقة عاجزاً عن منع الصور الكابوسيّة من التلاحق في رأسه.. مدير المعمل السمين، يحتضن العاملات تباعاً ويقبِّلهن قبل خروجهن من العمل، أو يدخل إحداهن الى غرفته ويغلق الباب بأحكام، يتخيّل ندى عارية بين يديه، وتضحك ضحكتها المتغنِّجة نفسها، التي يسمعها منها في السرير آخر الليل. مرّت الصور المزعجة في ذهنه مثل البرق، فالتفت الى زوجته قائلاً:

ـ عائلتك، أخواتك؟.. أنا أتصرف. الم أقل لك أنا الرجل هنا، أتفهميني؟ لن تخرجي من البيت بعد الآن. أتسمعين كلامي.. إذا نمتم بدون عشاء تعالي وأخبريني. أتفهمين.

سقط على حافَّة السرير وهو يتفيّأ نفسه بصياح متلاحق، وهي لا تجيبه «أتفهمين؟.. أتفهمين؟». سمعها تنْشُج باكية، فتداعت روحه

مثل رُكام خاوٍ، وتذكَّر كلام أمَّه البارد (كلُّهن قحاب)، فردَّد بخفوت ناظراً اليها والدموع تنحدر على خديه (عاهرة. . عاهر. .ة).

بعد ساعة من ذلك، كان يتسكَّع في الزقاق. طرق على باب بيت جميل گيطان، فبرزت له زوجته. سألها عنه فقالت على استحياء وهي تقرِّب ستارة الباب الداخليّة من وجهها الملفوف بالفوطة إنَّه يعمل في شفت ليلي على جنبر للسجائر في النهضة.

عاد أدراجه، وحدَّق في ساعته، كانت تقترب من العاشرة، وبطنه تقرقر خاوية. وراوده ما يشبه النسيان، أو فقدان جزئي في الذاكرة، هل كان يصرخ حقّاً؟ لقد صرخ بملء فمه من دون أنْ يكترث لفضول الجيران؟

دخل من الباب الذي وجده مفتوحاً كما تركه، وحين صعد الى غرفته وجدها ما زالت على الأرض. رفعت وجهها المبلَّل اليه، وقد عادت سيماء الصلابة الى ملامحها. اقترب من الكنتور، وفتحه وظلَّ يقلِّب في ملابسه ثمَّ أخرج فوطة قديمة وحائلة اللون ولفَّها حول رقبته، وسمعها تسأله بنبرة جادة:

ـ هل ستخرج؟

نظر اليها بجبين مقطَّب، وتشاغل بلفِّ الفوطة. فوقفت باستقامة وعادت الى كلماتها المتلاحقة السابقة:

ـ إذا خرجت ثانيةً وذهبت الى أصدقائك السكارى فلا تعد، أتفهمني؟

ظلَّ ينظر اليها بعينين فارغتين ولا يجيبها، ثمَّ برق في ذهنه خاطر سريع وهو يشيح بوجهه عنها، أين هو؟ لماذا يسمع هذا الكلام؟ هل هذه أمّه؟ هل هو نائم؟ وهل هي جادة حقّاً فيما تقول؟

ـ سأغلق الباب، واذهب حينها اليهم، دعهم يؤونك.

نزل بتراخٍ وانهاك على درجات السلّم الحجريّة، وشاهد المرأة العجوز تخرج بإبريقها النحاسيّ من المرافق، وقد رفعت ردنيها. صفق الباب خلفه، وحثّ خطاه على اسفلت الزقاق المعتم. مرَّ من الركن الآخر لزقاق البو دَرَّاج، وتجاوز حصانين أشهبين يعْلِفَان في نصف برميل صدئ مربوطين على شُبَّاك أحد البيوت، داس على الروث الأخضر، ويقع الماء القذر الخارج من فتحات أسفل الحيطان، وتدافعت في أذنيه النَّبَحَات القويّة والصلبة للكلب البوليسي فوق السطح الواطئ لبيت رزاق الامير. وصل الى الشارع. حدَّق في ساعته فرأى العقربين يؤشران العاشرة والربع.

ـ لا تتصوَّر أنَّني شرير، أو شخص منحرف، أنا أقوم بذلك مكرهاً.

ـ مثل الاغتيالات الاسرائيليّة للفلسطينين!

ـ يا الله .. لا تمزح معي. أين ذهب فكرك؟

عبر الى الرصيف الآخر، ومرَّ بجوار محال خياطة الربيعي، ومأكولات الشروق، وتسجيلات المروج، ونفسه تراوده بظلاميّات داكنة. سيكون مع رفيقه المخلص على أيَّة حال، فلْيدخلا السجن، إنَّها لم تعد نـود، فلْيقتلا، لماذا تذكُّره أنَّه في بيتها، هي من خطَّطت لكلِّ ذلك. كان راضياً بالاعتياش على فقدانها، إنَّ ألم الفقدان يلائمه كثيراً، هي من شجعته لتخريب كلِّ شيء. قالت له أمّه، والدموع تغسل وجهها، ليلة خرج بأغراضه القليلة من غرفته وبيت أهله، إنَّها تستشعر في هذه اللحظات آلام المخاض التي عانتها يوم ولادته. أرعبته كلماتها، وتدفَّقت مخيّلته بطوفان من الصور وهو يتقدَّم الى باب الحوش. أحسَّ بخطواته تغدو أكثر لِزُوجة، وأنَّه

برفعها بصعوبة بالغة، أصوات صراخ ولغط مبهم يرتفع ثمَّ يغيب في رأسه الجنيني، وحين وضع أخيراً قدمه على اسفلت الزقاق خارج الباب، انْفَتَقَ صوت من السماء يكرّر في أذنيه بخفوت مرعب صدى صراخ طفل رضيع.

عبر الى ركن مستشفى الچوادر، ومرَّ بجوار موقف سيارات الجيب الذاهبة الى حي اور وسبع قصور. ثمَّ تحت وطأة شعوره بالجوع وقف أمام عربة لبيع الداطلي، وظلَّ يأكل من دون حساب حتى داهمه غثيان خفيف.

أوقد سيجارة ميركوري، واستأنف سيره، مارّاً بجوار الحديقة الملاصقة للمستشفى، نظر بلا مبالاة الى الظلمة التي تكتنفها، ولم يرد أنْ يتذكَّر شيئاً. كان سياج الأسلاك الذي يحيطها مائلاً ومنزوعاً في بعض الجهات، ومستنقعات المياه تغمر أجزاء كبيرة من مساحاتها التي كانت خضراء. وحين عبر شارعاً فرعيّاً آخر، شاهد ثُلَّة من الشباب متجمْهِرِين أمام مطرب شعبي يغنّي مع فرقته تحت أضواء البلوجكترات، على (ستيج) خشبي صغير مرصوف عند أحد الحيطان. تذكَّر أنَّه لم يقم بأيِّ عرس، صفق أصدقاؤه وهلْهَل بعضهم ضاحكاً، جاءه ابن عمّه محمد وصافحه مباركاً، لكنّه لم يتأخر معه كثيراً. وضع في يده بعض النقود ثمَّ رحل.

مرَّ من أمام سوق مريدي، ورأى عربات الباقلاء واللبلبي وجنابر الحَبِّ مضاءة، بينما يحزم بعض بائعي المخضَّر المتأخّرين أغراضهم من أرض السوق المبلَّلة والقذرة. استمر بالسير، وذهنه يستعيد من دون إرادة منه صوراً كثيرة لا رابط بينها، كان الإحساس بالإحباط والتلاشي يستولي على روحه، ولا يعرف هل سيذهب الى صديقه عيدان أم يتخلَّى عن ذلك. سيتهمه بالجبن، سيجلسون في مقهى أم

كلثوم ويطلب له عيدان الشاي ويعزمه على غداء معتبر ثمَّ ينظر اليه ويقول ساخراً:

ـ ها .. أرأيت؟ لم يكن الأمر صعباً. كان يحتاج الى رجال فقط؟

هل هو جبان حقّاً؟ قد يعترف بذلك مع نفسه، لكنْ ليس للأمر علاقة بمغامرة عيدان الغامضة. لكنَّه سيكون مع صديقه، فلماذا الخوف؟ سيكون الأمر كلُّه ثأراً مناسباً من ندى، سيرمي النقود في وجهها ويقول لها: «اصرفي واشتري ما تريدين.. ولا تصرخي في وجهي بعد الآن».

وقف أمام المصوّر زياد اللامي، وملأ عينيه بالأضواء الساطعة فوق المحل، تردَّد في العبور الى الجهة الأخرى من التقاطع، وظلَّ ينظر الى الناس الداخلين والخارجين من مأكولات هَلِي في الجانب الآخر من الشارع. رفع يده ونظر الى ساعته. وتجمَّد كلُّ شيء في ذهنه لثوانٍ. كان العقربان قد عبرا الحادية عشرة والنصف، وأيقن وهو يتلفت يائساً والبرد يغزوه، أنَّ أصدقاءه قد تركوه الآن ورحلوا.

ـ ٧٣ ـ

ظلَّ يطرق على الباب، لكنْ، من دون فائدة. أحسَّ بأصابع قدميه وقد تثلَّجتا في حذائه الواسع، واعتوَرَه قلق وهو يعاود الطرق بعنف، من أنْ يخرج الجيران ويشاهدوا منظره البائس. صاح عليها بأعلى ما يستطيع «ندى.. ندى.. افتحي الباب.. ندى»، وضاق كلُّ شيء في عينيه، أمام رغبة ملحَّة في الاستلقاء تحت أغطية فراشه والنوم عميقاً. كان يريدها أنْ تخرج له فقط، سيقول لها بأنَّه لم يذهب الى أصدقائه، ولكن، كيف ستصدِّقُه. ستشمُّ زفيره، وتعرف

ذلك، ولكنَّها لا تردُّ عليه: «ندى.. ندى». لم يشعر في أيِّ وقت مضى بمهانة كهذه، لكنَّها ستفتح الباب له أخيراً، فكلُّ ما حصل الليلة كان أشبه بكابوس صغير، إنَّه سريع النسيان الآن، ألم تقل له إنَّها بلا ذاكرة؟ إنَّه مثلها الآن، لا يستطيع أو لا يريد أنْ يتذكَّر شيئاً، مثلها تماماً، أليس كذلك؟

ـ ندى.. ندى.

فكَّر في طرق الباب على أهله، إنَّها الواحدة بعد منتصف الليل، سيستقبلونه بالأحضان، لكنَّ الأب سيقول بحزم:

ـ ها.. رجعت أخيراً..؟!

ثمَّ يلتفت الى وجوه العائلة ويُكْمِلُ:

ـ ألم أقل لكم.. لم يستطع التحمل لوحده.

سيطرق على باب عمّه غانم، سيستقبله محمد على الأقل. سيقول له بأنَّه تخاصم مع زوجته. أو يتحجَّج بأيِّ حُجَّة أخرى، ولكنَّ ذلك كلَّه يبدو فاشلاً ومخجلاً.

ـ ندى.. ندى.

إنَّها تسمعه بالتأكيد، لم تتعوَّد على النوم إذا كان خارجاً، ما هذه القسوة، هل تريد أنْ تعاقبه، فلْتَمْضِ الى الجحيم. ضرب بقبضتيه على صفيح الباب المتبعِّج ضربة ختاميّة، وغادر، والدم يغلي في عروقه، من دون أن يعرف الى أين.

ـ ٧٤ ـ

طوى ذراعه تحت رأسه وظلَّ ينظر بعينين ساكنتين الى شريكه النائم على السرير الآخر في هذه الغرفة الضيِّقة. كانت أبواب

الفنادق كلُّها مغْلَقة، فتذكَّر وهو يدور يائساً الفندقَ الذي ينام فيه رسول الكاتب، فدخل في أزقة معتمة في شارع الرشيد حتى وصل الى واجهة الفندق الذي وجده مفتوحاً، وحين سأل عن الرجل العجوز، قيل له إنَّه سافر الى أهله في الجنوب. أعطاه عامل الفندق المصري مفتاح غرفة وقاده اليها، كان يتخيّل أنَّه سيكون لوحده، فهذه أول مرَّة يدخل فيها الى فندق، وارتضى مرغماً أنْ ينام بجوار رجل غريب ضخم الجثّة وقذر الملابس، لم يتحرَّك أو ينتبه من نومته رغم فتح المصباح عليه. كان يشخر بهدوء وانتظام، عاقداً يديه السوداوين على صدره المرتفع. لم يستطع حلمي النوم، وكان القلق يتناوشه من جهات مختلفة. أغمض عينيه بعد أنْ ملَّ من النظر الى الوجه المشعر والدسم للرجل الغريب. وفكَّر فيما يفعله عيدان وباقي أعضاء (منتصف الليل) الآن. ما الذي سيقولونه عنه؟ هل سيسخرون منه؟ أم أنَّ الأمر كلَّه عبارة عن مزحة كبيرة وخبيثة من صديقه العزيز. توقف لثوان مع الخاطر الجديد الذي مرق في ذهنه. فلربَّما لم يكن الأمر سوى مزحة ثقيلة فعلاً. عيدان يهيء لصديقه العزيز مفاجأة ليليّة، سهرة داعرة وصاخبة، كان سيرفض حلمي الذهاب اليها لو فاتحه بأمرها مباشرةً. ولكنْ لا، لن يستطيع مغالَطَة نفسه أكثر. عليه أنْ ينام، وليحدث أيُّ شيء. وليذهب كلُّ شيء.

ـ ٧٥ ـ

ـ أترين؟. . لم يعد . . كلُّ هذا بسببك، أنت التي ألْحَحْتِ عليَّ لأغضبه.

ـ لماذا لم تفتحي له الباب إذنْ؟ أم أنَّك تريدين رمي مصائبك على رأسي؟

ـ لم يعد.. لقد مضى أسبوع ولم يعد.. أين سأسأل عنه؟ هل اذهب الى أهله؟ هل ترضين أنْ أذهب الى أهله وأسألهم؟

ـ لا أعرف.

ـ يجب أنْ تعرفي.

ـ ٧٦ ـ

ـ هل مرَّ عيدان اليوم؟

ـ لا .. ولكن الأستاذ رسول كان هنا، تناول إفطاره ثمَّ خرج.

ـ وأصدقاؤه.. أتعرفهم.. هل مرَّ أحد منهم الى المقهى خلال الأيّام الماضيّة.

ـ لا .. لم أرَ أيَّ أحد.

ـ ٧٧ ـ

ـ أنا أعمل في مخبز الأمين، هناك وراء سوق هرج.

ـ وكم يعطوك؟

ـ إذا أردت العمل فسأسأل صاحب المخبز. هل انت محافَظات؟ أين أهلك؟

ـ ...

ـ ٧٨ ـ

بعد أنْ تناول حلمي طعام الغداء مع صديقه السمين ذي الوجه القذر كثير الشعر، استأنف عمله في نقل (طاوليّات) الخشب المليئة بقطع العجين الى جوار الفرن، حتى غربت الشمس. كان كتفاه يئنان، وساعداه، ولم يعد يستطيع السير باسترخاء كما كان سابقاً،

لكنَّه سيعتاد على ذلك، إنْ أراد نسيان كلَّ شيء. كان قد فكَّر عصر هذا اليوم بجميل گيطان، وتذكَّر جواب زوجته له: (إنَّه يعمل في النهضة ليلاً، لديه جنبر سجائر)، عاد الى فندقه، واغتسل من رذاذ الطحين، وارتدى بعد العشاء ملابس نظيفة، ثمَّ ركب من باب المعظم باتّجاه النهضة. وحين نزل هناك، ابتدأ يفتِّش عن صديقه بين الجنابر المصفوفة أمام الگراج. تأمّل الوجوه المطلّة من خلف علب السجائر المتنوِّعة، لكنَّ صديقه لم يكن موجوداً. ربَّما غيَّر من دوامه أو ترك هذا العمل. دخل مع جنـود ورجال ونساء متلفِّعات بالسواد الى داخل الگراج، وتذكَّر وهو يرى السيارات الطويلة الواقفة في أماكنها على طول الكراج وعرضه، عصر ذلك اليوم البعيد الذي نزل فيه هنا آخر مرَّة، كان حينها متلهِّفاً للعودة، وأوقف على عجل، خارج الكراج، سيارة أجرة يقودها سائق عجوز معتم الوجه، وقال له بلهفة وحنين:

ـ لمدينة الثورة.. الچوادر.

نظر الى جنابر الحَبِّ والسجائر داخل الكراج، لكنْ، ما من أثر لصديقه جميل. هل سيذهب اليه في زقاق السادة، ولكنَّه لا يريد أنْ يرى أيّاً من أفراد عائلته، ولا يريد أنْ يرى ندى بالذات. سيعاقبها بهذا أشرَّ عقاب.

لقد قادته الصدفة وحدها لكي يعمل في مخبز الأمين، بعد حديث غير مشجِّع مع زميل غرفته السمين. ولولا خشيته من نفاد نقوده القليلة لما رضيَّ بهذا العمل. وعليه الآن أنْ يجد صديقه القديم فلعلّه يملك حلاّ يخرجه من هذا العمل المؤقت.

وقف على أحد الأرصفة داخل الكراج وبدأ يدخّن، وهو يخيِّر نفسه بين الذهاب أو البقاء ليبحث بشكل أفضل عن جميل. وحين

القى لفافته المنتهية وزفر حسرةَ دخانٍ مديدة، نقر أحدهم على كتفه. التفت، وتأمّل هذا الغريب الذي بدا مبتهجاً ويفرد ابتسامة عريضة على وجهه:

ـ آني مسافر.. أما عرفتني؟

ـ مسافر.. يا لعين.

احتضنه، وأطلق ضحكة حبيسة في دهاليز روحه، وظلَّ مسافر يُرْبت على ظهر صديقه بمرح، ويهزّان بعضهما بحميميّة وشوق وهما يضحكان.

قاده الصديق المنبثق من عمق الذاكرة الى مصطبة إحدى بائعات الشاي خارج الكراج، شربا الشاي، وأعطى حلمي صديقه سيجارة، لكنَّ مسافر امتنع وأوضح له بأنَّه لا يدخِّن.

ـ ألم تكن تَحِشُّ السجائر حشّاً في المستشفى؟

ـ ذلك لأنَّها كانت ببلاش ياصديقي؟

قال مسافر ذلك وأطلق ضحكة مجلْجِلَة. ثمَّ بدأ يسأله عن شؤونه وأين انتهى به الحال، وبادره حلمي بالأسئلة نفسها:

ـ ها.. هل حقّقت شيئاً؟.. أتتذكَّر كلامك القديم؟

قال حلمي بعينين عاد اليهما اللمعان من جديد، فأجابه مسافر أنَّه تزوّج ويملك مع بعض أقربائه معمل خرَّاطة صغير يعمل فيه الآن.

ـ هل تزوَّجت أنت؟

سأل مسافر بدوره ، فأوْمَا حلمي برأسه، ثمَّ كأنَّه تذكَّر مشاكله أوقد سيجارة جديدة وبدأ ينفث الدخان فوق أباريق الشاي الضخمة. صمت للحظات ثمَّ نظر الى صديقه القديم، وسأله ثانيةً عمّا يفعله هنا في النهضة، وأين هو ذاهب. مدَّ مسافر يديه وتثاءَب ثمَّ قال:

ـ أنا ذاهب الى أهل زوجتي في جمچمال. لقد أرسلتها الى هناك منذ شهر.

مرَّت ساعة أو أقل، أمضاها الصديقان بالحديث في شؤون شتى، ثمَّ دخلا الى الكراج ثانيةً، وأمام سيارات كركوك، ذكر مسافر لحلمي عنوان معمله وكيف يمكن أنْ يصل اليه. ورغب حلمي لو أنَّ لقاءهما استمرَّ لفترة أطول لكنَّ صديقه بدا مستعْجلاً، ولم يكن من اللائق تأخيره أكثر من ذلك.

عاد حلمي الى فندقه، ونسيَ أو كاد هدفه من الذهاب الى كراج النهضة. كانت مفاجأة لقائه بمسافر قد رجَّت ذاكرته، وطوَّحت به بعيداً.

ـ أتتذكَّر الممرضة.. هل تتذكَّرها؟

هل سأله ذلك أم أنَّه أراد سؤاله ولم يتشجَّع؟ وجد رفيق غرفته السمين القذر يجلس على فراشه يشرب من زجاجة قاتمة وضعها على المنضدة بين السريرين، وصوت سعدي الحلِّي يملأ بثقله قتامة الغرفة.

ـ أيَّة ممرضة؟

ـ نـود

ـ أا.. يا أخي، وما الذي ذكرك بها؟

يصبُّ الرفيق السمين من الزجاجة القاتمة ويقرِّب كأسه من حلمي، فيأخذها وتغوص قدماه في وحل الذاكرة، وتتزلق خطواته، يحاول النهوض لكنَّ جسده المتشنِّج من آلام العمل في المخبز يرفض الاستجابة، تتمرَّد ذراعاه، وتتراخى مفاصله العجينيَّة.

(أنا تأخَّرت في الفرن، واحترقت، لكنَّك ما زلت للآن عجينياً)

ـ هل كانت متزوّجة من الدكتور هاريسون أريگـا حقّاً يا مسافر؟ هل هي زوجته؟

ـ وما أدراني، انت تتذكّر أشياء قديمة، كم مضى على هذا الموضوع؟

ـ خمس أو ست سنوات، ليس بالشيء الكثير.

ـ حقّاً. لكنَّك ما زلت للآن تحبُّها، أليس كذلك؟

ـ ليس بالضبط، أنا أتذكَّرها مثل حلم شفيف.

ـ آه.. ما زلت تستخدم هذه الكلمات، لم تتغيَّر كثيراً.

(يا يا به)..

كلمة حبيبي انتهت

شختارلك كلمة

وانته بحلاتك شعر

وابمشيتك نغمة.

(يا يا به)

يسوط الصوت الثقيل من المسجلة الهواء المحبوس في الغرفة، ويفتِّت الضوء المتخاذل من المصباح الوحيد خلف خيوط العنكبوت السوداء، والرفيق السمين يضرب فخذه الرجْرَاجة بحسرة، لكنَّ شفتيه ترسمان ابتسامة ثابتةً، ويقرِّب كأسه من حلمي.

ـ هل أصبح لديك أبناء؟

ـ نعم، لدي ولد سمَّيته وطن.

ضحك مسافر لما رأى حلمي يبتسم من جوابه، وأعطى بائعة الشاي ثمن ما شرباه، ثمَّ نهضا مشيَّعَيْن بابتسامة فضول من وجهها الليليِّ.

يسقط طاولي العجين من يده للمرَّة الثانية، فينظر اليه رفيق غرفته السمين بإشفاق، ولا يستطيع وهو مقيد الى الفرن فعل أيٍّ شيء له، يدخل العجين ويخرج الصمون الساخن، ويسمع صاحب الفرن وراء منضدته يشتم الأيام والشغل البائس. يحاول أنْ يخفِّف عنه بالسخريّة، لكنَّ صديقه النحيف ذا الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين يبدو منطوياً وغائصاً في ذاته. يحتضنه آخر الليل بمودة عقب ضحكة يتيْمَة، لكنَّ الفتى النحيف ذا العينين الزرقاوين يرتاب من كلِّ بادرة يصدرها هذا الغول العفن ذو الضحكة الداعرة. ويفكِّر ملياً في رسول الكاتب ومقهى أم كلثوم، ولكنَّه لا يستطيع ترك عمله في الفرن نهاراً، وإنْ أراد ذلك فعليه الَّا يرجع ثانيةً. عليه أنْ يعود الى الشارع، كما يقول صاحب الفرن دائماً للعمال المراهقين في الفرن.

ينقلب رفيق غرفته السمين، ويَئِزُ السرير تحته، إنَّه يتقلَّب أثناء الليل كثيراً. من أين جاء، وهل لديه أهل؟ وأين يُلَبِّي غرائزه الأخرى؟ إنَّه يكاد لا يفارقه من ساعة إفطارهما تشريب الباقلاء بالدهن عند أحد المطاعم فجراً، وحتى عودتهما ليلاً الى الفندق. يبدو منسجماً ومتوافقاً مع عالمه الضيق.

يتخيَّل أو أنَّه حلم بذلك فعلاً، الرجل الغول ينهض عاري البدن، والشعر الدهين يغطِّي كلَّ جسده، ويعتلي سريره، ثمَّ ينكب عليه كاتماً أنفاسه، يراوده عن نفسه. والفتى الأشقر النحيف ذو العينين الزرقاوين يحاول التملُّص من قبضته، من دون فائدة. يصرخ، لكنَّ صوته لا يخرج من فمه، أو أنَّ كلَّ من في الفندق نائمون، ولا يسمعون أو يكترثون لأيِّ شيء.

يستيقظ صباحاً، ويرى سرير رفيقه فارغاً، وحين ينهض ناظراً من الشباك المغطّى بشبكة من الأسلاك نحو فضاء المنْوَر الداخلي، يرى نوافذ الغرف الأخرى، ويعجب لأنّها مفتوحة على مصراعيها أمام الشمس، لا مُشَبَّكات حديديّة ولا قضبان. أشخاص يرتدون الفانيلات يحْلِقون لحاهم على مرايا دائريّة معلّقة على الشبابيك، وشخص يلعب التمارين السويديّة على الضوء المنبعث من الشباك. شخص تؤطر حدود النافذة هيأته الأنيقة وهو يقرأ على ضوء الصباح، كأنّه صورة أخذت في الستينيات.

يتعرَّض للتوبيخ من صاحب الفرن، وحين ينفرد بصاحبه السمين، يسأله بانزعاج:

ـ لماذا لم توقظني؟

ـ كنت متعباً، لقد شربت البارحة كثيراً.

ـ من الذي شرب؟.. أنا؟

* * *

ـ أليست هناك أخبار عن الجماعة؟

ـ لم يأتِ الى المقهى أيُّ أحد منذ زمن.

ـ والأستاذ رسول؟

ـ يقولون إنّه سافر، أو ربّما مات.

يضحك العامل، ولا يفهم حلمي شيئاً.

ـ ٨٠ ـ

ـ هل جاءتكِ العَادَة يا بُنَيَّتي؟

ـ نعم.

ـ الحمد لله، لم تَحْبَلِي من هذا المقموع.

ـ لماذا تتكلَّمين عنه هكذا، ماالذي فعله لك؟

تدخل مخْتَنِقَة الى غرفتها. وأمام مرآة ميز التواليت العتيقة تقف، وتتأمّل هيأتها، تحدِّق في الهالتين حول عينيها، ثمَّ تشيح بوجهها بعيداً، وكأنَّها ملَّت من هذه النظرة الساكنة. نزعت ملابس عملها. وتنسَّمت مسامَّات جسدها لفحة برودة خفيفة، جعلتها تسحب شهيقاً بطيئاً. تذكَّرت تحرُشَات العامل الذي يجاورها على الماكنة في معمل الخياطة. تألَّمت لنفسها لأنَّها غير قادرة على المجابهة طوال الوقت. أخرجت نَفْنُوفها الصيفيّ ذا فتحة العنق العريضة ورجعت لتجلس على الصفيحة المغطَّاة بالوسادة أمام ميز التواليت. كوَّمت النفنوف في حجرها، وتأمَّلت عنقها وصدرها، تلمَّست ذراعيها بهدوء ، ومرَّت بكفيها الخشنتين على فخذيها وتأوَّهت. تناهى اليها صوت قرع منتظم من عربة نفط مرَّت في الزقاق، وهبَّت من الباب المفتوح ريح فاترة تبشِّر بصيف لاهب. نظرت الى أعلى المرأة على الحائط، الى صورتهما معاً، التي أخذاها في ستوديو أبو سهى. الى ابتسامتها، ونظرات عينيها الثاقبة، والى عينيه الناعستين، ومسْكَته المرتخيّة لخصْرِها.

(ندى طالعة عليَّ، ذكيَّة وتشبَهُني)

تذكَّرت كلام أبيها. إنَّها ليست قويّة الآن. أعطت لأمّها راتبها الشهري، وظلَّت واقفة بجوارها تتأمَّلها وهي تفتح الكنتور بمفتاح معلَّق بطرف شيلتها، وحين أزَّ الباب الخشبيُّ، شاهدت ندى أغراض أمّها المبعثرة، وسِتَرَ أبيها المصفوفة بانتظام في عمق الكنتور. وهناك، في الأعلى صندوق صور العائلة، وبجواره فوط وملابس قديمة وصُرر صغيرة. اقتربت ندى من أمّها وهي تحصي النقود، وقلَّبت عينيها في موجودات الكنتور. تشمَّمت رائحة عطور قويّة،

وتلمَّست بيدها النحيفة صندوق الصور، والفوط السوداء. رفعت منديلاً رطباً، وقرَّبته الى الضوء، وتأمَّلته.

ـ إنَّه منديل أبيك.

قالت لها أمّها بوجه متهدِّل. ثمَّ نظرت الى صورته الشاحبة والمتربة على الجدار، وقالت بحسرة:

ـ لا أعرف يا بُنَيَّتي، هل هو مبلَّل هكذا على الدوام، أم أنَّني خرّفت.

آخر الليل، كانت تئِن لوحدها على سرير فارغ. تتخيَّل حلمي بجوارها، تتذكَّر معابثاته، وكلماته البريئة:

ـ أنا فرحان.. فرحان.

كان يصيح في العتمة، وهو فوقها، وتحتها، وبين يديها، وكانت تضحك، وتتيقَّن أكثر فأكثر، أنَّه رجلها/ طفلها الذي بحثت عنه. أنَّه يلائمها أكثر من أيِّ كائن آخر في الكون. أنَّه دميتها الجميلة، وشيطان ليلها الطويل.

في ليلة عرسهما، نزعت الخاتم الفضيَّ ذا فصِّ العقيق، وأعطته إيَّاه:

ـ لماذا تعيدينه إليَّ؟

قال باندهاش.

ـ لقد انتهى الحلم ، نحن الآن معاً، إنَّنا لا نحلم.

قالت ذلك وعيناها الساكنتان مثل عيني فيروز في (بغداد والشعراء والصور) تفتحان له فضاء بهجة لا حدود لها.

بعد أنْ لم تستطع تحمل قلقها عليه، أو على مصيرها معه، عاودتها الفكرة الأولى التي طرقت رأسها حين أحَّست بأنَّ غيبته طالت أكثر مما يجب. بعثت بأختها الصغيرة مُنَى، عصر أحد الأيام

الى بيت أهله. طرقت البنت الصغيرة الباب الذي وصفته لها ندى، وانفتح لها فجاةً، ولأنّها أخبرتها أنْ تسأل أيَّ أحد يفتح لها، بادرت منى من فورها:

ـ آني منى، اخت ندى، زوجة حلمي. ندى تقول، ماكو أخبار عن حلمي، حلمي لم يعد منذ أسبوعين.

ـ فلْتذهب وتبحث عنه، وترى أين فقدته.

أجابها الوجه المبهم، وصفق الباب بوجهها.

قرّبت منديل أبيها المبلّل من أنفها، وضعته مثل كمادة على وجهها. إنّها ليست قويّة الآن، ولا تستطيع مقاومة البكاء أكثر من ذلك. فلْتَبْكِ، ما دامت بعيدة عن أعْيُن الآخرين، فلْتُذوِّبْ نفسها في هذا البكاء القاتم واللجوج، فمن الذي سيعرف على أيّة حال. إنَّ خبرتها بالراحلين عنها تُنَبِئُها أنَّه لن يعود، سوف لن يعود.

أشفقت على دموعها المالحة من الانحدار الى الوسادة، فتلقَّفتها بمنديل أبيها الرطب.

ـ ٨١ ـ

استيقظ عند الظهر، ووجد الشمس قد دخلت من النافذة المشبّكة، قادمة من أاعلى المنْوَر. لم يرَ هذا المنظر سابقاً، لأنّه لا يكون في الغرفة عادةً في هذا الوقت. تذكّر في الحال أنَّه تأخَّر عن عمله، تأخَّر كثيراً. ولكنْ، لماذا لم يوقظه رفيقه السمين؟

أراد أنْ ينهض، لكنَّ جسده لم يسعفه. شتم في داخله هذا الجسد الذاوي، وتخيَّل من دون أنْ يعرف لماذا، أنَّه لو كان مواطناً ألمانياً في الحرب العالميّة الثانية، لتخلَّص منه هتلر مبكراً.

تأوّه على وسادته، وأحسَّ بسكاكين كثيرة تنغرز في أحشائه،

وكأنَّ هذه الآلام استيقظت معه للتوّ. وقبل أنْ يقرّر شيئاً، كان قد عاد الى النوم مجدَّداً. حين فتح عينيه ثانيةً، شاهد الوجه المنتفخ الأسود كثير الشعر بجواره يتمتم بكلمات مبهمة، ثمَّ غطَّت كمادة باردة وجهه، فأغمض عينيه، وغاب ثانيةً.

ـ لقد شربت كثيراً البارحة، انت هكذا، في البداية تمتنع، وتنظر إليَّ بفضول، لكنْ ما أنْ تأخذ أول رشفة حتى تستمرَّ في ذلك.

ـ من هي ندى، ومن هي نـود، ومن هي نادية، لماذا تذْكر النساء دائماً قبل أنْ تنام؟

شاهدها تسير بجوار شاب طويل مسترسل الشعر يرتدي بنطلون جينز وسترة جينز وحذاءً من جلد البقر. صاح عليها، لكنَّها تجاهلته، ركض اليهما، لكنَّه كمن يراوح في مكانه. كانا يسيران ببطء، مثل من لا يعنيه الوصول الى مكان ما، قدر عنايته بالسير مع حبيبه أو حبيبته. صاح ثانيةً، فحوَّط رجل الكاوبوي ندى بيديه، كأنَّما ليغيْظه، ثمَّ دنا أمام مرأى الجميع من شفتيها، وانحنى ليقبِّلهما.

ـ هذا لديه التهاب الكبد الفايروسي.

ـ لديه تشمُّع في الكليتين، أنا أعرف هذا المرض، أخي طبيب أعشاب.

ـ لا هذا مصاب بمرض غريب، يسبِّبه اليورانيوم. إنَّه أحد ضحايا الاعتداء الأمريكي على قطرنا العزيز!

(مائة وخمسون ألفاً وأنْقلك الى خارج الحدود). من أين يجلب هذا المبلغ؟

(مشكلتك النقود أليس كذلك؟. . أجلب نقود. . تحصل على نقود)

فرك خاتم الفضّة على أصبعه النحيف، وتأمَّل البريق على فصّه العقيق، إنَّه يلائم أبهامه أكثر من أيِّ أصبع آخر في يده العظميّة.

ـ إنَّه خاتم ثمين، ورثته عن جدي كشاش، كان قد اشتراه من مؤذن الحرم المكّيّ مع وسادة من ريش النعام.

ـ اا . . أنا أريد ريش النعام. سأعطيك مائة وخمسين ألفاً لو جلبت لي الوسادة.

يتضخم الحزن في داخله، وتتدحرج هَضِيمَته على شبابه الذاوي مثل كرة ثلجيّة على سفح معتم، حدَّق الى المتهمين من خلال عدسة مكبِّرة، أمّه وجدّته وقسوة أبيه، وندى التي لم تحبّه في يوم من الأيام. فيستيقظ الزئير الساخر لذلك الأسد العجوز في داخله: «لا أحد يكترث لك يا عزيزي، فلا تفكِّر كثيراً».

تدخل نـودت هاريسون أريگـا الى غرفة العمليات الجراحيّة، ويكون مغشيّاً عليه، لن يكون هذا لقاءهما الأول، سترى جسده المسجَّى مثل مسيح أنزل توّاً من الصليب، وتتذكَّر نصف التفاحة المفقود في حكايات طفولتها.

ـ لا أريد مرضى أو ميتين في فندقي.

يقول صاحب الفندق ومن خلفه عامل الخدمة المصْرِيّ، ويحتدُّ الغول السمين قذر الوجه:

ـ أنا أعالجه الآن، ألّا ندفع لك ايجار الغرفة؟. . ما المشكلة؟

يتراجع صاحب الفندق خطوتين، ويلهي نفسه بتأمّل الغرفة الكثيبة.

ترميهما السيارة في نقطة غير محدَّدة من الليل بعيداً عن الشارع العام، وتستدير لتعود مطْفَأَةَ الأضواء. الجو بارد هنا، رغم الغليان النهاريّ للصيف المبكر.

ـ ستجدون قبل الفجر سيارة هناك تنتظركم. حين يوصلكم بأمان، أعطوه نصف المبلغ المتبقّي.

إذا عاد بالنقود، سيتمكّن من إصلاح كلِّ شيء، إنَّه مشتاق منذ الآن الى وجه جدّته، الى النظر الى صلعة أبيه اللامعة، والوشم الصليبيّ في حنك والدته، الى أطفال سناء، ووليدها الصغير (سلام)، الذي قالت الجدّة يوم ولادته: (إنه يشبه حلوم، كأنَّهما حَبَّة مقسومة الى نصفين). مشتاق الى حضن نـود الخائنة:

ـ إنَّها متزوِّجة يا صديقي، كيف ستذهب معها الى أميركا، من قال لك ذلك؟

ـ ألن تذهب أنت أيضاً.

ـ لا . . لدي بلد. . لماذا أتَهَجْول في الغربة؟

ـ سأذهب معها الى أميركا يا مسافر، سنتزوَّج، لأنّي حلمت بذلك.

ـ إنَّها زوجة الدكتور هاريسون اريگا. ألم تقل لك ذلك؟. . إنَّها امرأة الأميركي ياعزيزي ولن تكون لك. هل تفهم كلامي؟

ـ . . .

ـ يا خدا. . چكم وي أي مناله.

ـ ماذا تقول؟

ـ لا شيء.

صاحب المعمل يغلق الباب بقدمه ويطْرَحُها أرضاً وهي تضحك، بينما هو هناك أمام آلته الجهنميّة، ينسى يديه على الشريط المتقدِّم الى فتحة الآلة، وتنغلق كلُّ المنافذ في ذهنه مع انغلاق الباب، فتروح يداه وتتغلفان، ثمَّ يدخل بأجمعه الى الآلة الجهنميّة، ويرى بعينين ساكنتين مثل عيني مخَدَّر أو ميِّت السوليفان الملوَّن

بعبارات الشركة يمرُّ على وجهه. يخرج من الجهة الأخرى مغلَّفاً ومسلفناً كيوم ولدته أمّهُ. تأخذه يد عاملة سمينة، يكتشف أنَّها الحاجة أمينة، وتضعه مع أخواته الأخريات من قطع الشوكولاته في صندوق ورقيّ.

يهبطان وهْدَة ترابيّة مكسيّة بالأشواك، ويمرّان وراء وهْدَة أخرى، وحالما يكونان أمام سهل فسيح تبين من ورائه نقاط ضوء صغيرة مثل نجوم متراقصة، يسمعان صوتاً مألوفاً، لمحرّك عجلة، يتلفتان ولا يريانها. ثمَّ تنفتح في وجهيهما فجاةً مصابيحها القويّة. يركضان بدافع غريزي نحو جهة غير محدَّدة. وحين تغيب مصابيح السيارة يتلفت ولا يجد رفيقه. يأخذه الخوف، ويبقى يركض لوقت غير معلوم، ثمَّ يهدُّه التعب، فيبرك على الأرض المعشوْشِبة، وتنغرز شوكة وقحة في ركبته اليسرى. يتأوَّه، وتمتدُّ يد نـودت هاريسون وتضغط على جبهته فيصمت.

ـ إنَّه ضحيّة جديدة، يجب أنْ نضعه على بيكب ونحوطه باللافتات، ونمرُّ به من أمام لجنة الصليب الأحمر والهلال الأحمر، ومكتب الأمم المتّحدة، ومنظمة حقوق الإنسان. يجب أنْ يعلم العالم أجمع بجرائم الحضارة البربريّة الامبرياليّة.

ـ إنَّه أشقر وعيونه زرق مثل الأميركان.

ـ لا .. إنَّ وجهه يشبه وجه الجنـود الأميركان المصابين بمرض لعنة العراق.

ينهض، ثمَّ يستهدي ببوصلته الداخليّة، لكنَّه يكتشف أنَّ ذلك خرافة لا أكثر. ليست هناك أيّة بوصلة داخليّة. أين الشمال والجنوب، أين النجمة القطبيّة. لقد كذبوا علينا في المدرسة، ليست هناك أيّة نجمة قطبيّة. يسير لا أكثر. لن يفرق معه الأمر كثيراً، إنَّه

يسير دائماً، وفقط. ها هو عارٍ من أيِّ شيء، يواجه نفسه كما عرفها أول مرَّة. هاهو في (الآن) نفسه. لم يكن يستطيع مغادرة (الآن)، كان طوال الزمن الماضي يوسِّع جدرانها لا أكثر. حَدَّق في العتمة، وعاودته رهابات الطفولة، بكى، ونَشَجَ وهو يمشي في العتمة، ومسح السائل اللزج عن شفته العليا، دعك عينيه الدامعتين بردنه، واستمرَّ يمشي، والألم يتزايد في ركبته اليسرى. ثمَّ لم يعد يقدر على المشي والبكاء معاً، عليه أنْ ينتهي من أحدهما أولاً. توقف غارزاً وجهه في كفَّيه. مفرِّغاً ما في صدره من حرقة ولوعة. ثمَّ جثا على ركبته اليمنى، وأنزل كفَّه اليمنى على الشعر المتْرَب لعبد الله الأكبر المسجَّى في حجره. وحين انتهى لَطَمَ المقاتل في أذنيه، رفع يده عن وجهه المبلَّل ونظر الى الطريق أمامه، وشاهد كلباً أسود يقف على مبعدة منه يراقبه بصمت.

(حَـلـَمْ بالحوش يتكلب. .
عطية وجاية من الرب.)

يقف محمد بوجهه الأسمر وشعره المشعَّث ودشداشته البَازَة المقلمة عند رأس الشارع، ينتظر الحافلة ٨٨، لأنَّ حَلُّوم الصغير يبكي كلَّ صباح بعد خروج الأب. تظهر الحافلة ٨٨ عند المنعطف، وتتهادى بزئير مكتوم مشعَّة بلونها الفاقع وهيأتها المهيبة. إنَّها أعلى من كلِّ السيارات. كأنَّها عمارة. يقف الأب بتنينه الأحمر ويضحك بوجه صغيره الذي ألبسته أمّه ملابس العيد الماضي. يركض حلُّوم اليه، تاركاً يد ابن عمّه المراهق، وينادي بلهفة على أبيه خلف النافذة العالية. يفتح الأب الباب، ويركب حلُّوم بجواره، ويتركه يمسك بحافَّة المقود الكبير. يرعد المحرِّك الضخم للحافلة، فيدقُّ قلب الطفل الصغير، وينظر من شُبَّاك السائق الى محمد، تبتعد

الحافلة، أو أنَّ محمد يبتعد بوقفته على الرصيف. تبتعد منطقة الحافلة، والسابلة وبائع السجائر، والدكان والبنچرچي والبايسكلات، والأطفال الذين يلعبون الدَّعَابل. تدور الحافلة بالطفل السعيد دورة كاملة، تمرُّ به في السوق، ويهتزُّ طَرَباً مع كلِّ دُوْسَة كابح مفاجئة، يرى أطفالاً آخرين، ونساء يحملنَ سِلال الخوص على رؤوسهن، يرى بائع الشَّعَر بنات، وتهفو روحه الى طفل يلْعَق الآيس كريم، يدور الأب بطفله الوحيد في الشوارع، ويراقب الساعة الدائريّة المعلّقة أمامه. وعند انتصاف النهار، يعود الأب الى المكان نفسه. ينزل طفله على الرصيف بجوار محمد، والذي بدا وكأنَّه لم يغادر مكانه، ويصيح عليه (ودِّيه للبيت). يرجع الطفل مبْتَهِجَاً وفي يده بالوناً غازياً مربوطاً بخيط طويل.

وعند العصر، يبكي حلُّوم، لأنَّه يترك وفي لحظة غير مفهومة، البالونة تُفْلِت من يده. أمّه تربط خيط البالونة دائماً في سبابته، ولكنَّه سرعان ما يملُّ من ضغطة العقدة على أصبعه، يفلُّها أو يقطع الخيط بأسنانه، ثمَّ ينظر الى الجسد المتوتِّر اللامع للبالونة وهي تغادره مخْتَرِقَة الأجواء الى الأعلى. يستغرق في متابعتها وهي تتلوَّى مثل السمكة، حتى تغيب وراء الغيوم الشاحبة. تسمع الأم وهي في المطبخ صراخ ابنها، فلا تقطع أشغالها، لأنَّها تعرف أنَّه ترك البالونة من جديد.

يلعبان فوق السطح، والشمس الشتائيّة تلسع جسديهما بلذَّة. تنزل الأمّ بعد نشر الملابس، تاركةً ابنها وابنة عمّه يدخلان تحت الفَرْشَات المنْشُورة على الستارة الحجريّة ويخرجان من الجهة الأخرى. وحين ينتبهان الى نزول الأمّ. يدخلان من جديد تحت الفرشات، وهما يقلّدان صوت القطار. لكنَّ الفتاة تجلس متّكِئَةً على

السّتَارَة ذات النقشة الاسمنتيّة المخَرَّمَة. يجلس بجوارها، مظلّلين بالفرشة الثقيلة، ويلعبان لعبةً كلَّ يوم!

ـ لقد تحرَّكت سَرِيَتُهم الى الجنوب.

قال محمد، فاستغاثت أمّ حلمي ورفعت يديها مولولة. صاح عليها الأب، لكنَّه لم يكن أفضل حالاً منها، لم يعد ابنه في الإجازة الأخيرة، وقد انقضت على غيبته ثلاثون ليلةً. وفي دوَّامة توتره يأخذ الأب سيجارة من ابن أخيه، ولا ينتبه إلَّا بعد أنْ يُلقي بعقبها الفارغ على الأرض أنَّه ترك التدْخِين منذ زمن بعيد.

ـ ما الذي تريده منّي أيُّها الحيوان؟ هل تريد أنْ تَقْضِمَ ساقي؟

ـ عليك أن تعود.. ما زلت صغيراً.

ـ أشَرَ ليَّ على جهة فأذهب من فوري.

ـ لا يهمُّ أيَّ جهة، المهمُّ أنْ تُفكِّر وأنت تخطو.. أنَّك عائد.

ضربت الطائرات الاميركية قاعدة الصواريخ التي كانوا يحرسونها. كان حلمي بسلاحه وخوذته قرب كرفانات الحرَّاس حين انقلب كلُّ شيء حوله رأساً على عقب. ومرَّ وقت غير معلوم قبل أنْ يستفيق حلمي من إغماءته ليجد أنَّ نصف جسده غائب تحت ركام أحجار وأشلاء جنود وأغطية. وكان رأسه غاطِسَاً في حافَّة مستنقع من الوحل والدماء. هزَّه الألم القادم من أطرافه السفْلَى، فكان اقوى من قدرته على التأوّه أو نطق أيَّ شيء. اغمض عينيه، ولكنَّه فتحهما سريعاً حين سمع صوت مروحيّات تقْتَرب، وشاهد على صفحة السماء الغائمة جثثها السوداء تملأ مدى الرؤية.

ـ يا ولد.. انهض يا ولد، لقد تركت فرن الصمون، لقد طردوك من العمل انت أيضاً، انهض، لقد تعاركت مع صاحب

الفرن، كنت موشكاً على إدخاله في الفرن، لولا أنْ الله ستر. انهض يا ولد.

إنَّه أشقر، إنَّه أجنبي، يشبه جورج مايكل، وصورة المسيح والسيدة العذراء على حائط التعاويذ في غرفة جدّته، إنَّه عَجِيْنِي، لم تشوّه الشمس ولا الفرن جيداً، وأبوه وعمّه يشبهان صور الأئمة داكنة اللون.

يحصره التلاميذ في الزاوية ويضربون بطنه وظهره ورأسه، وهو ينتظر سناء، متى ستدخل الصف، يمسك بيد أحدهم لكنَّ ضغطته ضعيفة، يتأرْجَح بينهم منتظراً سناء التي تضربهم دائماً، وحين يتركوه، يولي الأدبار هارباً من باب الصفّ. يقف تحت الشمس وتلمع فروة رأسه. ينظرون اليه بحسدٍ، ويبصق باتّجاههم قبل أنْ يَهْرُب ثانيةً.

ـ أنا مسافر ناظم خورشيد.

ـ أنا حلْمِي سالم كشاش، جندي مكلَّف مُشَاة. السريّة الثالثة، الفوج الثاني، لواء ٤٢٦.

يأخذ سالم زوجته الى أمّ جابر قرب سوق العُوْرَة. لقد أولدتها في المرَّة السابقة. يذهبون جميعهم مع ناجي بسيارته الحكوميّة، ويقودهم بين الأزقة حتى يصل الشارع العام، ثمَّ يندفع على الاسفلت والأمّ التي ضربها الطَّلْقُ لا تستطيع كتم صراخها. وصياح ابنتها الصغيرة التي تركتها في بيت عمّها يملأ أذنيها. عند الثانية صباحاً أنجبت كتلة شحميّة ضئيلة، أخافت للوهلة الأولى أمّ جابر الدَّايَة، ولكنَّها بعد أنْ طَبْطَبَت عليه حمدت الله وشكرته. وفي الصباح، كانت العائلة كلُّها تحفُّ بالأمّ في غرفتها بجوار صينيّة وليدها الذكر، بينما الأب يفطر مع أخيه الكبير، وعبد الحليم حافظ

يغنّي من المذياع: (احلم بيك انا بأحلم بيك..). تدخل نساء الجيران على الأمّ، ليباركنَ لها ويسألنَها عن جنس المولود، فتقول بعد تردّد: إنَّه أنثى، أنثى أيضاً!

تدخل الجدّة قسمة بعد ذهاب النساء، وترفع القماشة البيضاء الشفَّافة عن وجه الوليد، ترمقه بعينين ناعستين ووجه يابس، لكنْ، سرعان ما يظهر البشر على ملامحها المتهدِّلة، وتصلي على النبيِّ وآله.

[وبعد أن أنْهَى الكلب الأسود مقالته، رفع رأسه بشموخ، ولم يدنِّس لقاءه مع الولد الباكي بأيَّة نبحة، ولأنَّه اطمَأَنَّ الى انقطاع النشيج، استدار بخفَّة عائداً الى العتمة التي انْبَثَقَ منها... ها ياحلُّوم؟!.. حلُّوم؟.. أتسمعني..؟

.. الحمد لله .. لقد نام أخيراً.]

ـ هل تسمعني يا ولد.. انهض.. أفق يا ولد.. انهض.. لقد طردوك من الفرن أنت أيضاً.. انهض.. انهض..

القسم الثالث

الهــارب

السَّاعةُ على الحائطِ
مُعَطَّلَة منذُ العامِ الفائِت . .
لقدْ أبْقَيْتَها هَكَذَا . .
تِمْثالاً . .
للْوَقْتِ الشَّهيد.

*** كوان شين طاو**

كنت أريد انْ أُنهِي القصّة بشكل أفضل، لكنّي في الحقيقة لا أعرف ماذا يعني (أفضل). وأعتقد أنَّ لوضعي النفسي علاقة بالأمر. ربَّما لم يكن جائزاً أن يحظَى بطلي بنهاية لم أحْظَ بها أنا. فمثلما انتهى بي الأمر الى الاختلاء مع نفسي، كان عليه أنْ يخْتَلِي مع نفسه أيضاً، أو داخل نفسه، لا فرق. وهل تستطيع الكتابة أنْ تُعَالج شيئاً أو تغيِّره؟ لا أستطيع الجزم بذلك، إنَّها تشكِّل في أفضل الأحوال ما هو مشوَّش في التجربة، تجْلُوه، أو تعيد توجيهه نحو أفقٍ ما.

فتح أفقٍ ما، أهذا ما توفِّره الكتابة؟ هل أحتاج الى أفق ما وأنا في هذا المكان؟ وهل أستطيع التحكُّم في هذه المسألة القدريّة: (حاجة الإنسان الغريزية الى أفق ما حتى لو كان خياليّاً من أجل الاستمرار)..؟

كنت أفكِّر دائماً أنَّ على أحد ما أنْ يقرأ ما أكتب من أجل أنْ أكتب أصلاً. فهل أنا متيقِّن الآن من هذا (الأحد)، وقد وصلت الى كلماتي الأخيرة؟ أم أنَّ الأمر لا يعدو كون (الأحد) الذي افترضه مجرد أفق شخصيٍّ خياليٍّ من أجل ممارسة شخصيَّة جدَّاً وغير مضمونة النتائج.

* * *

أراجع مخطوطتي، وأتوقف عند بعض الحوادث، أغيِّرها، ثمَّ

اجْتَرِحُ حكاية أخرى، لكنَّه يرفع رأسه اليَّ، ويشتمني، ثمَّ يسلك في طريق أجهله، وأبقى الاحقه وأنا لا أعرف ما يدور في رأسه.

ـ ألست صنيعتي ؟ أنا وصديقي العزيز آباؤك.

ـ وهل سيستمرُّ ذلك أبد الدهر، عليَّ أنْ أشارك في مصيري على الأقل.

ـ وتحت أيِّ سلطة تدرج تمرُّدك هذا؟

ـ تحت سلطة المخيّلة.

* * *

البردُ قارسٌ. كنت قد أغلقت فتحة النافذة المكْسُورة بجواري بلفَّة من الصحف، لكنَّ خيوط الهواء الباردة تتسلل من حيث لا أدري. أحاول تشْتِيْت ذهني وهو يندفع بصور متلاحقة، لأنِّي أريد النوم، ولكنْ، عبثاً. أنا متعبٌ حدَّ اللعْنَة، متعب من التفكير، وأشعر أنَّ راسي قد غدا مقْلَعَاً لنفايات لا حصر لها. تتدافع الصور من دون إرادة منِّي، ثمَّ تمرُّ واحدة فألتقطها، لأنَّها قد تساعدني على النوم. (اللاشيء). . سأفكِّر في اللاشيء إذنْ. لأنَّه عدو الأشياء. أركِّز على اللاشيء. فتتحدَّب الأسهم الكهربائيّة المنطلقة من نقطة مجهولة في الرأس متّجهة الى نقطة مجهولة أخرى. أركِّز أكثر، واتقلَّب تحت بطانياتي الثلاث. كانوا قد أذاعوا في نشرة الأخبار من مذياع أحد زملائي في الغرفة، إنَّ درجة الحرارة الواطئة لهذه الليلة ستكون ثلاثة تحت الصفر، وهذا شيء نادر الحدوث في مناخاتنا القاريّة. أسحب الأطراف المتهرِئة لبطانيّاتي الثلاث على وجهي، موقناً أنَّ (معرفتي) بالبرد القارس الليلة لها دخلٌ كبيرٌ في الارتجاف الذي يعتريني الآن.

ولكنْ آه، لا يبدو التفكير في اللاشيء نافعاً لحالتي، ها أنَّ وتيرة الأسهم المنْحَرِفة تتزايد، وتضرب بعنف صفحة الرؤيا في صالة

عرض النعاس، فتردُّ في خاطري صورة بوذيٍّ متأمِّل، إنَّه يفكِّر في اللاشيء كما يقولون، (إنَّ اللاشيء هو مصدر كلِّ الأشياء) تبرق هذه الجملة على شاشة عرض النعاس، ولا أعرف مصدرها. إنَّ التفكير في اللاشيء يجلو الذهن أكثر، ويساعد الأشياء كلَّها على الحضور بصورة أسرع. هذه هي المعْضِلَة .. يا للهول. أرق لهذه الليلة أيضاً، مع ثلاث بطانيّات مخرَّمة، وثلاث درجات من البرودة تحت الصفر.

* * *

(إنَّ ما لا ليس له معنى، متفوّق على الذي له معنى) أكتب هذه الجملة الفلوبيريّة، وأتذكَّر اللاشيء الذي خرَّب ليلتي الماضيّة. أنا أتذكَّره، لأنّي لم أستطع اليوم وأنا أخرج للتعداد تَذَكُّرَ أيَّ شيء آخر، صراع عنيف بارد ومعتم ومرضيّ مع اللاشيء، من أجل النوم لا أكثر.

إنَّ ما تزرعه في النهار تحصده في الليل، لقد قال ذلك أحدهم، لكنّي الآن غير معْنِيٍّ بتذكُّر الأسماء. الجدال الذي دار بيننا أنا وياسين وجاسم عصر اليوم الماضي هو من سبَّب أرقي. (ليس هناك شيء من لاشيء) قال أحدهم ذلك أيضاً ولا أتذكَّره.

كنت قد أفرغت كلَّ ما لديَّ من كلمات، واستمعت لهم طوال الأشهر الماضيّة، وأنَّبْتُ نفسي، وجلدتها، وعاقبت روحي اللائبة بأشدِّ ما لديَّ من لا مبالاة وقسْوَة، ولكنَّ كلَّ ذلك قد انتهى، لماذا يعودون دائماً الى النقطة ذاتها، لماذا لا يبحثون عن كلمات أخرى.

(الكلمات هي من تختارنا، لا نحن من نختارها) لقد قال ذلك أحدهم، ولست أنا. لكنَّ ذاكرتي تشيخ وتتآكل، وأنا بدوري أدفع

باتّجاه ذلك عن عمد. لم أعدْ أعْبأ بالمقولات. وحين جلب لي أخي الكبير دفاتري التي أوصيته عليها في المرَّة السابقة، قلّبْتُها كأنَّها لشخص غريب. قرأت مجموعتي الشعريَّة التي لم انتهِ بعد من تحكيكها، وسخرت من نفسي لأنّي أنفقت جهداً كبيراً أمام كلمة لن يَعْبَأ بها أحد على أيَّة حال.

خطّطت بقلم رصاص على جمل كثيرة، واعتبرتها مقولات، تملك قيمتها من وجود آخرٍ ما، تماماً مثلما يحتاج عود الثقاب بالضرورة الى سطح خشن من أجل أنْ يكون عود ثقاب حقيقياً.

لماذا لا يتركوني في حالي؟ لماذا لا يصمتون؟ أتخيَّل رجلاً أعجب بامرأة، وهما في رحلة جويّة، ويقرّر بسرعة مع نفسه أنْ يقضي معها وقتاً جميلاً، وقتاً جميلاً لا أكثر. لكنَّ الطائرة تسقط، ويكون هو مع هذه المرأة الناجيان الوحيدان. ولحسن أو سوء الحظّ يستطيعان السباحة والوصول الى جزيرة ليست على الخريطة. بعدها يقضيان الخمسين سنة التالية مع بعض، ويكون الرجل مرغماً على نسيان أنَّه أراد أنْ يقضي معها وقتاً جميلاً. وقتاً قصيراً لا أكثر.

هذا هو حالي الآن مع أصدقاء الصّدْفَة . بدأت أتحاشَى الجلوس اليهما، ولمسا أنّني أتَقَصّد عدم مواجهتهما كثيراً. إنَّهما لا يتوقفان عن اتّهامي آناء الليل وأطراف النهار، أنا السبب فيما حصل لهم، أنا الذي أغويتهم، أنا الشيطان الذي حوَّطهم وأزلَّهم:

ـ لماذا لم يأتِ حلمي معنا؟.. ها؟.. هل فرضت عليه شيئاً؟ كان حرَّاً. لماذا لم ترفضوا أنتم أيضاً؟

ـ وما معنى الحال الذي انتهينا اليه؟ قلْ لنا؟

ـ ليس هناك معنى.

صحتُ في وجوههم، وانْتَبَه الى جدالنا باقي النزلاء.. لكنّي

أكملت من دون اكتراث، مستعيداً نبرتيَّ التي أنضجتها الشوارع والمقاهي والهواء الطلق:

ـ الوجود ليس له معنى، لا شيء هناك له معنى، لا معنى لنا، أو لأيِّ شيء، لا معنى لتكرار هذه المحاكمة كلَّ صباح ومساء، لا معنى لكلامكم إطلاقاً.

* * *

قلَّبْت، حال ذهاب أخوتي وأصدقاء محلَّتي، الكتب والدفاتر التي جلبوها لي. فتحت الكيس البلاستيكيَّ، وأخرجت الكتب جانباً، ثمَّ تلقفْت مخطوْطاتي، قلَّبتها من دون اهتمام ورميتها على الفراش. بعدها رفعت دفتراً غريباً، فتحته وعرفت في الحال أنَّها (ملاك وحيد)، القصّة التي أعطاني إيَّاها حلمي ولم يسألْني عنها ثانيةً. لقد دخلت في أغراضي خطَأً، وكأنَّها تريد ملاحقتي، ومحاكمتي أيضاً.

* * *

سأقترح شيئاً آخر، من أجل الهروب لا أكثر، أنا لست في السجن الآن، أو أنا في سجن ذاتي، كما يحبُّ الرومانسيُّون أنْ يقولوا. أقرأ القصّة التي أعطاني إيَّاها حلمي نهار هذا اليوم، تتلاحق أمامي كلماته الناعمة والحمراء، وتَخِزُني عميقاً، ما الذي يكتبه هذا الولد، ياإلهي، إنَّه يتكلَّم عن شيء أعرفه. لماذا قال رسول الكاتب عنها إنَّها قصَّة سيئة، إنَّها ليست سيئة تماماً، أو إنَّها بصيغة أخرى، تعنيْني كثيراً، لذا لا أملك حكماً نقديَّاً عليها.

(عليك أن تغيِّر النهاية ربَّما، كي تكون قصّتك أكثر واقعيّة)

لماذا عليه أنْ يغيِّر النهاية، إنَّ هذا ما حصل في النهاية، لماذا عليَّ أنْ أغيِّر أو يغيِّر النهاية، أنا لا أستحقها، أنا لا شيء. وهو لا يملك نهاية أخرى. أعرف ذلك.

آه. .

ـ بدلاً من ذلك. . دعْني اقترح.

يسحب رسول الكاتب شهيق دخان من ذراع النرجيلة، ويستغرق في التفكير لثوانٍ ثمَّ يُفْلِت ذراع النرجيلة بثقة وينفث الدخان في وجوهنا ويقول:

ـ بدل أنْ تَهْرِسَ البطل سيارة مسْرِعَة، تمرُّ السيارة بجواره من دون أنْ تصدمه، بعدها سيعود الى شقَّته ويجد نـود بانتظاره وهي مبتسمة. يغلق باب غرفة النوم، بينما تحلُّ هي الشريط الورديَّ الذي يربط جانبي ثوب نومها وتدعوه اليها. . هكذا هي النهاية الجيدة.

قال ذلك ثمَّ قهقه ضاحكاً، وابتسمنا من دون أنْ نعرف سبب ضحكته الشائخة.

ـ لكنَّه فقدها الى الأبد. . أنا أعرف ذلك.

طفا صوت حلمي المرْتَجّ مثل صوت فتاة مراهقة، فالتفت اليه العجوز، وقد تغيَّرت نبرته، وبدأ يحاكمه بهدوء:

ـ وماذا تعرف أنت عن الفقدان؟ ما زلت صغيراً ولحميّاً، ولد صغير فقسَ من البيضة للتوّ.

قال العجوز وفهمنا أنَّه يحاول تشجيعه بهذا الكلام، ثمَّ أكمل مستغرقاً مع نفسه وذراع نارجيلته:

ـ أمّا أنا فلو وزَّعوا الفقدان الذي أعيشه على كلِّ البورصات ومكاتب الصيرفة لأفْلَسَ العالم.

قال ذلك وضحكنا من دون استئذان، وكنّا نعرف السبب هذه المرَّة.

* * *

سألت عنه أخي الكبير، ولكنَّه استغرب من الاسم:

ـ حلمي! هل هناك أحد اسمه حلمي حقّاً؟

ـ إنّه صديق لي من أيام الدراسة، إنّه صديقي الوحيد!

قلت ذلك، وكأنّي لمست الحقيقة من دون قصد، الحقيقة التي كشفها لي هذا المكان جيداً.

ـ ولكنّك لم تُخبِرْني عنه سابقاً؟

قال أخي، فصمتُّ، بعد أنْ أيقنت أنَّ الكلام لم يعدْ ينفعني كثيراً.

في الليل قلّبت أوراق قصّتي ثانيةً، وفكّرت: ماذا لو أصرَّ الكلُّ على عدم معرفته، ماذا لو أنكروا جميعاً وجود شخص بهذا الاسم. سأخرج عاجلاً أم آجلاً، وأذهب الى نهاية الچوادر، وأدخل الى زقاق السادة. وحين أسأل عنه، أو عن عائلته، لا يرشدني أحد. أبحث عن ندى، فلا أجد لها أثراً. حينها، هل سأصدّق أنّه لم يكن سوى شخصيّة خياليّة في قصّتي التي كتبتها؟

* * *

اكتشفت أنّني هنا قادر على فهمه أكثر من أيِّ مكان آخر. تهاوت صور وأشياء كثيرة كانت تشغلني في الخارج، واستيقظت فجأةً وبإلحاح كلُّ كلماته الخافتة وغير المسموعة، لم أكن أنْصُت له جيداً، كانت الضوضاء حولي وفي رأسي، كنت جزءاً من الضوضاء ذاتها.

وأنا الآن حبيس الصمت الذي طفا بعد خفوت كلِّ شيء، لكنَّ نبرته المرتجّة ترافقني، ولا أستطيع القول إنَّ ذلك يريْحني، أو يبعث الطمأنينة في روحي، إنّه يؤرّقني، لذا، شرعت في الكتابة، كتبت قصائد، ومزقتُها، لأنَّ الضوضاء انبثقت معها. عدت الى مسوداتي وشرعت بتمزيق كلِّ شيء، سأعود الى نقطة صفريّة قديمة، ولكنّي

مع ذلك لم أرد الصمت، لأنَّ صوته سينبثق حينها. أمْسَكْت بقلمي وشرعت في كتابة حكاية، انْتَبَهْت بعد حين، أنَّها حكايته، أو حكايتي، أو حكاية تمزجنا معاً. بهذه الطريقة ربَّما سأخرج صوته من رأسي، لا أريد منه أنْ يجْلُدَني هو أيضاً.

إنَّ ذنبه الوحيد تجاهي، إثْمُه الذي جعلني لا أتشجَّع للقياه ثانيةً، هو أنَّه لم يتغيَّر، كان صورة قديمة عنِّي، كان صورتي التي عملت كلَّ شيء من أجل تمزيقها. صورتي التافهة التي ظننت أنَّني رميتها ورائي، فوجدتها في نهاية النفق مثل مرآة ناصعة.

* * *

ولكنِّي قلت منذ قليل، إنَّني في سجن خياليِّ، ألَّا يمكن لي أنْ أفترض ذلك؟ أنا هنا في غرفتي أتابع القراءة في قصّة (ملاك وحيد) التي كتبها صديقي. يتأخَّر بيَّ الوقت، لأنَّني أتوقف مع كلِّ جملة وأسرح بذهني بعيداً. أشعل سيجارة جديدة، وأذهب بعيداً، أتذكَّر (ن) التي فقدتها. إنَّه يكتب شيئاً يذكّرني بها، إنَّه يكاد يكتب قصّتي.

ملاك وحيد.. هل هي امرأة برزخيّة ما بين تحقُّقها واستحالتها.. إنَّ (Node) تعني بالانگليزية المأزق، أو نقطة اللقاء، أو نقطة تقاطع مدارين. هذا ما استطعت قراءته في أحد القواميس.

هل كان يعي كلَّ هذه الأشياء؟

أُنهِي القراءة في دفتر صديقي، وأجد نفسي مخْنُوقاً، اغالب هجمة أحاسيس تافهة، أفتح الراديو، وأحرِّك الموجات من دون أنْ أقف على إذاعة محدَّدة. وحين تفشل كلُّ محاولاتي في إبعاد صورتها المستيقظة في أعماقي، أرْخِي رأسي الى الوراء واستسلم نهائيّاً.

* * *

أتذكَّر تلك اللوحة على غلاف إحدى المجلّات. يد ترسم بقلم رصاص يداً أخرى، ترسم هي بدورها اليد الأولى. تساءلت في وقتها عن اليد التي ابتدأت في الرسم أولاً، الخط الأول، والنقطة الأولى، وقادني ذلك الى تَشَعُّبَات لا نهاية لها. لكنَّ الذي تبقّى من كلٍّ ذلك في ذاكرتي الآن، هو يدان ترسمان بعضهما.

أفتح الدفتر وأحاول استعادة الرسم من ذاكرتي، أرسم، ثمَّ أكتشف أنّني رسمت شيئاً جديداً. أتذكَّر، وأكتشف أنّني أعيد كتابة الأشياء في ذاكرتي.

لقد تلاشت لديَّ الحاجة للكتابة. لم يعد هناك سوى هاجس وفاءٍ غير مفهوم لصديق غائب. أحاول الاقتراب منه والتصالح معه من خلال الكتابة.

أترك لكلماته الخافتة سلطة أنْ تتسلل إليَّ، أو الى الأوراق البيضاء، التي تركها فارغة في نهاية دفتر قصّته (ملاك وحيد). أغرق نفسي في مهمّة ليس لها معنى أيضاً، مثل جلوسي هنا، أو استماعي لمحاكمات أصحابي الطارئين.

* * *

.. بعد أنْ اختَفَت المروحيّات من السماء الملبَّدة بالغيوم، تمكَّن من سماع صوت آخر، وقع أقدام كثيرة، وقعقعة سلاح، وهمهمات غير مفهومة تقترب بتثاقُل. لم يكن يستطيع تحريك رقبته ليرى ما حوله، كان يرى السماء الرماديّة فقط.

حين سحبوه، أو أزاحوا الرُّكام من عليه، كانت ركبته اليسرى مغطّاة بالدماء تماماً، وحين أمرها بأنْ تتحرَّك لم تستجب له.

* * *

.. قالت له، إنَّ في عروقك دماء انگلوساكسونيّة.

ـ بل انت من تجري في عروقها دماء ساميّة.

(هو من قال لي ذلك. .) !

هل كان يجيد التحدُّث بالانكليزية؟ لا أعرف بالضبط، لكنَّه ردَّد أمامي ولأكثر من مرَّة جملة انكليزية ينسبها اليها:

ـ you have a wilted eyes like sting of love

والتي تعْني حسب قوله (لديك عينان ذابلتان مثل لدغة الحُبّ).

إنَّها تشبه جملة من حوار في فيلم أجنبي، لم أستطع تصديق أنَّ كلَّ هذه الأشياء حدثت معه، لم يبدُ عليه أنَّه مرَّ بمحَنٍ كهذه.

قال لي يومها، إنَّ الموظفين الدوليين عادوا اليه، وكرَّروا عليه الأسئلة نفسها، من أجل أنْ يحسموا الأمر نهائيّاً. لكنَّه هذه المرَّة كان مخْبَطاً. لقد فقد نود، بسبب صديقه مسافر. لقد حطَّم رفيق غرفته الكرديّ، أملاً طفوليّاً كان قد استعاد من خلاله أجواء الحكايات الخياليّة التي روتها له جدّته.

ـ إنَّها للطبيب الأميركي . . وليست لك.

من أين عرف مسافر أنَّها زوجة الدكتور هاريسون اريگا، ولماذا صدَّقه بسرعة؟ الأنَّ كلَّ ما كان يدور في المستشفى يشير الى ذلك، أم لأنَّه لم يكن يصدِّق مع نفسه تماماً أنَّه يعيش حكاية طفليّة؟

كرّر الموظف الدولي بلهجة شاميّة سؤاله، من أجل التأكُّد. لكنَّ جواب حلمي جاءه ثابتاً:

«أريد أن أعود الى بلدي. . أريد بلدي. . لا أرغب بالذهاب الى أيِّ مكان آخر».

* * *

صباحاً، وجدت النافذة التي تطلُّ على سريريّ مفتوحة على مصراعيها، وغزاني ضوءٌ صيفيٌّ، وأيقظتني الأيدي اللاسعة لدفء

أول النهار. وحين نهضت دفعت البطانيّات عن قدمي، ونظرت الى باحة السجن من النافذة، فشاهدت الشاعر كوان شين طاو يلعب التمارين الرياضيّة مع النزلاء الآخرين.

تذكَّرت مع نفسي، أنَّني انتهيت من الكتابة ليلة أمس. سيتركني صديقي الآن أستمتع بالسكينة، سيغادر منطوياً على أسراره الكثيرة الأخرى، التي لم يفصح لي عنها، ولم تسعفني الكتابة في اكتشافها. عائداً الى زقاقه، ومحلّته، وجيرانه، وأصدقاء طفولته. ولن أكون بينهم بالطبع. سأمرُّ في خاطره ربَّما مثل طيف باهت لصديق جاحد يابس القلب. لكنَّه أكثر وفاءً منِّي، أنا أعرف ذلك، لقد سأل عنِّي وتقصَّى أخباري، لكنَّ المشاغل أخذته حتماً.

نظرت الى قصّة صديقي التي كتبها عنِّي، كما افترضت ذلك، ومرّرت سريعاً على الحكاية التي كتبتها عنه في الصفحات البيضاء الفارغة من الدفتر، فانْتابني شعورٌ بأنَّني أنجزت شيئاً من (حسِّ التوازن) مع العالم الخارجي، سدَّدت شيئاً من ديني لشخص يمثِّل لي الآن شاشة حياة ماضيّة.

أتخيّل أنَّه سيقرأ ما كتبته كَتَتِمَّة لقصّته، سينظر إلَّي بعينيه الذابلتين، وتنبئُ ملامحه أثناء القراءة عن حيْرَة غير مكتملة. لكنَّه سيطوي الدفتر في النهاية ويعطيه إليَّ قائلاً كعادته:

ـ إنَّها قصّة جميلة . . لماذا لا تنشرها؟

* * *

ربَّما استفاق من الحمى استجابة لرجاء الغول كثير الشعر، أو سلك طريق العودة بعد لقائه بكلب حكايات جدّته الأسود. أتخيَّله الآن مع ندى أو نادية أو نـود، ينتظر ولادة طفلته التي تشبه حتماً الجدّة العجوز قسمة، لا لشيء إلَّا لأنَّ ذلك كتب في الأزل: إنَّ مَنْ

يلتقيان في البدء، يستمرَّان في ذلك، يعبران الأمكنة ويطويان الزمن، تفرّقهما الصروف والمحن، لكنَّهما يلتقيان ثانيةً، ليعيدا أمراً كان قد حدث قبلها لآلاف المرَّات.

* * *

[لقد أنجبت ثمرتنا. السيد هاريسون أريكا يعتقد أنْ المولودة ابنته. لقد سمّيتُها (ice-maw)، على اسم جدَّتي التي تعود بأصلها الى الهنود الحمر، ويعنِي (حوصلة الثلج). إنَّ لديها ثقباً في القلب، ولكنَّها ستعيش. أعرف ذلك.

هل تتذكَّر تلك الليلة؟ ما زال خاتمك معي، يذكِّرُني دائماً أنَّ لقاءَنا لم يكن حُلْمَاً].

(نوديت هاريسون اريكا)

ولاية ميشغان/ الولايات المتحدة.

* * *

عند الثانية فجراً هبت الرياح لتقرقع الأواني المنسيّة في باحات البيوت، وتأخذ الثياب المتروكَة من غير مشابِك. ترتجف أجساد الخيل شبه النائمة في زقاق البو درَّاج، وتموءُ القطط التي حرَّكتها غرائزها للتسكُّع بعيداً عن مخابئ نومها. ينبح الكلب البوليسيُّ لرزّاق الأمير، ويصمت، ثمَّ يكرّر نبحاته المتضايقة من شيء مجهول، ويدور بسلسلته الطويلة على سطح البيت المبلَّط بالكاشي. ما سوى ذلك، تنْفَرِد الريح القويّة بعزف مقطوعتها الليليّة داخل التجاويف التي تصادفها، وتستمرُّ في ذلك حتى انبلاج الفجر.

عند ضحى اليوم التالي، كانت نادية على السطح تجمع الملابس الرطبة بسبب أمطار ليلة البارحة. تنظر الى السماء الشاحبة، وتشاهد ثُلَّة من الغربان تدور حول بعضها بزحامٍ شديدٍ في

أعلى السماء، وتنتبه الى أنَّها جميعاً ترتدي قمصاناً بلونين أبيض وأسود. ترفع قميصاً لأخيها محمد من على الحائط الفاصل بين البيتين. وتنظر من وراء الحائط، الى سطح بيت عمّها، فترى فوطة والدتها جاثمة على البيت الطينيّ المتهدِّم لـ (حِيوان). والتي أخذها الهواء من الحبل أثناء الليل مع ملابس أخرى.

تعبت من الصياح على ابني أخيها، وهي ترجوهم أنْ يقفزوا الى سطح البيت الآخر، ويلمُّوا الملابس من عليه. أرخَت يدها على الستارة ناظرة الى بيت صديقتها السمراء، وعزمت على انتظار صعودها بالصدفة، بينما صوت الغربان الضعيف يستمرُّ في طرق أذنيها. فجأةً ترتعدُ فرائصُها حين يصلها صوت آخر، صياح مرْعِب من عمق البيت. ألقت الوعاء البلاستيكيَّ المقطَّر من يديها وهرعت نازلةً على السلَّم الحجريِّ المنْحَني.

كانت سناء تمسح فناء البيت حين طرق الباب أحد العمال الذين يخرجون كلَّ فجر مع محمد. فتحت له، وخامرها إحساس سيء حين شاهدته، فالنهار لم ينتصف بعد، وهم لا يحضرون عادةً في وقت كهذا.

أخبرها أنَّ محمد مريض وقد نقلوه الى المستشفى، صاحت وهرع كلُّ من في البيت اليها، وظلَّ العامل ينظر الى الفوضى التي سببها وهو يدعك الاسمنت والجصَّ من يديه.

أحسَّت العائلة وهي تتحرَّك بسرعة من أجل الذهاب الى المستشفى أنَّ في الأمر شيئاً أكبر، وحين سألت الجدَّة، أجابتها نادية بحزن أنَّ محمد نقلوه الى المستشفى، ربَّما سقط من سِقَالة البناء العالية.

فرغ البيت فجأةً أمام عيني الجدَّة، لم يطلب منها أحد أنْ تذهب

معهم لتطمئن على حفيدها. الأول اختفى فجأةً، وهاهو الثاني على شفا أنْ يفعل ذلك.

(يا إلهي ما الذي فعلته معك لتجازيني هكذا)

رفعت يدها المعروقة بالدعاء، غير واثقة من سؤالها للإله، لأنَّها تعرف في قرارة نفسها، لماذا يفعل معها الإله ذلك. تحدِّق في أرجاء البيت الذي غزته الرياح الخريفيّة ليلة أمس، وترى أنَّ زوجة ابنها سالم، لم تنتهِ بعد من تنظيف البيت ولَمِّ أغراضه. ترفع بين خطوة وأخرى عينيها الى السماء بانْخِذَال، وتتخيَّل أنَّ الإله ينظر اليها من ذلك المكان الشاهق ويعاتبها:

ـ لم تفِ بنذرك لي يا قسمة، لماذا تسأليني، وانت أعرف بنفسك؟

تتذكَّر فجأةً حلُّوم، كانت تسأل ابنها كلَّ ليلة عنه، فيجيبها من دون أنْ ينظر اليها، إنَّه لا يعرف مكانه، صديقه الذي كان يزوره في بيت زوجته اختفى أيضاً.

ـ ربَّما عمل مَكْسُوْرَة ودخل بسببها السجن.

أجابها ابنها بذلك، والتعب يرسم خطوطاً دقيقة حول عينيه وعلى جبهته. إنَّها لا تعرف القلق الذي يأكل سالم تجاه مصير ابنه. كلام البنت الصغيرة عصر ذلك اليوم الذي جاءت تسأل فيه عن حلمي، جعله يفكِّر جديًّاً بالبحث عن هذا الولد العاق، ومحاسبته وعقابه إنْ تطلَّب الأمر، ما الذي يعتقده، أليس له أهلٌ وراءه؟

كانت الجدَّة العجوز تسْتَغرِق حين يتركوها وحدها في (نعاويها) المعتادة، نائمة على وسادتها من ريش النعام، وتعدد أسماء مفقوديها، من الآباء والأبناء، تذكُّر كشاش وأيامه، ثمَّ أضافت لهم مؤخراً حلمي، وبدت أكثر لوعةً على فقده، ربَّما لأنَّها تعتقد أنَّ لها

يداً في اختفائه. لكنْ، من الذي يكترث لما تفكِّر فيه، إنَّهم مشغولون بأنفسهم، وحريصون على ألّا تسبّب لهم، وهي في أرذل العمر، مشكلة ما أو مصيبة.

(قل لي ما الذي تريده منّي؟ ماذا أفعل كي لا تضيع هذه العائلة؟)

تخاطب ربَّها، وحيدة في وسط الحوش، بينما نادية هناك داخل البيت الثاني، تركوها مع الأطفال. فلم تستطع وسلام الصغير في حجرها أنْ تُكمِلَ باقي أعمال البيت.

نظرت الجدَّة العجوز الى الحائط الذي علته الصور المغْبرَّة، ثمَّ رَنَتْ الى العنكبوت الحارس في شبكته، وودَّعته صامتةً. اقتربت من ثوب يعود لسناء، شاهدته ساقطاً على الدرجات الأخيرة من السلَّم. أخذته وتلمَّسته فرأت أنَّه ما زال رطباً، وملوَّثاً بالتراب. نظرت الى السماء ثانيةً، ورأت كُتَلاً سوداء شاحبة لم تميّز ما هي تدور وتدور، وكأنَّها تفعل ذلك في مخيّلتها ورأسها هي. استغفرت ربَّها، وعقدت العزم، بعد أنْ أيقنت أنَّ أحداً سوف لن يمنعها الآن، على تنفيذ نذرها، وليغفر لها الله أنّها ستأتي به متأخّراً.

ارْتَدَت الثوب الرطب، ونعلها البلاستيكيَّ الأسود، ودنت من الباب، الذي تُرِكَ مفتوحاً، تأمَّلت الزقاق، وأحسَّت بأنَّ وقتاً طويلاً مضى منذ آخر خَرْجَة لها. وضعت عباءتها على رأسها، مغالبة شعوراً ممضَّاً بالمَهَانة، فيما لو رأتها نساء الحيّ بهيئتها الغريبة. توكلت على الله والنبيِّ وآل بيته، وخطَتْ خارجة من باب البيت، تلفتت بعينها، ويدها اليابسة والنحيفة مثل قصبة، تمسك بطرف العباءة المدلّاة على رأسها. ثمَّ نظرتْ الى السماء، كأنَّها أحسَّت بِلَسْعَة ما من عيْنَي الإله، فنزعت العباءة مُذْعِنَةً، وطوتها في يدها،

وبدأت تسير من دون أنْ تَعْبَأ بالفضول الذي اعترى العيون المارَّة بجوارها. خطَتْ بمشيها الوئيد حتى وصلت من دون أنْ تَنْتَبِهَ الى دكان أبي ناجي، وكانت هذه المسافة هي حدود نذرها القديم، لكنَّها تجاوزت الدكان وثُلَّة النساء اللواتي يتسلَّمْنَ الحصّة التموينيّة من أبي ناجي، واستمرَّت بسيرها حتى خرجت من طرف الزقاق. كانت تفكّر بأنَّه سيعود ثانيةً، وإنَّ العائلة لن يصيبها مكروهٌ آخر. إنَّ الربَّ يعلم بِنِيَّتِهَا، ولكنَّهم مساكين لا يعلمون شيئاً. سيعيده الله اليها ثانيةً، لأنَّها لم تفعل شيئاً في حياتها يغضبه.

هاهي تَعبر، وكأنَّها نَسِيَّت نفسها، الى سوق الحراميَّة. خرقت الحدود التي اخْتطَّتها لنفسها عصر ذلك اليوم البعيد حين وقفت والتنُّور الطينيُّ على السطح يشتّت الأشياء بدخانه، وفتحت زيقها متوجِّهة نحو مرقد أبي الفضل العباس، لتنذر نذرها الغريب.

في هذه الأثناء كان مصطفى الذي لم يعلم بعد بما حصل في البيت يَمْرُق بين السيّارات بدراجته الهوائيّة التي اكْتَرَاها من دون رضا أهله أو علْمِهم، وحين انْحَرَف من استدارة الشارع، خُيِّلَ اليه أنَّه لمح جدَّته ترتدي ثوباً أحمر بزهور بيضاء تسير بين المتبضّعين في سوق الحراميّة. توقف وأسند قدمه على الأرض، وحدَّ البصر الى الموضع الذي رآها فيه، لكنَّه وجدها قد اختفت. ثمَّ انتبه أنَّ رفاقه قد سبقوه على الدرَّاجات الأخرى، فعاود الاندفاع بدرَّاجته، موقناً وهو يزيد من سرعته أنَّه تَخَيَّل أو اشتبه بامرأة أخرى.

تضغط بنعلها البلاستيكيّ على أوراق خسٍّ ذابلة وعلى أكياس ورقيّة ممزَّقة وخيوط من الليف والنايلون وأغْلِفة عِلْكَة وحلويَّات وأشْرِطَة قماشيّة مختلفة الألوان، وتفكّر بما جرى للحياة، كلَّ هذه السنين.

ربَّما كانت قدماها المتيبِّسَتان تحنَّان الى الخطوات الثابتة والقويّة لتلك الفتاة التي كانتها، وهي تتخطَّر مزْهُوةً على شريعة النهر في العباسيّة المنْدَثِرَة. أو أنَّها الآن مع نسْيَانها لأيّ شيء آخر، قد نذرت من جديد نذراً غريباً لا يعلمه أحد إلّا هي، تفكِّر أنْ تَفِيَ به عاجلاً، قبلَ أنْ يُداهمُها القدر بصرُوفه، أو تودِّع هذه الحياة.

(انتهت في بغداد خريف ٢٠٠٢)

هذا الكتاب

يتدفّق السرد في هذه الرواية الشيّقة بشاعرية وهو يعرض وجهة نظر مؤلفين داخليين اثنين تناوبا على كتابة أجزاء الرواية الثلاثة؛ وهما حلمي وصديقه عيدان. فيتداخل الواقع مع الخيال في السرد المكثف والغني بالتفاصيل، بالإضافة إلى سارد ثالث ضمني هي العجوز قسمة التي ينساب سردها الأسطوري في تضاعيف القصة العامة.

قصة «نود» الحبيبة التي تختلط حقيقتها مع أوهام رأس عاشق، تبدو مثل قصة إطارية تغلّف قصة أعمق، تحكي عن عراق التسعينيات، عراق انسداد الأفق والعدمية، وتراكم الخيبات.

قصة حب مركّبة، تغدو فيها أشباح الحبيبة أكثر واقعية من غيرها؛ نادية وندى وأقدار نساء أخريات. وهي في العمق أيضاً رواية، ربما هي الأولى، عن الحي الشعبي الأكبر في بغداد؛ مدينة الثورة «الصدر». جذوره وصراع أبنائه مع مصائرهم.

صورة الغلاف: زياد تركي

مكتبة الفكر الجديد

ISBN 978-9933351120